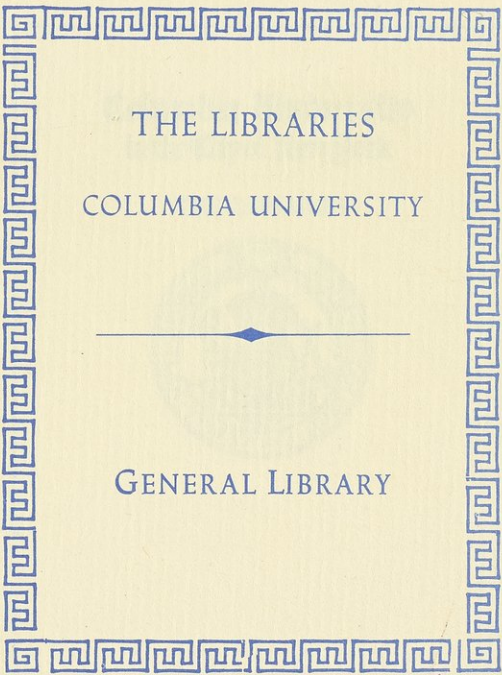




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

MAR 25 1974

مِفْرَحُ الْكَرْبِ

فِي أَخْبَارِ بْنِ أَيُّوبَ

تأليف

جمال الدين محمد بن سالم بن واصل

(المتوفى سنة ٦٩٧ هـ)

[الجزء الأول]

ويتمى بموت نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٦٥٩ هـ

نشره لأول مرة

عن مخطوطات كبرج وباريس وستانبول

وضبطه وحققه وعلق حواشيه وقدم له ووضع فهرسه

الدكتور جمال الدين السبكي

أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد بجامعة الاسكندرية

مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم

وزارة المعارف المصرية . إدارة الثقافة العامة

مطبعة جامعة فؤاد الأول

١٩٥٣

للمناشر

(١) مكتبة المقرئ الصغيرة :

١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة،

القاهرة ، ١٩٤٠

٢ — نحل عبر النحل ، القاهرة ، ١٩٤٦

٣ — إتحاظ الخلفاء بذكر الأئمة الخلفاء ، القاهرة ، ١٩٤٨

٤ — الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك (تحت الطبع) .

(ب) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لجمال الدين بن واصل الجزء الأول ، القاهرة ،

١٩٥٣ (والجزء الثاني تحت الطبع) .

مُفَرِّجُ الْكَرْبِ

في أخبارِ رُبْنَى أَيُوبَ

تأليف

جمال الدين محمد بن سالم بن واصل

(المتوفى سنة ٦٩٧ هـ)

[الجزء الأول]

ويُنْتَهَى بِمَوْتِ نَوْرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ زُنْكِى فِي سَنَةِ ٦٥٩ هـ

نُشِرَ لَأَوَّلِ مَرَّةٍ

عَنْ مَخْطُوطَاتِ كِبَرْدَجٍ وَبَارِسٍ وَاسْتَنْبُولٍ
وَضَبْطُهُ وَحَقْقُهُ وَعَلَقَ حَوَاشِيَهُ وَقَدَّمَ لَهُ وَوَضَعَ فَهْرَسَهُ

الدكتور جمال الدين السيّد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بجامعة الاسكندرية

مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم
وزارة المعارف المصرية . إدارة الثقافة العامة

مطبعة جامعة فؤاد الأول

١٩٥٣

~~893.718~~
~~IL5~~

DT
95.8
.I26
v.1

v.1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

- ١ -

ترجع صلتى بهذا الكتاب « مفرج الكروب » إلى سبعة عشر عاماً مضت منذ عرّفتني به ولفت نظري إلى أهميته أستاذى المؤرخ المحقق الدكتور محمد مصطفى زيادة عند ما كنت أعدّ بحثاً تحت إشرافه موضوعه « تاريخ اليمن تحت حكم بنى أيوب »^(١) ثم شغلت عن الكتاب والبحث مؤقتاً بأعمال علمية أخرى ، ولكننى كنت دائماً الرجوع إليه والإقبال على قراءته والإفادة منه ، وفى كل مرة كنت أرجع إليه فيها كانت تتأكد لدى أهميته القصوى كمصدر أساسى لدراسة تاريخ بنى أيوب بصفة خاصة ودراسة تاريخ الشرق الأدنى ودوله جميعاً فى القرنين السادس والسابع بصفة عامة وهما قرنان حافلان بالأحداث العالمية الهامة وخاصة الحروب الصليبية وغارات التتار .

وكانت تداعب مخيلتى دائماً أمنية عزيزة هى أن أتمكن يوماً ما من التوفر على دراسة هذا الكتاب وإعداده للنشر ، فلما حصلت على الماجستير ، وبدأت أتخير موضوع بحثى الذى أعدّه للدكتوراه اتجه ذهنى فى الحال إلى « مفرج الكروب » وكان أن أعددت بحثى للحصول على هذه الدرجة العلمية وعنوانه « جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، وقت فيه بدراسة حياة هذا المؤرخ الكبير وجهوده العلمية دراسة تحليلية دقيقة مع العناية بوجه خاص بكتابه « مفرج الكروب » .

(١) أرجو أن أوفق لآخراج هذا البحث قريباً .

april 17, 1957 SB

فلما انتهت من هذه الدراسة بدأت أفرغ لتحقيق أمنيته القديمة وهى إعداد النص نفسه للنشر ، وها أنذا اليوم أقدم للقارئ الجزء الأول من هذا التاريخ الكبير الهام .

— ٢ —

ولا ينتظرون القارئ منى هنا أن أقدم له تلك الدراسة التحليلية التى أعدتها عن المؤرخ والكتاب ، فسيكون موضعها بإذن الله المجلد الأخير من هذه النشرة ، وإنما أنا سأوجز هنا فكرة سريعة للتعريف بابن واصل وبيان موضوعات هذا الجزء الأول ولشرح منهجى الذى التزمت به فى نشر الكتاب .

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل المازنى التميمى الحموى الشافعى مؤرخ كبير من مؤرخى القرن السابع الهجرى (١٣ م) ولد مع مولد هذا القرن ، وتوفى قبيل نهايته (٦٠٤ - ٦٩٧ هـ = ١٢٠٨ - ١٢٩٨ م) . وطنه الأصل حماة ، ولكنه طوف فى بلدان الشرق الأدنى الكبرى وعواصمه ، وخاصة دمشق وبيت المقدس وحلب والكرك وبغداد ومكة والمدينة والقاهرة ، وأقام فى عاصمة مصر سنوات طويلة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وشهد أثناء مقامه فى مصر حملة لويس التاسع الصليبية عليها ، واحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد ، وانتهاء الخلافة العباسية على أيديهم ، ثم انتقالها إلى القاهرة ، ثم اتصل بالظاهر بيبرس وأرسل سفيراً عنه إلى منفرد بن فردريك الثانى ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

ولابن واصل مؤلفات كثيرة فى الأدب والهندسة وعلم الهيئة والطب والتاريخ ، ضاع معظمها وبقي بعضها مبعثراً فى مكتبات العالم المختلفة ينتظر من يعنى بدراسته وإحيائه ، ولعل أهم مؤلفاته جميعاً — ماضع منها وما بقى — كتابه التاريخى الكبير « مفترج الكروب فى أخبار بنى أيوب » الذى أرخ فيه للدولة الأيوبية منذ قيامها إلى نهايتها فى تفصيل واف وتحقيق شامل دقيق ، ولا غرو فقد اتصل بمعظم ملوكهم فى الشام ومصر ، ومعظم رجال الدولة وأدبائها وعلمائها فى القطرين ، فالحوادث التى يروها — وخاصة فى القسم الثانى من الكتاب — يروها عن مشاهدة حيناً

وعن مشاركة فيها حيناً آخر ؛ ولهذا كان كتابه الأصل والمرجع الذى أخذ عنه كل المؤرخين اللاحقين له فى القرون التالية (الثامن والتاسع والعاشر) عند تأريخهم للدولة الأيوبية .

— ٣ —

وموضوع كتاب « مفترج الكروب فى أخبار بنى أيوب » . كما يتضح من عنوانه ومحتوياتها التاريخ لدولة بنى أيوب منذ قيامها إلى زوالها ، وقد أرّخ لصدر الدولة وسنواتها الأولى مؤرخون سابقون لابن واصل ، كما أرّخ لها حتى نهايتها مؤرخون معاصرون له ، فما قيمة « مفترج الكروب » وما مكانته بين تلك الكتب ؟

أرّخ لصدر الدولة من المؤرخين السابقين :

القاضى الفاضل فى ميادياته (أو متجدداته) ، وفى رسائله .

والعماد الكاتب الأصفهاني فى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، والبرق الشامى ، والعقبى والعقبى ، وخطفة البارق وعطفة الشارق .

وعز الدين بن الأثير فى الكامل فى التاريخ .

وبهاء الدين بن شداد فى السيرة اليوسفية .

وابن أبى الدم فى التاريخ المظفرى .

وأرّخ للدولة — حتى سنواتها الأخيرة ، أو حتى نهايتها — من المؤرخين المعاصرين لابن واصل :

سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان .

وكمال الدين بن العديم فى بغية الطلب فى تاريخ حلب .

وأبو شامة فى الروضتين فى أخبار الدولتين ، والذيل على الروضتين .

وكتاب « مفترج الكروب » لابن واصل يمتاز — كتاريخ كامل لبنى أيوب — عن هذه الكتب جميعاً ، وذلك لأن بعض هذه الكتب أرّخ لصدر الدولة وسنواتها الأولى ، أو لمنشأها ومؤسسها ، أو للنصف الأول منها فحسب ؛ والبعض الآخر لم يقصد مؤلفوه إلى التاريخ لبنى أيوب قصداً ، وإنما هى تواريخ عامة ، أو تواريخ

مدن ، منهجها التاريخ للعالم الإسلامى جملة ، سنة بعد سنة ، وما تضمنته من تاريخ بنى أيوب جزء من كل .

وكتاب « مفرج الكروب » كتاب ضخم مفصل كل التفاصيل ، فهو بحق أوفى تاريخ لدولة بنى أيوب ، وهو إلى هذا قد أفاد من معظم من كتبوا قبله عن هذه الدولة ، كما أنه أضاف — وخاصة عند كتابته عن النصف الثانى من تاريخ الدولة — الكثير من مشاهداته وتجاريبه ورواياته عن المعاصرين .

وقد أרך لبنى أيوب مؤرخون آخرون لاحقون لابن واصل ، نعرف منهم مؤرخين اثنين : أولهما مجهول الاسم ، عاش فى القرن الثامن الهجرى ، وعنوان كتابه : « غاية المطلوب فى تاريخ بنى أيوب » ، وهو مفقود ، وإنما يوجد ملخص له عنوانه : « تاريخ نزهة الناظر وراحة الخاطر » ، والملخص مجهول أيضاً ، وإنما يتبين من كتابه أنه ألفه بعد سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦)^(١) ، وعنى فيه عناية خاصة بالتاريخ للملك بنى أيوب أصحاب حصن كيفا ، وأنه اعتمد فيه كثيراً على مفرج الكروب لابن واصل .

وأما الثانى فهو قاضى القضاة عز الدين أبو البركات أحمد بن ابراهيم ابن نصر الله ابن أحمد الكنانى العسقلانى المصرى الحنبلى ، ولد بالقاهرة فى السادس من ذى القعدة سنة ٨٠٠ هـ ، وأخذ التاريخ عن المقرئى والعينى ، وتوفى سنة ٨٧٦ هـ^(٢) ، وعنوان كتابه : « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » ألفه لمن يسمى العادل من ملوك الأيوبيين المتأخرين فى حصن كيفا ، وهو يختلف عن « مفرج الكروب » فى ترتيبه ومنهجه ، لأنه جعله كتاب تراجم لا حوليات ، فقسم ملوك بنى أيوب طبقات ، وترجم لهم طبقة بعد طبقة ، وقد شرح طريقته فى مقدمة كتابه ، قال : « قاعدة الكتاب : أذكر أولاً أصل البيت الأيوبي . . . ثم تتبعه بذكر التراجم على الطبقات ، فالطبقة الأولى أولاد شادى ، والثانية أولاد أولاده ، والثالثة أولاد أولاد أولاده ،

(١) توجد من « نزهة الخاطر » نسخة مخطوطة فى : Vienne, MX+325 انظر :

Cahen: *La Syrie du nord... etc.* p. 88

(٢) انظر ترجمته فى : (السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٧)

و (الدكتور مصطفى جواد : مؤرخون مصريون مجهولون ، مجلة المستمع العربى ، المجلد السادس ، العدد ٨ ، سنة ١٩٤٥) .

وكذا إلى آخر الكتاب ؛ وأقدم من الأخوة أسبقهم موتاً ، ثم أتبعهم بمن لم أعلم وفاته ، ثم أتبعهم بأخوتهم النساء كذلك ، ثم أذكر أولادهم في الطبقة التي تلي طبقتهم على حسب ترتيب أصولهم كذلك ، وكذا إلى آخر الكتاب . . . » ^(١) وهذا أيضاً قد اعتمد اعتماداً كبيراً على ابن واصل .

فهذان الكتابان ولو أنهما يؤرخان للدولة الأيوبية كمفرج الكروب ، إلا أنهما لاحقان له ومتأخران عنه ، فهما لا يتناولان إلى مرتبته ، لأن ابن واصل معاصر ، وهذان غير معاصرين ، ولأن ابن واصل مفصل وهما موجزان ، ولأن ابن واصل الأصل ، وهما الفرع ، وعنه يأخذان ، وعليه يعتمدان اعتماداً كبيراً ؛ وكل ما لهما من التاريخين المتأخرين عليه من مميزات أنهما يتضمنان الترجمة لبقايا بني أيوب الذين ظلوا يحكمون في حماة أو في حصن كيفا في القرنين الثامن والتاسع . ومن هذه المقارنات جميعاً يتضح لنا أن مكانة مفرج الكروب بين الكتب التي أرخت لبني أيوب قبل ابن واصل وبعده لا يمكن أن تدانيها مكانة كتاب آخر من هذه الكتب . وتزداد معرفتنا بقيمة « مفرج الكروب » إذا علمنا أن جميع المؤرخين المتأخرين الذين عاشوا بعد القرن السابع الهجري أمثال : بيهرس المنصوري ، واليوني ، وشافع بن علي ، وقرطائي العزى الخازنداري ، وأبي الفدا ، والنويري ، والذهبي ، وابن الفرات ، والمقريزي ، والعيني ، وابن تغري بردي ، والنعمي ، قد اعتمدوا عليه عند التأريخ لبني أيوب اعتماداً كبيراً ، ونقلوا عنه النصوص الكثيرة مع التصريح بالأخذ عنه أحياناً ، والسكوت عن ذلك أحياناً أخرى .

— ٤ —

ذكر هذا الكتاب الصفدي في « نكت الهميان » ^(٢) ، والسيوطي في « بغية الوعاة » ^(٣) تحت عنوان : « مفرج الكروب في دولة بني أيوب » وذكره أبو الفدا في : « المختصر في أخبار البشر » ^(٤) وحاجي خليفة في « كشف الظنون » ^(٥)

(١) شفاء القلوب ، حور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، رقم ٢٤٠٣٠ ، ص ٣ ب .

(٢) ص ٢٥٠

(٣) ص ٤٤

(٤) ج ٤ ، ص ٣٨

(٥) ج ٢ ، ص ١٧٧٢ .

والزركلي في « الاعلام » ^(١) ، وبروكلمان في « تاريخ الآداب العربية » ^(٢) تحت عنوان « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » .

والعنوان الثاني هو الصحيح ، لأنه هو الذي اختاره ابن واصل لكتابه ، فقد قال في المقدمة : « وسميته مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ^(٣) . وقد عرف هذا الكتاب في بعض المؤلفات الحديثة باسم « تاريخ الواصلين » ، وهو عنوان خاطئ تحمله نسخة باريس رقم ١٧٠٢ ، وسناقش هذه التسمية الخاطئة فيما يلي عند تحليلنا لنسخ الكتاب .

— ٥ —

المعروف حتى الآن أنه يوجد من هذا الكتاب في مكتبات العالم أربع نسخ خطية :

١ — نسخة مكتبة جامعة كبروج رقم ١٠٧٩

وتوجد منها صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٥٠ ، (وقد رمزنا لها في هذه النشرة بالحرف ك) ، وتتكون من مجلد واحد يشتمل على الجزء الأول من الكتاب ، فقد كتب على الصفحة الأولى منه :

الجزء الأول

من مفرج الكروب في تواريخ بني أيوب

ويلى العنوان سطر كان يحمل اسم المؤلف ، غير أنه يبدو أن ورقة صغيرة قد ألصقت عليه لإخفائه ، وتحت هذا السطر « رحمه الله تعالى » مما يجعلنا نرجح أن هذه النسخة قد كتبت قطعاً بعد وفاة المؤلف أى في القرن الثامن الهجرى .

(١) ج ٣ ، ص ٨٩٧

(٢) Vol. I, P 322

(٣) مقدمة نسخة كامبردج ، ولاحظ أن كاتب هذه النسخة قد أحدث تغييراً بسيطاً في العنوان عند إثباته على الغلاف فكتبه هكذا « مفرج الكروب في تواريخ بني أيوب » . أما العنوان في نسخة مللا چاي فهو « مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب » .

وجاء في ص ٦٠٠ وهي آخر صفحة في هذا المجلد : « وبذلك تم الجزء الأول من مفرج الكروب في تاريخ بنى أيوب » ، ولم يثبت الناسخ بعد هذا تاريخ الانتهاء من كتابة هذا الجزء ، إذ العادة أن يثبت التاريخ في نهاية الجزء الأخير من الكتاب .

ويتكوّن هذا المجلد من ٦٠٠ صفحة ، بطول ١٨ سم وعرض ١٤ سم ، وعدد السطور في كل صفحة ٢١ سطراً .

وهذه النسخة كاملة منتظمة الترتيب لآخرم فيها ، تشتمل على الحوادث متتابعة سنة بعد أخرى ، وتنتهى بالانتهاء من حوادث سنة ٦١٦ هـ (أى السنة التى مات فيها العادل الأول ، وتولى فيها الكامل محمد حكم مصر) .

وتمتاز هذه النسخة على غيرها من النسخ الأخرى باحتوائها على مقدمة المؤلف نفسه ، ومنها عرفنا منهجه في تأليف هذا الكتاب والسبب الذى دفعه إلى تأليفه ، ولمن ألفه . وهذه النسخة هى الأصل الذى اعتمدناه هنا لنشر هذا الجزء الأول من الكتاب .

٢ — نسخة باريس رقم ١٧٠٢

وتوجد منها صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ٥٣١٩ ، وصور أخرى بمكتبة جامعة الاسكندرية رقم ٦٤ وقد رجعنا إلى صفحات منها لضبط النص وتصحيحه عند نشر هذا الجزء الأول المطبوع من الكتاب ورمزنا لها بالحرف (س) .

وهذه النسخة تشتمل على الكتاب كله — عدا ما بها من خروم — وتتكوّن من مجلدين ، ولا ذكر فيها لتقسيم الكتاب إلى أجزاء ، وإنما هذا تقسيم المجلد لضخامة الكتاب ، وتحتوى هذه النسخة على ٤٤٢ ورقة (أى ٨٨٤ صفحة) قسمت مناصفة على المجلدين ، فكل منهما يحتوى على ٢٢١ ورقة ، طول كل صفحة ١٧ سم ، وعرضها ١٢ سم ، وعدد السطور في كل صفحة ٢١ سطراً .

وهذه النسخة أحدث النسخ جميعاً تاريخاً ، فقد كتبت في القرن التاسع الهجرى (سنة ٨٢١ هـ) ، وهى أقلها جميعاً قيمة لما بها من خروم أضاعت من النص صفحات كثيرة ، ولما أصاب الصفحات الباقية عند تجليدها وترقيمها من اضطراب غريب يجعل متابعة النص أمراً عسيراً جداً ، وهى أخيراً قد خضعت لتغييرات كثيرة ،

أحدثها — فيما نرجح — كاتب النسخة ؛ وقد أصابت هذه التغييرات العنوان ؛
والمقدمة ، والمتمن . أما العنوان فهو في هذه النسخة :

تاريخ الواصلين

في أخبار الخلفاء والملوك والولاطين

تأليف كاتبه ومؤلفه

ويل هذا السطر الأخير سطران آخران يحملان اسم المؤلف ووظيفته ، وقد اُحمت
معظم حروفهما ، وقد استطعنا قراءتهما فإذا بهما « شمس الدين كاتب السر » ،
وهو نفس الاسم الوارد في حرد الكتاب في آخر صفحة من هذه النسخة ، فالنص هناك :
« . . . وكان الفراغ منه يوم الخميس المبارك حادى عشر محرم سنة لإحدى وعشرين
[و] ثمانمائة ، ختمت بالخير والحسن على يد الفقير شمس الدين أحمد بن أحمد بن محمد
الزبني ، كاتب السر لحضرة مولا [نا] السلطان برقوق أدام الله عزه وأنصاره » .

وقد لاحظت أن الخط الذى كتب به لفظا « تاريخ الواصلين » على الغلاف
يختلف عن الخط الذى كتب به بقية العنوان واسم المؤلف ؛ فالخط الذى كتب
البيانات الأخيرة أحدث من الخط الذى كتب اللفظين الأولين ، مما جعلنى أرح
أن هذه البيانات أضيفت عند ضم الكتاب إلى المكتبة الأهلية بباريس ، وأن مضيفها
أخذها عن المقدمة والخاتمة ، فقد ظن — اعتماداً على ما جاء فى الخاتمة — أن كاتب
النسخة هو مؤلفها .

أما المقدمة فتوحى بشئ آخر ، توحى بأن كاتب النسخة أراد أن ينسب الكتاب
لنفسه ، فغير العنوان الأصلى « مفرّج الكرب فى أخبار بنى أيوب » ، واختار له
عنواناً جديداً هو « تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والولاطين » —
وهو العنوان الذى أضافه المضيف على الغلاف — .

وأبعد هذا المقتضب مقدّمة المؤلف ، وحذف القسم الأوّل من الكتاب الخاص
بدولة الأتابكة ، وأوضح أن منهجه التاريخ للحوادث من سنة ٥٣٠ إلى سنة ٦٨٠ ،
واست أدرى لم اختار سنة ٥٣٠ بالذات بدءاً لتاريخه . وقد أوضح هذا كله فى مقدمته
التي اصطنعها للكتاب مكان مقدّمة المؤلف ، قال : « . . . وبعد ، فهذا كتاب
جمعت فيه أخبار الملوك والخلفاء والولاطين ، وما حدث فى أيامهم وأوقاتهم ودولتهم

من النصارى واليهود والفرس والروم ، مبيناً ذلك بالتفصيل والقول الصحيح ، وسميته : « تاريخ الواصيلين في أخبار الخلفاء الملوك والسلاطين » ، مبتدئاً من سنة ثلاثين بعد الخمسمائة إلى ثمانين وستائة ، وهو نعم الوكيل . . . »^(١) . والعجيب أن موضوع الكتاب لا يحقق هذه الأهداف التي أعلنها الناسخ في مقدمته ، فهو أولاً وأخيراً تاريخ ملوك بني أيوب .

وقد أردت بعد هذا التعرف على شخصية هذا الناسخ المغتصب فأعياني البحث ، بل لقد أثار البحث أمامي مشكلات جديدة . فالمؤرخ — كما يتضح من حرد الكتاب — من رجال القرن التاسع الهجرى ، فمن المرجح إذن أن يكون قد ترجم له السخاوى في « الضوء اللامع » لأنه كان يشغل وظيفة هامة من وظائف الدولة — وهى كتابة السر — ، والسخاوى يترجم للكثيرين ممن لم يكن لهم ذكر أو شأن كالتجار والصناع والفقراء والصوفية وغيرهم . ومع هذا فلم أجد لشمس الدين أحمد ابن أحمد الزينى ترجمة في الضوء اللامع . ورجعت إلى قائمة كتاب السر التى أوردتها كاملة القلتشندى^(٢) ، وابن تغرى بردى^(٣) ، فلم أجد بها ذكراً لهذا الرجل ؛ وإنما جاء بها أن الذى تولى كتابة السر من سنة ٨١٦ إلى سنة ٨٢٣ هو ناصر الدين محمد البارزى ، وكذلك نص كاتب النسخة شمس الدين على أنه فرغ من كتابتها في المحرم سنة ٨٢١ هـ ثم أتبع اسمه بقوله : « كاتب^(٤) السر لحضرة مولانا السلطان برقوق » ثم دعا للسلطان بقوله : « أدام الله عزه وأنصاره » مما يفهم منه أن السلطان برقوق كان لا يزال حياً في تلك السنة (٨٢١) ، وقد بدا لنا هذا أمراً عجيباً حقاً ، فإن السلطان الملك الظاهر برقوق حكم مصر من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٨٠١ ، والسلطان الذى كان يحكم مصر في سنة ٨٢١ هو المؤيد شيخ فقد حكم بين سنتي

٨١٥ و ٨٢٤

- (١) انظر المقدمة الأصلية للدولف والأجزاء الأولى التى أسقطها الناسخ من الكتاب الأصيل ، فهذه جميعاً تكون الصفحات ١ — ٣٨ من نسخة ك ، والصفحات ١ — ٦٥ من هذا الجزء الأول المطبوع . انظر ما يلى هنا ص ٦٥ ، هامش ١ ، ص ٦٩ ، هامش ٢
- (٢) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٩ — ١٠٠
- (٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١
- (٤) كاتب السر هو من كان يسمى قديماً كاتب الانشاء أو صاحب ديوان الانشاء ، وقد غير هذا القبط إلى « كاتب السر » منذ عهد المنصور قلاوون . انظر : (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٣٣ وما بعدها) .

٣ - نسخة باريس رقم ١٧٠٣

وتوجد منها صور شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية وتقع في ٢١٦ ورقة (٤٣٢ صفحة) ، ومتوسط عدد سطور الصفحة ٢٣ سطرا .

وتبدأ هذه النسخة بعنوان نصه « ذكر وفاة السلطان الملك الكامل رحمه الله » ، أى ببعض حوادث سنة ٦٣٥ هـ . وتنتهى بحوادث سنة ٦٥٩ هـ وذلك فى ص ١٧٢ ، وجاء فى ختامها :

« ... وأشار على الملك الظاهر أن يولى القضاء بدمشق للقاضى شمس الدين أحمد بن خلكان - رحمه الله - وكان ينوب عن القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى الديار المصرية بالقاهرة ؛ حين كان القاضى بدر الدين متولياً للقضاء بالديار المصرية ؛ فأجاب الملك الظاهر إلى ذلك ، وتقدم إبان يسافر القاضى شمس الدين ابن خلكان صحبته ، وفى هذه الأيام ولى الملك الظاهر القاضى برهان الدين الخضر ابن الحسن أخا (١١٧٢) القاضى بدر الدين بمدينة مصر وعملها - وهو الوجه القبلى - وبقيت القاهرة وعملها - وهو الوجه البحرى - فى ولاية القاضى تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز ؛ والله ولى التوفيق » .

أما الصفحات الباقية من هذه النسخة (١١٧٢ - ١٢١٦) فتتضمن ذيلاً لمفترج الكروب كتبه أحد تلاميذ ابن واصل ومواطنيه واسمه : « على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكى المظفرى » وكان كاتباً للانشاء فى مملكة حماة على عهد المظفر الثالث ، وقد بدأ هذا الذيل بالتأريخ لحوادث سنة ٦٦٠ هـ وختمه بحوادث سنة ٦٩٥ هـ ، وافتتحه بقوله :

« . . . انتهى إلى هاهنا ما أملاه القاضى الإمام جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل . . . متع الله بحياته ، ولم يستوعب حوادث سنة تسع وخمسين وستمائة ، وكانت المتجددات فى هذه السنوات كثيرة جداً من تنقل التتار فى الأطراف المجاورة للشام ، واضطراب الناس وانتراحهم من أوطانهم . . . واستيعاب هذه الأحوال على حقيقتها يطول ، وليس ذلك مما نحن بصدده ، لأن الغرض حصول الفائدة ، وهذا يتفق إن شاء الله بالقول المختصر . ودخلت سنة ستين وستمائة . . . الخ » .

ولم يسجل على هذه النسخة تاريخ كتابتها ، وإنما سجل أحد مالكيها على الصفحة الأخيرة تاريخ تملكه لها ، وهو : « انتقل بالمبيع الشرعى إلى أفقر عباد الله إلى رحمته الفقير محمد بن أحمد بن إسماعيل البعنى الدمشقى الكنعانى المقدسى فى سنة ١٠١٩ تسعة عشر وألف ، بثن قدره عشرين غروش » . ومع هذا فأنا أرحب أن هذه النسخة كتبت فى القرن الثامن الهجرى ، وبعد وفاة المؤلف والمذيل بقليل .

ولا يفوتنى أن أشير هنا إلى أن نسخة باريس السابقة (١٧٠٢) تحتوى أيضا على هذا الذيل ، ولكن يبدو أن كاتب النسخة أجرى قلمه فى هذا الذيل بالتعديل والتغيير فأفسده كما أفسد مقدمة الكتاب الأصيل وعنوانه من قبل ، فهو قد نص على أن ابن واصل قد انتهى فى مفترج الكروب بالتأريخ لحوادث سنة ٦٦١ (لا سنة ٦٥٩) ، والذيل فى هذه النسخة أيضا ينتهى بحوادث سنة ٦٨٠ (لا سنة ٦٩٥) — كما نص على ذلك كاتب النسخة السابقة (١٧٠٢) فى مقدمته — فهذه النسخة الأخيرة إذن تفضل سابقتها فى كثير .

٤ — نسخة استانبول ، مكتبة مللا جلبي رقم ١١٩^(١)

ومنها صور شمسية بمكتبة جامعة الاسكندرية ، رقم ٤٩٨ ، وتقع فى ٢٠٠ ورقة (أى ٤٠٠ صفحة) ، ومتوسط عدد السطور فى الصفحة الواحدة ٢٤ سطراً .

وهذه النسخة أقدم النسخ جميعا وأقيمها لولا أنه ينقصه أوائل الكتاب وخواتمه ، فهى تحتوى على أواسط الكتاب وتبدأ بالتأريخ للحوادث بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ، وتنتهى بحوادث سنة ٦٣٥ هـ بالحديث عن وفاة الملك الأشرف موسى ابن العادل . وتبدأ النسخة بهذا العنوان :

” ذكر ما استقرت الحال عليه من

الممالك بعد وفاة السلطان رحمه الله “

ولا تحمل الصفحة الأخيرة (ص ٢٠٠ ب) أى علامة من علامات الانتهاء أو الفراغ من الكتاب مما يدل على أنه كان لهذه النسخة بقية متصلة بها اتصالا تاما ، ولكنها

(١) أنتهز هذه الفرصة لأقدم الشكر إلى المستشرق المعروف الأستاذ ريتز Ritter ، فهو الذى أرشدنى إلى وجود هذه النسخة ، وهو الذى قام بتصويرها لمكتبة جامعة الاسكندرية إجابة لتوصيتى .

انترعت منها أوضاع ، بدليل أن النص متصل في هذه الصفحة إلى السطر الأخير منها ، وهذه آخر جملة وردت بهذه النسخة :

« وكان في خدمته (أى الأشرف) جماعة من الأماثل وأهل الفضل ، منهم شيخنا في العلوم الرياضية علم الدين قيصر بن أبى القسم بن عبد الغنى ، وكان عظيما في العلوم الرياضية ، وعمرله مواضع حسنة ، منها الجوسق المعروف بطححه (كذا) في مدينة رأس عين ، في غاية الحسن ، على شكل مئمن ، وبإزائه نهر يتصل ببلاد الحابور » .
والصفحة الأولى من هذه المخطوطة تحمل الدليل على منهج المؤلف في تجزيء الكتاب ، فيها ما يشير إلى أن هذه النسخة هي الجزء الثانى ، وهذا هو نص العنوان الذى تحمله هذه الصفحة الأولى :

الجزء الثانى من كتاب

مفرج الكروب

في أخبار ملوك بنى أيوب

رحمهم الله تعالى

ومنى لأرجح أن هذه النسخة هي نسخة المؤلف نفسه أو أنها على الأقل كتبت أثناء حياته . فقد كتب اسم المؤلف على الصفحة الأولى وتحته « عفا الله عنه » والعادة أن الناسخ إذا كتب الكتاب بعد وفاة مؤلفه أن يدعوله بالرحمة ، فيتبع اسمه بالدعاء المعروف « رحمه الله » . أما النص تحت العنوان فهو :

« تأليف الفقير إلى رحمة الله تعالى محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ، عفا الله عنه » .

ومما يرجح هذا الظن أن نفس الصفحة تحمل بعد ذلك اسم مواطن للمؤلف من حماة تملك النسخة بعد وفاة المؤلف بخمس وأربعين سنة فقط ، كما تحمل اسم عالم آخر قريب للسابق نص على قراءته للنسخة في سنة ٧٨٤ هـ أى بعد وفاة المؤلف بسبع وثمانين سنة . وهذان هما النصان :

” كان في يد على بن الحسن بن على بن عبد الوهاب الحموى ؛ ابتاعه بالقاهرة في جمادى الآخرة سنة اثنين وأربعين وسبعمئة “

” طالع مفرج الكرب من أوله إلى آخره أقل عيب
 أيوب بن حسن بن علي بن عبد الوهاب ، عفا الله عنه وتاب عا
 رحمه عليه
 وعلى والديه ودعا له بخاتمة الخير ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة (أربعة) وثمانين
 وسبعمائة ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا
 به وسلم تسليما كثيرا .

— ٦ —

من هذا العرض كله يتضح أنه لم تصلنا نسخة واحدة كاملة من مفرج الكرب ،
 وإنما نحن نجد لحسن الحظ أن هذه النسخ الأربع تكون نسخة كاملة يمكن الاعتماد
 عليها عند النشر . فالنسخة الأولى — نسخة كبرديج — تحتوى على الجزء الأول في ترتيب
 متسق وتنتهى بحوادث سنة ٦١٦ هـ . والنسخة الرابعة — نسخة استانبول — تؤرخ
 للحوادث بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٦٣٥ هـ .
 وبذلك يمكن عند نشر الأجزاء المتضمنة للسنوات من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٣٥
 الاعتماد على هاتين النسختين .

والنسخة الثالثة (نسخة باريس ١٧٠٣) تتضمن السنوات من ٦٣٥ (حيث
 تنتهى نسخة استانبول) إلى ٦٥٩ أى إلى نهاية الكتاب والحوادث في هذه النسخ
 الثلاث متسقة الترتيب لا اضطراب ولا خلط فيها ولا يشوبها أى نقص أو خرم .

أما نسخة باريس الأولى (١٧٠٢) فيمكن — رغم ما يشوبها من عيوب
 كثيرة — أن يرجع إليها دائماً حيث يتفق النص فيها مع النص في أى نسخة أخرى
 من النسخ الثلاث لضبطه وتقويمه وتصحيحه . وهذا ما فعلناه عند إخراج هذا الجزء
 الأول من الكتاب ، وقد تبين لنا أنه على الرغم من أفضلية نسخة (ك) فقد ساعدت
 نسخة (س) كثيراً على ضبط النص أو توضيحه أو إثبات جمل قصيرة أسقطها
 ناسخ (ك) ^(١) .

— ٧ —

وهذا الجزء الأول من الكتاب الذى نقدمه اليوم للقارئ ، قد بدأ المؤلف فيه
 بذكر نسب بنى أيوب ، ثم أترخ بعد ذلك — فى إيجاز غير محل — لدولة الأتابكة
 مع العناية بعلاقاتها بالدول المجاورة ، وخاصة الخلافتين : العباسية ، والفاطمية ،

(١) انظر مثلاً فيما يلى هنا : ص ٧٤ و ٧٨ و ٤ / ١٤٥ و ٢ / ١٤٧ و ٨ / ٢٢١ و ١ /

والإمارات الصليبية ، ثم انتقل إلى الموضوع الأصيل فبدأ بالتاريخ لنشأة الدولة الأيوبية وعرض أثناء ذلك للدولة الفاطمية في مصر في أواخر أيامها وللصراع العنيف بين قوى الصليبيين وقوى نور الدين في سبيل الاستيلاء على مصر ، ولجهود صلاح الدين وأفراد أسرته وقواده التي بذلت للقضاء على المؤامرات الداخلية والخارجية ، ولفتح بلاد النوبة واليمن . ووقفنا في هذا الجزء عند وفاة نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٩ هـ ؛ أما الجزء الثاني فسيشتمل بإذن الله على عصر صلاح الدين كله وينتهي بانتهاء حياته سنة ٥٨٩ هـ .

— ٨ —

وقد اعتمدنا عند نشر هذا الجزء على نسخة كبرديج (ك) واتخذناها أصلاً للنشر ثم قارنا بينها وبين نسخة باريس رقم ١٧٠٢ (س) في الصفحات التي لها مثيل في هذه النسخة الأخيرة . ومع هذا فقد استعنا لضبط النص وتصحيحه بالمراجع الكثيرة الأخرى المعاصرة وغير المعاصرة ؛ وخاصة تلك التي نقل عنها المؤلف ؛ وقد نص ابن واصل أحياناً على المراجع التي نقل عنها . ونقل دون نص أحياناً أخرى ، ومن المراجع التي نص على نقله عنها : البرق الشامى للعماد الاصفهاني ، والسيرة اليوسفية لابن شداد ، والروضتين لأبي شامة ، والكامل لابن الأثير . الخ . وقد طبعت أسماء المؤلفين والمراجع التي نص المؤلف على الأخذ عنها بحروف الرقعة ليتمكن للقارئ متابعتها .

وأكثر نقوله هنا عن ابن الأثير ، وقد لاحظت عند المقارنة بين النصين أن نص ابن واصل كثيراً ما يتفق ونص ابن الأثير اتفاقاً يكاد يكون تاماً (انظر ص ٩٣ هامش ٤) ، كما لاحظت أنه يختلف عنه — أحياناً أخرى — لميجازاً أو إطناباً ، فرواية ابن واصل في بعض الأوقات أكثر تفصيلاً من رواية ابن الأثير مما يجعل لها قيمة خاصة ومما يرجح ظننا أن المؤرخين كانوا ينقلان عن مراجع أخرى لم يذكرها ، وقد استطعت أن أعرف على مرجع من هذه المراجع وهو « تاريخ ميا قارقين وأمد » لأحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي ^(١) ،

(١) توجد من هذا الكتاب نسختان في مكتبة المتحف البريطاني . الأولى قطعة صغيرة منه كتبت في سنة ٥٦٠ هـ أي في حياة المؤلف ورقمها ٦٣١٠ ، والثانية أكبر وأوفى من الأولى بل تسكد تكون نسخة كاملة ، كتبت سنة ٥٧٢ هـ ورقمها ٥٨٠٣ ، وقد نشر آمدرود أجزاء كثيرة منه في هوامش (الذيل على تاريخ دمشق لابن القلانسي) ولتعريف بالفارقي وكتابه انظر مقالاً في (J. R. A. S. 1902. P. 785) .

وقد أثبت بالمقارنة بين نص ابن واصل والفقرات المنقولة عن الفارقى فى هوامش ابن القلانسى أن تاريخ الفارقى كان من مراجع ابن واصل التى نقل عنها دون الإشارة إليها (١) .

وكنى ألاحظ أحياناً أن نص ابن واصل مختصر اختصاراً يهيم المعنى ؛ بينما تزدهم المراجع الأخرى التى يختصر عنها أو التى تناولت الموضوع ولم ينقل عنها بالتفصيلات الهامة الموضحة فكنت أنقل فى الهوامش فقرات من هذه المراجع لأمكن الدارسين والباحثين من فهم النص فهما واضحاً لا لئس فيه (٢) .

وهذا الجزء الأول يشتمل على عدد من الوثائق الرسمية الهامة من رسائل ومناشير وسجلات وتواقيع . الخ ، وقد أثبت المؤلف بعض هذه الوثائق بنصها الكامل ولكنه اكتفى عند الإشارة إلى البعض الآخر بنقل الفقرات الهامة فيها ، وقد وردت بعض هذه الوثائق فى المراجع التاريخية الأخرى فعارضنا النص هنا عليها لتصحيحها وضبطها (٣) . وانفرد ابن واصل مع هذا بذكر وثائق لم تكن المراجع الأخرى بإثباتها وبعض هذه الوثائق هام غاية الأهمية ، وخير مثل لها التواقيع التى أصدرها نور الدين لإلغاء المكوس بجميع أنحاء مملكته ، فهى تقدم للباحث ثبوتاً هاماً بالمدن والأقسام الإدارية المكونة لمملكة نور الدين وبالمبالغ التى كانت بحجى من ضريبة واحدة وهى ضريبة المكوس (٤) .

أما الوثائق التى اقتصر ابن واصل على نقل فقرات منها ووجدنا نصوصها كاملة فى مراجع أخرى فى العزم — إن شاء الله — أن ننشر هذه النصوص الكاملة ملحقاً بالجزء الثانى .

وينفرد هذا الجزء أيضاً بإيراد نصوص نادرة تلقى أضواء جديدة على بعض الموضوعات التاريخية وبعض نظم الحكم ، وفى ص ٦١ مثلاً نص يبين مدى ما وصل إليه مركز الخليفة العباسى فى العهد السلجوقى ، فقد سلبت منه كل السلطات

(١) انظر مثلاً ص ٥٨ — ٧١ فيما يلى هنا .

(٢) انظر مثلاً فيما يلى هنا : ص ٨٥ هامش ٣ وص ١٦٩ هامش ١ وص ٢٠١ هامش ٣ .

وص ٢٢٩ هامش ١ وص ٢٣٧ هامش ٢ وص ٢٤٠ هامش ٥ .

(٣) انظر فيما يلى هنا : ص ١٦٤ و ١٦٥ و ١٧٠ و ٢٢٥ و ٢٣٥ الخ .

(٤) انظر فيما يلى هنا : ص ٢٧١ — ٢٧٩ .

الزمنية ، وأصبح عليه — كما يقول النص هنا — أن « لا يدخل نفسه في غير أمر الدين » .

وفي ص ١٥٠ و ٢٨٠ نصاب هاما يعينان على فهم نظام الإقطاع في عهد نور الدين بصفة خاصة وفي عهد الأتابكة بصفة عامة .

وفي ص ٢١١ نص هام آخر ذكر فيه المؤلف بعض الحقائق النادرة عن بقايا الأسرة الفاطمية الذين عاشوا في الأسر أو محتفين حتى أواخر الدولة الأيوبية ، بل وأشار إلى أنه قابل واحداً منهم في سجنه بقلعه الجبل بالقاهرة وتحدث إليه ، وقد اعتمد الأستاذ كازانوفا (Casanova) على هذا النص عند كتابة بحثه القيم عن بقايا الأسرة الفاطمية الذي نشره منذ سنوات طويلة في مجلة المعهد الفرنسي بالقاهرة^(١) .

وهذا الجزء مملوء بالمصطلحات الإدارية والحربية والاجتماعية التي كانت مستعملة في تلك العصور التي يؤرخ لها الكتاب ، ومعظم هذه المصطلحات مأخوذ عن لغات غير عربية كالتركية والفارسية واليونانية وغيرها مثل : الدركاه (ص ١٠٢ هامش ١) والخشكنانج (ص ١٠٢ هامش ٣) واللث (ص ١٤٠ هامش ١) والجماكية (ص ١٥٠ هامش ٣) والمنجنيق (ص ١٨٠ هامش ٢) والقنطارية (ص ١٨٣ هامش ٢) والممزج (ص ٢٠٣ هامش ٣) والبرواناه (ص ٢٣٤ هامش ٤) والقبقي (ص ٢٦٠ هامش ٨) والجوكان (ص ٢٦٧ هامش ١) والترکش (ص ٢٧٩ هامش ٥) الخ . وقد شرحنا هذه المصطلحات في الهوامش شرحاً وافياً بقدر ما سمحت لنا به المراجع ، وأشرنا إلى هذه المراجع في نهاية الشرح ليرجع إليها من أراد ؛ وفي رأي أن العناية بشرح هذه المصطلحات عند نشر الأصول التاريخية القديمة أمر واجب لأن هذه المصطلحات من الأدوات الهامة التي لا يمكن لمن يريد التأريخ لنظم الحكم في العالم الإسلامي على تلك العصور الاستغناء عنها . وأرجو أن أوفق لإفراد فهرس خاص بهذه المصطلحات في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب .

وميزة أخرى نذكرها لهذا الكتاب ، وذلك أنه يعتبر مرجعاً هاماً لدراسة تاريخ مدن الشام الكبيرة في العصور الوسطى ، فقد اعتاد المؤلف أن يقف طويلاً وأن يتحدث تفصيلاً كلما ورد ذكر مدينة من مدن الشام ، وخاصة المدن الهامة الثلاثة : حماة — وطنه الأصلي — وحمص وحلب^(٢) .

(١) انظر قائمة المراجع غير العربية .

(٢) انظر ص ٧٢ ، هامش ١

وفى هذا الجزء نصوص تساعد الباحث على تحديد تاريخ تأليف الكتاب ،
أو على الأقل تحديد التاريخ الذى بدأ فيه المؤلف تأليف كتابه :

— فهو يقول مثلاً عند حديثه عن مقتل عماد الدين زنكى : « فحكى ابن الأثير
رحمه الله .. الخ » ولهذا الدعاء أهمية خاصة فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب
هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٣٠ هـ وهى السنة التى توفى فيها ابن الأثير (١) .

— وفى ص ١١٣ يشير إلى وفاة شاهنشاه بن أيوب ، ثم يعترف به بقوله :
« وهو جد مولانا السلطان الملك المنصور — صاحب حماة — خَلَّدَ الله سلطانه »
وهذا الدعاء يدل على أنه كان يكتب هذا الفصل من كتابه بعد سنة ٦٤٢ هـ وهى السنة
التي ولى فيها المنصور الثانى حكم حماة (٢) .

— وفى ص ١٥٤ عند حديثه عن إربل يقول : « وملكها المستعصم بالله
إلى أن ملكها التتر الملاحين حين ملكوا البلاد » . وهذا النص يدل على أنه كان يكتب
هذا الفصل بعد سنة ٦٥٦ هـ وهى السنة التى استولى فيها هولاكو على بغداد وقتل
المستعصم وأرسل قائداً من قواده للاستيلاء على إربل . وهكذا .

وهذا الجزء أخيراً يعتبر مرجعاً هاماً لدراسة سيرة المؤلف نفسه فهو يشير فى أكثر
من موضع إلى بعض حوادث هذه السيرة :

— فهو يشير مثلاً فى ص ٧٤ إلى أنه كان بالقدس فى سنة ٦٢٣ هـ .

— ويشير فى ص ٢٠٤ ، ٢٣٦ إلى كتاب له آخر فى التاريخ اسمه التاريخ الكبير .

— وفى ص ٢١٠ يشير إلى أنه سافر إلى مصر سنة ٦٤١ هـ .

— وفى ص ٢٣١ يشير إلى أنه حج إلى مكة وزار المدينة سنة ٦٤٩ هـ الخ .

ولا يفوتنى أن أشير إلى أننى بذلت غاية جهدى لضبط النص وتقويمه فضبطت
الآيات القرآنية بالشكل وحددت أرقامها وسورها فى الهوامش وكذلك فعلت بالشعر
فضبطه بالشكل وقارنته بأصوله فى الدواوين إن وجدت وبالمراجع الأخرى
إن ذكرته (٣) .

(١) انظر ص ٩٩ : هامش ١٤ .

(٢) ص ١١٣ هامش ٣ .

(٣) لم أقنع بهذه المقارنات ، وإنما عرضت الشعر الوارد فى هذا الجزء عند طبعه على صديق
الأستاذ الدكتور طه الحاجرى فتفضل بتقويم الموعج منه فلحضرتة منى أجزل الشكر .

أما الأعلام وأسماء المواقع والبلدان فقد دأبت على التعريف بها في الحواشي ما استطعت إلى ذلك سبيلا مع الإشارة إلى المراجع التاريخية والجغرافية التي أفدت منها ليرجع إليها من يريد التثبت أو الاستزادة ، وأما الفهارس الأبجدية التفصيلية فقد أرجأتها مؤقتاً لتشمل الجزء الثاني وتشر في نهايته .

— ٩ —

وبعد فهذا هو الجزء الأول من كتاب « مفترج الكروب » وهذا هو منهجنا في نشره ، قد بذلنا السنوات الطوال في دراسته وإعداده للنشر حتى كل منا البصر واحتجنا إلى علاجه ، والله نسأل أن يهبنا القوة والصحة لإكماله ، وأن ييسر مواطنينا في مصر والشرق للافادة منه .

وكتاب له هذه الميزات كان حرياً أن ينال حظاً أوفر من عناية الباحثين والمؤرخين ، وكان حرياً أن ينشر بعضه أو كله منذ سنوات ، ولكننا مع هذا نجده قد بقي مخطوطاً إلى اليوم ، وإنه لما يبعث العجب حقاً أن نجد جماعة العلماء الذين عنوا بنشر النصوص العربية الخاصة بالحروب الصليبية في مجموعة المؤرخين الصليبيين (*Recueil des Historiens des Croisades*) قد نشروا منتخبات من الكامل لابن الأثير ، والروضتين لأبي شامة ، وتاريخ حلب لابن العديم ، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ، وعقد الجمان للعيني . . . إلخ ، ومع هذا فقد أهملوا مفترج الكروب لابن واصل إهمالاً تاماً .

وقد بدأ المستشرقون المعاصرون يدركون ما لهذا الكتاب من قيمة كبرى وما للتقصير في نشره حتى اليوم من أثر ، وعبر أحدهم وهو الأستاذ كلود كاهن (C. Cahen) عن هذا في كتابه القيم (سوريا الشمالية في عصر الحروب الصليبية) (*La Syrie du nord à l'Époque de Croisades*) فقال بعد الفراغ من حديثه عن مفترج الكروب في فصل المراجع :

« وهو كتاب ذو قيمة كبيرة ، وإلى هذا فهو وصرآة الزمان لسبط ابن الجوزي مرجعنا الأساسى الذى أخذ عنه المؤرخون اللاحقون عند تأريخهم للدولة الأيوبية وقد كان يبدو أن تهيأ لمفترج الكروب مكانة ممتازة عند المؤرخين المحدثين لكثرة ماله من ميزات جعلت الكثيرين يعتمدون عليه ويأخذون عنه ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

ومع أنه يوجد لهذا الكتاب مخطوطات صالحة وسهل الحصول عليها ، فقد بقي حتى الآن دون أن ينشر أو يستفاد منه ، وفي هذا فضيحة علمية لا نعتقد أنه من اليسير التغلب عليها قبل مضي وقت طويل :

“C'est un œuvre de haute valeur. C'est du plus, avec le (mirât az-zaman) de Sibte Ibn Al-Djauzi, notre source principale, indéfiniment reproduite dans l'historiographie postérieure, pour l'histoire des Ayyoubides. Il semblerait que tant de titres fussent assez pour avoir assuré au moufarridj une place d'honneur auprès des historiens modernes. Il n'en est rien, et l'œuvre, dont il existe pourtant des manuscrits très convenables et fort accessibles, reste inédite et presque inutilisée. Il y a là scandale qui ne saurait trop tôt cesser”

[*La Syrie du Nord ... etc. P. 70*]

وعندما علم هذا الأستاذ الحجة في تاريخ الحروب الصليبية بعزمي على نشر مفرج الكروب كتب إلى خطاباً خاصاً قال فيه :

حضرة الزميل العزيز

دعني أعبرك عن ارتياحي الكلي لعلمي أنه وجد أخيراً من يأخذ على عاتقه مهمة العمل لنشر ابن واصل . إنه من العسير أن أتصور أنه كان من الواجب الانتظار حتى سنة ١٩٤٧ ليحدث هذا ؛ كم من الوقت تظن أنه يجب عليك أن تتوفر لإنجاز هذا العمل الكبير الضخم ... الخ .

Monsieur et cher collègue.

Laissez-moi d'abors vous exprimer toute ma satisfaction d'apprendre qu'enfin quelqu' un s'occupe d'éditer Ibn Wacil; il est difficile de comprendre comment il a fallu attendre 1947 pour cela. Combien de temps pensez-vous devoir consacrer à ce travail évidemment gros?

ووصلتني خطابات مماثلة من كثير من المستشرقين الأساتذة بجامعة أوروبا وأمريكا أذكر من حضراتهم : الأساتذة برنارد لويس بجامعة لندن ، وجب بجامعة أوكسفورد ، وماسينيون بالكوليج دي فرانس ، وفيليب حتى بجامعة برنستون ، وجميعهم يؤكدون نفس المعنى ويستنجزونني بين الحين والحين الوعد أن أعمل على الإسراع بإخراج الكتاب .

وكذلك وصلتني رسائل كثيرة من المشرق من الأساتذة : المرحوم محمد كرد علي بدمشق ، والدكتور مصطفى جواد الأستاذ بكلية المعلمين ببغداد ، والشيخ طاهر النعساني من علماء حلب ، والسيد قدري كيلاني من علماء حماة وغيرهم ؛ ورسائلهم كلها تؤكد المعنى السابق ، فما قاله الدكتور مصطفى جواد : « . . . وسررتوني بعزكم على إخراج التاريخ الحافل بالجميل — مفرج الكرب — لابن واصل الحموي ، فإن هذا المسعى الذي أتم ساعوه في نشره يغطي على غيره من المساعي ؛ وتاريخ الواصلين هذا أسميه « نثر التواريخ » لإحاطته بالحوادث واستيعابه الأحداث ، واعتداله في الإصدار بعد الإيراد . . . الخ » .

فلهؤلاء الأساتذة الأجلاء جميعاً شكرى القلبى الخالص ، فقد استعنت بكلماتهم المشجعة الحاثثة على التغلب على جميع الصعاب التى اعترضتني .

وشكرى القلبى الصادق كذلك لأستاذى الدكتور محمد مصطفى زيادة فقد كان له — كما سبق أن أبنت — فضل تعريفى بهذا الكتاب ، ثم ظل يوالينى بالتشجيع الدائم على العمل فيه ، ثم تفضل أخيراً بمراجعة هذا الجزء قبل تقديمه للطبعة .

والله أسأل أخيراً أن يوفقنى للعمل الصالح وخدمة هذا الوطن العزيز وتاريخه ما

جمال الدين السبيل

القاهرة فى { ٢٣ رمضان ١٣٧٢
٥ يونيه ١٩٥٣ }

مراجع التحقيق

(١) المراجع العربية

- ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) .
= طبقات الأطباء ، جزآن ، المطبعة الوهيبية بالقاهرة ، ١٢٩٩ (١٨٨٢) .
- ابن أبى الوفاء (محي الدين أبو محمد عبد القادر) .
= الجواهر المعنية فى طبقات الحنفية ، جزآن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف
النظامية ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٢ هـ .
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على) .
= الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ، ١٣٠١ هـ .
= الباب فى تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥٧ - ١٣٦٩
- الادفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب) .
= الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد . القاهرة ،
١٣٣٢ (١٩١٤) .
- ابن الأكفانى (محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى السنجارى) .
= نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، نشره الأب أنستاس مارى الكرملى ،
القاهرة ، ١٩٣٩ ؛ (ونشره قبل ذلك الأب لويس شيخو فى مجلة المشرق ،
السنة ١١) .
- أفروم (الأب أغناطيوس الأول) .
= الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية ، بحث فى مجلة المجمع العربى بدمشق ،
أعداد سنة ١٩٥٠

باخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد) .
= تاريخ ثغرعون ، مع نخب من توارينج ابن المجاور والجندي والأهمل ،
نشره Oscar Löfgren ، جزاءن ، ليدن ، ١٩٣٦

بدر (الدكتور مصطفى طه) .
= محنة الإسلام الكبرى ، أو زوال الخلافة العباسية على أيدي المغول ،
القاهرة ، ١٩٤٧

البستاني .

= محيط المحيط ، جزاءن ، بيروت ، ١٨٦٧ - ١٨٧٠

البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد) .
= كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ،
حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٥٥ هـ

بينز (نورمان) .

= الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية للدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف
زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) .
= النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه ١٠ أجزاء ، مطبعة دار
الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٩ - ١٩٤٩

تيمور (أحمد باشا) .

= لعب العرب ، القاهرة ، ١٩٤٨

ثابت (نعمان) .

= الجندي في الدولة العباسية ، بغداد ، ١٣٥٨ (١٩٣٩) .

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) .

= الرحلة ، الطبعة الثانية ، ليدن ، ١٩٠٧

الجاحظ .

= البخلاء ، نشر الدكتور طه الجاجري ، القاهرة ، ١٩٤٨

الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الحضرمي) .
= المعزب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٦١ هـ .

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) .
= المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، الأجزاء ٥ - ١٠ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٥٧ - ١٣٥٨ هـ .

ابن حاتم (بدر الدين محمد) .
= السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٤١١ ، وتوجد منه صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، رقم ٢٦١٣٣ .

حبشي (حسن) .
= الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

= نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
أبو حديد (محمد فريد) .

= صلاح الدين الأيوبي وعصره ، القاهرة ، ١٩٢٧ .
حسن (الدكتور حسن إبراهيم) .

= الفاطميون في مصر ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
الحسن بن عبد الله .

= آثار الأول في ترتيب الدول ، بولاق ، ١٢٩٥ هـ .
حسين (محمد أحمد) .

= أسامة بن منقذ ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
حسين (الدكتور محمد كامل) .

= في أدب مصر الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
حمزة (الدكتور عبد اللطيف) .

= حكم قراقوش ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

الحنبل (أحمد بن إبراهيم بن نصر الله) .
= شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول
بالقاهرة ، رقم ٢٤٠٣٠ (والأصل مخطوطة بالمتحف البريطاني رقم ٧٣١١) .

ابن حوقل (أبو القاسم محمد) .
= المسالك والممالك والمفاوز والممالك ، لندن ، ١٨٢٢

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) .
= وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ .
و ٦ أجزاء ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) .
= مفاتيح العلوم ، القاهرة ، ١٣٤٩ (١٩٣٠) .
دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .
مادة : أتابك ، إربل ، الموت ، حريب .

ابن الدبيثي (محمد بن سعيد بن محمد) .
= تاريخه — باختصار الذهبي — نشره الدكتور مصطفى جواد ، الجزء الأول ،
بغداد ، ١٣٧١ (١٩٥١) .

الدجيلي (قاسم) .
= بحث في مجلة لغة العرب ، الأجزاء ١ و ٢ و ٣ سنة ١٩٠١

ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن أبي علي) .
= النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس نشره عباس الغزاوي ، بغداد ، ١٣٦٥
(١٩٤٦) .

ابن دقاق (إبراهيم بن محمد بن أيدير العلأئي) .
= الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، الجزء ٤ و ٥ ، بولاق ، ١٣٠٩ هـ .

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) .
= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (ظهر منه حتى الآن ٤ أجزاء) ،
مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٦٧ — ١٣٦٩

زامباور .

= معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى ، الترجمة العربية
للدكتور زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرين ، جزءان ، مطبعة جامعة
فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥١ - ١٩٥٢

الزركلى .

= الأعلام ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٤٧ (١٩٢٨) .

زكى (محمد أمين) .

= خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن ، ترجمه
إلى اللغة العربية محمد على عوفى ، القاهرة ، ١٩٣٦

زيادة (الدكتور محمد مصطفى) .

= المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ، ١٩٤٩

ابن الساعى (أبو طالب على بن أنجب تاج الدين) .

= الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير ، الجزء التاسع ، نشره الدكتور
مصطفى جواد ، بغداد ، ١٩٣٤

سبط بن الجوزى .

= مرآة الزمان ، الجزء الثامن ، القسم الأول والثانى فى مجلدين ، مطبعة مجلس
دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٣٧٠ (١٩٥١) .

السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين) .

= طبقات الشافعية ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٣٤ هـ .

سركيس (يوسف اليان) .

= معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، القاهرة ، ١٣٤٦ (١٩٢٨) .

ابن سيده (أبو الحسن على بن اسماعيل) .

= المخصص ، ١٧ جزءاً ، بولاق ، ١٣١٦ - ١٣٢١

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) .

= تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

- = حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، القاهرة ، ١٣٢٧
- ابن شاذي الكتبي (محمد بن أحمد) .
- = فوات الوفيات ، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥١
- أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم المقدسي) .
- = كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، جزآن ، مطبعة وادي النيل بالقاهرة ، ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .
- ابن الشحنة (محب الدين أبو الفضل محمد) .
- = الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، نشره يوسف بن اليان سركيس ، بيروت ، ١٩٠٩
- ابن شداد (بهاء الدين) .
- = النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية القاهرة ١٣٤٦ هـ .
- شرف (الدكتور طه) .
- = دولة التزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن الصباح ، القاهرة ، ١٩٥٠
- الشيال (الدكتور جمال الدين) .
- = الاسكندرية ، طبوغرافية المدنية وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، القاهرة ، ١٩٥٢
- = جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ، بحث لم ينشر بعد .
- = معجم السفن العربية ، خطوط لم تطبع بعد .
- الصابوني (أحمد بن إبراهيم) .
- = تاريخ حماة ، حماة ، ١٣٣٢
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أبيك) .
- = الوافي بالوفيات ، نشر المستشرق هـ . ريتز ، الجزء الأول ، مطبعة الدولة باستانبول ، ١٩٣١

- ابن طباطبا (محمد بن على) .
- = الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٢٣
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) .
- = شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ١٢ جزءاً ، القاهرة ، ١٣٥٠ - ١٣٥٣
- العماد الكاتب الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن محمد) .
- = خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الأول - شعراء مصر - فى جزأين ، نشره أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٥١ - ١٩٥٢
- = الفتح القسى فى الفتح القدسى ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ .
- عمارة (نجم الدين أبو محمد الينى) .
- = تاريخ اليمن ، نشره كائى ، لندن ١٣٠٩ (انظر المراجع غير العربية) .
- = النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، ٣ أجزاء ، نشره درنبرج ، شالون ١٨٩٧
- عنان (محمد عبد الله) .
- = تراجم إسلامية (شرقية وأندلسية) القاهرة ، ١٩٤٧
- أبو الفدا (الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة) .
- = المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .
- ابن الفوطى (أبو الفضل عبد الرازق البغدادى) .
- = الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، نشره الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥١ هـ .
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى) .
- = المعارف ، القاهرة ، ١٩٣٥
- ابن قلاقس (أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله) .
- = الديوان ، نشر خليل مطران ، مطبعة الجوائب ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .

- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة) .
 = ذيل تاريخ دمشق ، نشره مع مقدمة انجليزية آمدرورز ، بيروت ، ١٩٠٨
- القلقشندي (أبو العباس أحمد) .
 = صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ٤ أجزاء ، مطبعة دار الكتب المصرية ،
 القاهرة ، ١٩١٣-١٩١٩
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر) .
 = البداية والنهاية ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ .
- كرد علي (محمد) .
 = خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨
- الكرمي (الأب أنستاس ماري) .
 = ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب ، بحث في مجلة الرسالة ، العدد ٤١١ ،
 ١٩ مايو سنة ١٩٤١
- ابن مالك (محمد بن أبي الفضائل الحمادي اليميني) .
 = كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، القاهرة ، ١٩٣٩
- ابن مماتي (الأسعد بن مليح) .
 = قوانين الدواوين ، مطبعة الوطن بالقاهرة ، ١٢٩٩ هـ ، ونشره الدكتور عزيز
 سوريال عطيه ، مطبعة مصر بالقاهرة ، ١٩٤٣ م .
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري) .
 = لسان العرب ، ٢٠ جزءاً ، بولاق ، ١٣٠٢-١٣٠٧ هـ .
- ابن ناصر (صدر الدين أبو الحسن علي) .
 = أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، لاهور ، ١٩٣٣
- النعمي .
 = الدارس في المدارس ، نشر جعفر الحسني ، دمشق ، ١٩٤٨
- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) .
 = الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٢٩٨

مبارك (الدكتور زكي) .

= الأخلاق عند الغزالي ، القاهرة (بدون تاريخ) .

مبارك (على باشا) .

= الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ، ١٣٠٤ - ١٣٠٦ هـ .

مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى .

= تبصرة أرباب الأبواب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ، نشر أجزاء منها مع ترجمة فرنسية وتعليقات الأستاذ كلود كاهن . (انظر قائمة المراجع غير العربية) .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) .

= التنبيه والإشراف ، القاهرة ، ١٩٣٨

مصلحة المساحة المصرية .

= فهرس مواقع الأمكنة ، بولاق ، ١٩٣٢

المقريزى (تقي الدين أحمد بن على) .

= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشر الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨

= إغاثة الأئمة بكشف الغمة ، نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠

= السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة (ظهر منه الجزء الأول فى ٣ مجلدات والجزء الثانى فى مجلدين ولم يتم) ، القاهرة ، ١٩٣٤ - ١٩٤٢

= المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، مطبعة النيل بالقاهرة ، ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ .

= نحل عبر النحل ، نشر الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٦

النعساني (الشيخ طاهر) .

= أسامة بن منقذ ، محاضرة أُلقيت في المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٢٥ ،
طُبعت في حماة (بدون تاريخ) .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) .

سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) .

= شرح كتاب الأغاني المعروف باسم تجريد الأغاني من المثلث والمثنائي ، نسخة
دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ٣ مجلدات ، رقم ٥٠٧١ أدب ، وصور
شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم ٢٣١١
= التاريخ الصالحى . صور شمسية بمكتبة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) .

= معجم البلدان ؛ ليزج ، ١٨٧٠

= معجم الأدباء ، طبعة فريد رفاعى ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ، ١٩٣٦

(ب) المراجع غير العربية

ALLEN.

= History of the Georgian People. London, 1932.

CAHEN (CLAUDE).

= La Syrie du Nord a l'Epoque de Croisades et La Principauté
Tranque D'Antioche. Paris, 1940.

= Un Traité d'Armurerie Composé pour Saladin. (Extrait du
Bulletin d'Études Orientales. Damas. Tome XII, 1947-1948)

= Correspondance de D. iyā ad-Din Ibn al-Athir (B. S. O. S.
vol. XIV. part 1).

= La Tughrā Seljukide. (Journal Asiatique, 1945).

CASANOVA

= Les Derniers Faṭimides. (Mémoires de La Mission Archéologique Française du Caire, Tome VI, 1893. p. p. 415-445).

DEMOMBYNES

= La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. Paris, 1923.

DOZY (R. Q. A.)

= Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes. Amsterdam, Müller, 1845.

= Supplément Aux Dictionnaires Arabes. Brill, Leiden, 1881.

DUSSAUD (R).

= Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale. Paris, 1927.

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM.

GERALD DE GAURY.

= Rulers of Mecca. London, 1951.

GIBB (H. A. R.)

= Arabic Sources for the Life of Saladin. (Speculum. vol. XXV. No. 1. January 1950. p. p. 58-74).

GOLDZIEHER

= Streitschrift des Gazali Gegen die Batinija-Sekte. Leiden. 1916.

IBN AL-QALANISI

= Damas De 1075 A 1154. (Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire De Damas d'Ibn Al-Qalānisi par Roger Le Tourneau). Damas, 1952.

IBN JUBAYR

= The Travels of. Edited by W. Wright, second edition revised by M. J. De Goeje. Leyden, 1907.

KAY (H. CASSELS)

= Yaman, Its Early Mediaeval History. London, 1892.

KINDERMANN

= Schiff im Arabischen. Zwickaw, 1934.

KING

= The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

LANE-POOLE (ST.)

= Mohammadan Dynasties. Westminster, 1894.

LEWIS (BERNARD).

= The Origins of Ismā'ilism. Cambridge, 1940.

O'LEARY (DE LACY).

= A Short History of the Faṭimid Khalifate. London, 1923.

RUNCIMAN

= A History of the Crusades. vol. 1. The First Crusade. vol. 2
The Kingdom of Jerusalem. Cambridge University Press.
1951, 1952.

SOUVAGET

= Monuments Histoaiques de Drmas.

(STERN S. M.)

= The Succession of the Faṭimid Imam Al-Āmir, The Claims
of the Later Faṭimids to the Imamate, And the Rise of
Ṭayyibi Ismailism. (Oriens, vol. 4, No. 2, p. p. 193 ff).

STEVENSON.

= The Crusaders in the East. Cambridge University Press.
1907.

ZAMBAUR (E. DE.)

= Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de
l'Islam. Hanovre, 1927.

ابن واصل

كتاب مفرج الكروب

في أخبار بني أيوب

الجزء الأول

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [رَبِّ يَسِّرْ]

الحمد لله العزيز الغفار ، القوي القهار ، المتعالى عن أن تدركه الابصار ، أو تحيط به الخواطر والافكار ، أحمده على أنعمه المتوالية الغزار ، وأصلى على رسوله محمد المنتجب من أشرف نَجَّار^(١) ، المخصوص بأعظم فخار ، وعلى آله الأكرمين الأطهار ، وأصحابه البررة الأخيار .

وبعد ؛ فهذا كتاب أوردت فيه أخبار ملوك بني أيوب ، وجملة من محاسنهم ومناقبهم ، إذ كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأنا ، وأجلهم سلطانا ؛ فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أيدي الكافرين ، وأذل بسيوفهم أعناق الملحدين ، وطهروا الديار المصرية من بدع الباطنية^(٢) ، وشيّدوا بها أركان الملة الحنيفة ، فشكر الله سبحانه سعيهم ، وقدّس أرواحهم الشريفة ، وأنالهم من الآخرة أعلال الرتب المنيقة .

وخدمتُ به خزانة الجنب^(٣) الكريم المولوى الأميرى الكبرى العضى

(١) النجار الأصل ، ويوجد أمام هذا اللفظ في الهامش مايلي : « نجار : Color, Natura, Radix, Diversitas » ويبدو أن أحد المستشرقين الذين اطلعوا على هذه النسخة في مكتبة جامعة كمبردج استمضى عليه فهم لفظ « نجار » فكتب أمامها معانيها المختلفة في اللغة اللاتينية .
(٢) يقصد المؤلف أن الأيوبيين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية التي ظلت تحكم مصر نحو قرنين من الزمن .

(٣) كان للألقاب الإسلامية في العصر المملوكى خاصة نظام دقيق عرفه ديوان الانشاء وحذقه كتابه ، وأفرد القلقشندي الجزء السادس من كتابه صبح الأعشى للحديث عن هذا النظام ، وقسمها ابتداء من ص ١٣٠ إلى خمس درجات : الدرجة الأولى درجة المقر ، والدرجة الثانية درجة الجنب ، وأورد أمثلة مما كان يكتب لنواب الشام مما يبدأ بلفظ جناب ، وهي لا تختلف كثيراً عن هذه الألقاب التي لقب بها المؤلف هنا الملك المنصور صاحب حماة الذي ألف الكتاب باسمه .

النصيري الاسفهلاري^(١) العالى العادلى المظفرى المؤيدى ، ملك الأمراء ، مقتّم الجيوش ، مبارز الدين ، سيد الغزاة والمجاهدين ، الملكى المصورى^(٢) أغز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ إذ كان الله سبحانه قد خصّه من بين سائر أمراء عصره بالرأى الصائب ، والفكر الثاقب ، والفضل الغزير الباهر ، والعقل الرصين الوافر ، والأخلاق الكاملة الرضية ، والمحاسن الجميلة السنية ، ومحبة العلم والعلماء ، وإيثار الفضيلة والفضلاء ؛ وسمّيته : «مفرج الكروب فى أهباب بنى أيوب» وبالله المستعان ، وعليه التكلان .

(١) اسفهلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسى وهو « أسفَه » ومعناه المقدم ، والثانى تركى وهو «سلار» ومعناه المسكر ؛ فكأن معناها : «مقدم المسكر» ، وقد استعمل هذا المصطلح فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان حامله صاحب وظيفة تلى صاحب الباب وهو كما ذكر (القلقشندى : ج ٣ ، ص ٤٨٣) : « زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » ، ثم أصبح هذا اللقب فى العصر المملوكى مما يختص به أمراء الطليخانة أو من هم فى مرتبتهم ، ويذكر القلقشندى أن الأمراء فى زمانه تركوا استعمال هذا اللقب لأن العامة اعتادوا أن يقولوا لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان « اسفاسلار » فكره الأمراء « مشاركة بعض الأعوان فيه ، فأضربوا عنه لذلك ، أو لم يفهموا معناه فتركوه » . (صبح الأعشى : ج ٦ ، ص ٧ و ٨) .

(٢) هو الملك المنصور الثانى سيف الدين محمد صاحب حماة ، من نسل الملك المظفر الأول تقي الدين عمر بن شاهنشاه — ابن أخى صلاح الدين — ؛ ولى المنصور الثانى حكم حماة سنة ٦٤٢ هـ وظل على عرشها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ ، وكان عالما محبا للعلماء ، فماش ابن واصل سنين طويلة فى كنفه ، وله ألف كتابين من أم كتبه : مفرج الكروب هذا — كما يتضح من النص — ، وشرح كتاب الأغانى .

ذكر نسب بنى أيوب

لا خلاف في أن الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — والد الملوك ، وأخاه الملك المنصور أسد الدين شيركوه ، وهما ابنا شاذي^(١) بن مروان ، ثم قيل إن مروان هو ابن محمد بن يعقوب ، وقيل مروان هو ابن يعقوب نفسه . واختلف في أصلهم : فذكرهم الرزيقي^(٢) — المؤرخ الموصلي — أن أصلهم من الأكراد الروادية^(٣) ، وهم فخذ من الهذليين .

وأنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد ، وقال : « إنما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم » [٢] . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية . وكان الملك المعز إسماعيل^(٣) بن سيف الإسلام ظهير الدين

(١) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، وقال إن هذا الاسم عجمي ومعناه بالعربي فرحان .

(٢) في الأصل : « الردادية » ، وقد صحح اللفظ بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٩) و (المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤) و (ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٦ ، ص ٤) ، والحديث عن نسب بنى أيوب وأصلهم الكردى أو الأموى العربى طويل ، أنظر لهذا ولذاك : (ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٨٧) و (المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٨٩) و (الحنبل : شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) و (Enc. Isl. Art. Kurds.)

(٣) خرج من مصر في أوائل عهد صلاح الدين (٥٦٩ = ١١٧٣) جيش أيوبى لفتح اليمن ، وقد تولى هذا الفتح الملك العظيم تورانشاه الأخ الأكبر لصلاح الدين ، وقد تولى هذا الملك حكم اليمن بعد فتحها (٥٦٩ — ٥٧٧ = ١١٧٣ — ١١٨١) ثم خلفه أخ آخر هو سيف الإسلام طفتكين (٥٧٧ — ٥٩٣ = ١١٨١ — ١١٩٦) ، وبعد موته خلفه ابنه الملك المعز إسماعيل (٥٩٣ — ٥٩٨ = ١١٩٦ — ١٢٠١) .

أنظر : (Lane-Poole: Nohammadan Dynasties, p. 98.) و (Zambaur: Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. p. 98.)

وسيوئرخ ابن واصل فيما يلى لفتح اليمن ولكل ملك من هؤلاء فى شىء من التفصيل .

طُغْتِكِينَ^(١) بن أيوب — صاحب اليمن بعد أبيه سيف الإسلام ظهير الدين — يدعى ذلك ، وسمى نفسه : « المعز لدين الله » ، وخطب لنفسه بالخلافة^(٢) في اليمن ، وذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، فأنكر ذلك الملك العادل — رحمه الله — وقال : « لقد كذب إسماعيل ، ما نحن من بني أمية أصلاً .
والذين ادَّعوا هذا النسب قالوا : « أيوب ، بن شاذى ، بن مروان ، بن الحكم ، ابن عبد الرحمن ، بن محمد ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ، ابن الحكم ، بن هشام ، بن عبد الرحمن الداخل ، بن معاوية ، بن هشام ، ابن عبد الملك ، بن مروان ، بن الحكم ، بن أبي العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، ابن عبد مناف » ، وفى عبد مناف يجتمع نسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونسب بنى أمية . فهذا قول من جعل نسبهم فى بنى أمية .

وجماعة آخرون أثبتوا نسبهم فى بنى مرة بن عوف ، ومن أثبت ذلك الحسن ابن غريب [بن عمران] الحرسى^(٣) ، فإنه أوصل نسبهم إلى على بن أحمد

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٢٥ — ٢٦)
ولكنه لم يعرفه وإنما قال : « وهو اسم تركى » ، وقد ضبطه صاحب (شفاء القلوب ص ٥٤ ب) : « طُغْتِكِينَ » وذكر أنه يقال له أيضاً « طغديكين » .

(٢) ذكر هذه الحقيقة عنه كثرة المؤرخين ، فما ذكره (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٧٤) مثلاً أنه « ادعى أنه أموى ، ورام الخلافة ، ولبس ثيابها ، وكان طول السك نحو عشرين ذراعاً ، وسمى نفسه المهدي ، وأرسل إليه عمه العادل ينهيه عن ذلك ، ويشكر فعله ، وقيل إنه ادعى النبوة » . انظر أيضاً : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١ — ترجمة صلاح الدين) ، (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢) .

(٣) فى الأصل : « حسن بن غريب الحرثى » ، وفى (شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) : « ابن غريب » فقط ، وقد صحح الأسم وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١) فهو أول من نقل هذا النسب عن هذا المؤرخ النسابة ، الحسن بن غريب حيث قال : « ورأيت مدرجاً رتبة الحسن بن غريب الحرسى يتضمن أن أيوب ابن شاذى بن مروان ... الخ » وعن ابن خلكان نقل هذا النسب المؤرخون اللاحقون كابن واصل وغيره ، هذا ولم أعث فيما بين يدي من مراجع على ترجمة أو تعريف للحسن بن غريب =

المُرِّي^(١) الذي امتدحه المتنبي بقوله :

شَرِّقَ الجَوُّ بالغبار إذا سا ر عليُّ بنُ أحمدَ القَمَقَمِ

وأحضر هذا النسب إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن الملك العادل — صاحب دمشق — ، فسمع النسب عليه ، وأسمعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود ، في سنة تسع عشرة وستمائة .

والنسب هو هذا :

« أيوب ، بن شاذي ، بن مروان ، بن أبي علي ، بن عثيرة^(٢) ، بن الحسن ، ابن علي ، [بن أحمد بن علي]^(٣) ، بن عبد العزيز ، بن هُدْبَة ، بن الحُصَيْن ، ابن الحرث ، بن سنان ، بن عمرو ، بن مُرَّة ، بن عَوْف . ثم اختلف النسابون بعد ذلك ، فالأكثر قالوا :

« عوف ، بن سعد ، بن ذُبْيَان ، بن بَغِيض ، بن رَيْث ، بن غَطَفَان ، بن سعد ، ابن قَيْس [بن] عَيْلَان^(٤) ، [بن إلياس]^(٥) ، بن مُضَر ، بن نزار ، بن مَعَدٍّ ، ابن عَدْنَان . وبعضهم قالوا :

= الخرسى هذا . ثم قال ابن خلكان بعد أن ذكر الخبر والنسب : « هذا آخر ما ذكره في المدرج ، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم ، وكسب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة » .

(١) لعله يقصد أنه ينتمى بنسبه إلى مرة بن عوف ، وإلا فإن نص ابن خلكان — وهو المصدر الذي ينقل عنه ابن واصل هنا — هو : « إن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبي ويمرّف بالخراساني ، وفيه يقول من جملة قصيدة . . الخ » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (شقاء القلوب ، ص ١٣) : « عثيرة » ، وفي (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ص ٤٧١) : « عنترة » ؛ أنظر أيضا : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣ هامش ٣) .

(٣) في الأصل : « ابن الحسن بن أبي علي بن عبد العزيز » وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان) و (النجوم الزاهرة) ، الاجزاء والصفحات المذكورة في الهامش السابق .

(٤) في الأصل : « قيس غيلان » وقد صححت بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات) و (ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة) . (٥) ما بين الحاصرتين عن الوفيات والنجوم .

« عَوْف ، بن لُؤَيٍّ ، بن غالب ، بن قَهْر ، بن مالك ، بن النَصْر — وهو الذى ينتمى إليه نسب قريش كلهم — ابن كِنانة ، بن خُزَيْمة ، بن مُدْرِكة ، بن إلياس ، بن مُصَرِّ ، ابن زِزار ، بن مَعَدٍّ ، بن عَدْنان » . والنسابون مختلفون فيما وراء ذلك ، أى عدنان .
والذى ذكره صاحب السيرة ، أنه : « عدنان ، بن أدد ، بن مُقَوِّم ، [بن ناحور] ^(١) ، بن تيرح ^(٢) ، بن يعرب ، بن يشجب ^(٣) ، بن نابت ، ابن إسماعيل [٣] ، بن إبراهيم الخليل — صلوات الله عليهما — بن تارخ . وهو آزر ، ابن ناحور ، بن شاروخ ، بن أَرْعُو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أَرَفْشَد ، بن سام ، ابن نوح — عليه السلام — بن ملك ، بن متوشلخ ، بن أخنوخ — وهو إدريس عليه السلام — بن يرد ^(٤) ، بن مهليل ^(٤) ، بن قينان ، بن أنوش ، بن شيث ، ابن آدم — أبى البشر عليه السلام — » .

فهذا جملة ما قيل فى نسبهم ^(٥) ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (السيرة لابن هشام ، ص ٥ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٩ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ انقلاشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧) .

(٢) فى الاصل : « نبرج » وقد صححت بعد مراجعة المراجع المذكورة فى الهامش السابق .

(٣) فى الاصل : « يشجب » ، وقد صححت بعد مراجعة المراجع السابقة .

(٤) فى الاصل : « بن البار بن مهلايل » والتصحيح عن المراجع السابقة .

(٥) واضح من دراسة موطن الأيوبيين الأصلي ونشأتهم الأولى أنهم أكراد الجنس ؛ أما نسبهم إلى أصل عربى فواضح أيضا أنها مسألة طارئة جدت بعد قيام دولتهم وإقامة ملكهم ، يؤيد هذا آسانيد تاريخية كثيرة ، منها ما يرويه ابن خلكان عن شيخه وأستاذه بهاء الدين بن شداد — مؤرخ صلاح الدين — فقد ذكر أنه سمع شيخه بهاء الدين بحكى عن السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع هذا النسب العربى أنكره ، وقال : « ليس لهذا أصل أصلا » ومنها ما ذكره (المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٨) فقد سرد هذا النسب العربى المدعى ثم علق عليه بقوله : « وهذه أقوال الفقهاء لهم من أراد الحظ لديهم لما صار الملك إليهم » ؛ أنظر أيضا : (الدكتور محمد مصطفى زبادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥ ، ص ١١) .

ذكر ابتداء أمر نجم الدين أيوب

وأخيه أسد الدين شيركوه

كان أسد الدين شيركوه (١) أكبر سنًا من نجم الدين أيوب ، وكانا من أهل مدينة دوين (٢) — وهى بلد من بلاد العجم قريب من أخلاط (٣) — فاتفق أنهما سافرا منها ، وقصدا العراق ، وخرجا الأمير مجاهد الدين بهروز (٤) الخادم ، وكان شحنة (٥) ببغداد من قبل السلاطين السلجوقية ؛ وكانت تكريت (٦)

(١) شيركوه كلمة فارسية تتكون من لفظين : شير ومعناها أسد ، وكوه ومعناها جبل ؛ فالكلمة فى مجملتها تعنى أسد الجبل .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) وعرفها بأنها بلدة من نواحي أَران فى آخر حدود أذربيجان بقرب من تقليس ، منها ملوك الشام بنو أيوب ؛ ولكن (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٠) ضبطها دوين . وعرفها بما لا يختلف كثيراً عن ياقوت ، قال : هى بلدة فى آخر عمل أذربيجان من جهة أَران وبلاد الكرج .

(٣) هكذا ضبطها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٣) ، ويقال فيها أيضاً خلّاط ، وهى إحدى مدن إرمينية الكبرى .

(٤) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢) . وقال إنه لفظ عجمي معناه يوم جيد على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم ، وذلك أن به معناها جيد ، وورد معناها يوم ؛ وقد كان مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الفياثي خادماً رومياً أبيض اللون ، تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود السلجوقي . وكان صاحب همه فى عمل المصالح الجلية وعمارة البلاد ، واسع الصدر والصبر فى البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض ، وبنى فى بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً ، ومات فى رجب سنة ٤٠ هـ .

(٥) جاء فى اللسان : « وشحن البلد بالخيّل ملاءً ، وبالبلد شحنة من الخيل أى رابطة ، قال ابن برى : وقول العامة فى الشحنة إنه الأمير غلط » غير أن هذا الغلط هو ما كان يستعمله الناس دائماً ويتردد فى كتب التاريخ العربية فى العصور الوسطى ، فالشحنة — ويقال الشحنيكية — رئاسة الشرطة ، أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها ؛ ويجمع هذا اللفظ على : شحن ، وشحناء . انظر أيضاً : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ،

٩٧٩ ، ٩٨٢ : Dozy: Sup. Dict. Arab) .

(٦) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال : والعامة تقول : تكريت ، وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ، ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى رابطة على دجلة ، وهى غربى دجلة .

إقطاعه فتقدما عند مجاهد الدين ، وفَوْضَ [مجاهد الدين] إلى نجم الدين أيوب دُرْدَارِيَّة (١) تَكَرَّيت ، فسارا إليها ، ونزلا بقلعتها ، فأقاما بها مدة .

ولما وقعت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله (٢) والأمير عماد الدين زنكى ابن آق سنقر سنة ست وعشرين وخمائة — على ما سندكره — وكسر الخليفة عماد الدين زنكى ، خدم نجم الدين أيوب أتابك زنكى ، وأقام له السفن حتى عبر هناك دجلة ، واتبعه أصحابه ، وأحسن نجم الدين أيوب وأخوه (٣) أسد الدين شيركوه صحبته . وكان هذا أول المرفقة بين عماد الدين زنكى وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، ومبدأ سعادتتهما ، ولكل شيء سبب .

ثم جرى لنجم الدين أيوب ما أوجب صرفه عن ولاية تَكَرَّيت ، فقيل : كان السبب أن أسد الدين شيركوه قتل إنساناً بتكرت ظلاماً ، فعزل مجاهد الدين أخاه [نجم الدين] (٤) لذلك ؛ وقيل : إن نجم الدين أيوب رمى مملوكاً من ممالك مجاهد الدين بهروز بسهم فقتله ، فخشى نجم الدين ، فتوجه نحو الموصل ومعه أخوه أسد الدين ، فحدهما عماد الدين زنكى بن آق سنقر — صاحب الموصل — فأحسن إليهما ، وقرىبهما ، ورعى لهما خدمتهما له ، وبالغ في إكرامهما ، وأقطعهما إقطاعات جليلة وَتَرَقَّتْ [٤] أحوالهما عنده ، فلما فتح عماد الدين زنكى بعلبك ، جعل نجم الدين أيوب

(١) كلمة فارسية مكونة من لفظين : دُرْ — ويقال دِرْ — أى قلعة ، ودار الحافظ أو المسك ، فكأن معناها صاحب القلعة أو متوليها ؛ انظر : (الجواليقي : العرب ، ص ٢٦٧ ؛ ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ ؛ Dozy : Sup. Dict. Arab) .
(٢) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله (٥١٢ — ٥٢٩) ؛ انظر تفاصيل هذه الحرب بينه وبين زنكى في : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .
(٣) في الأصل : « وأخاه » .
(٤) أضفنا ما بين الحاصرتين ليتضح المعنى .

دِرْزَدَارًا فيها ، فلم يزل متوليها إلى أن قُتِلَ عماد الدين زنكي على قلعة جعبر سنة إحدى^(١) وأربعين وخمسة — على ما سند كره .

وكان صاحب دمشق إذ ذاك مجير الدين أبق^(٢) ، بن جمال الدين محمد ، ابن تاج الملوك بُورى^(٣) ، بن ظهير الدين طُغْتِكِين ؛ وكان طُغْتِكِين هذا أتابك الملك شمس الملوك دُقاق ، بن تاج الدولة تُتُش ، بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي ؛ فلما مات دُقاق استقل طُغْتِكِين بملك دمشق ، وملك بعده ابنه تاج الملوك بُورى ، ثم ملك بعد تاج الملوك ابنه شمس الملوك إسماعيل ، فقتلته والدته ، وملك أخاه شهاب الدين محمود ، بن بُورى^(٣) ؛ ثم قُتِلَ شهاب الدين ، وولى أخوه جمال الدين محمد ؛ ثم توفي جمال الدين ، وملك بعده ولده مجير الدين أبق^(٢) ، وكان أتابكه والقيّم بأمره معين الدين أنر^(٤) — مملوك جده طُغْتِكِين — .

فلما قُتِلَ عماد الدين زنكي على قلعة جَعْبَر ، راسل مجير الدين وأتابكه معين الدين نجم الدين أيوب ليسلم إليهما بعلبك ، على أن يعطوه إقطاعاً جليلاً بدمشق ، فأجابهما إلى ذلك ، وسلم إليهما بعلبك ، ونزل نجم الدين أيوب بدمشق ، وتسلم الإقطاع الذي عُيِّنَ له ؛ وقد ذُكِرَ أن تسليماً نجم الدين أيوب بعلبك

(١) في الاصل : « أحد » .

(٢) في الاصل : « أبق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) ومجير الدين أبق هو سادس وآخر من حكم دمشق من بني بُورى ، حكمها في سنة ٥٣٤ هـ ، وظل يحكمها إلى أن عزله عنها نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٤٩ هـ .

(٣) في الاصل « بُورى » .

(٤) تكاد تجمع المراجع على ضبط هذا الاسم هكذا « أنر » ولكن الذهبي انفرد بضبطه كما في المتن ونص عليه « على الالف ضمة وفتح النون » وقد توفي معين الدين أنر في سنة ٥٤٤ هـ ، ودفن بدمشق بقبته بن دار البطيخ والشامية ، وبني في دمشق مدرسته المعينة لتدريس المذهب الحنفي . انظر : (النعمي : الدارس في المدارس ، ج ١ ، ص ٥٨٨ ؛ Zambaur : Op. Cit. P. 30, 225)

إلى صاحب دمشق كان سببه أنه راسل الأمير سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى — وهو أكبر من أخيه نور الدين محمود — رحمه الله — ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليه من يحفظها ، فأبطأ عليه بسبب اشتغال سيف الدين بترتيب الممالك الشرقية ، وخاف نجم الدين أن تؤخذ منه عنوة ، ويناله أذى ، فسأها إلى صاحب دمشق بسبب ذلك .

واتصل الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى — أخو نجم الدين أيوب — بخدمة نور الدين محمود ، بن عماد الدين زنكى ، وصار من أخص أصحابه ، ومقدماً على سائر أمرائه ، لما عرفه من شهامته وشجاعته ، وإقدامه فى الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ؛ ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن أقطعه مدينتى حمص والرحبة .

ولما قويت أطماع نور الدين محمود بن زنكى فى ملك دمشق [٥] وأخذها من صاحبها مجير الدين أبى بن محمد ، أمر أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب ، وكان بها مقبلاً ، وطلب منه مساعدته على ما هو بصدده ، فطلب هو وأخوه نجم الدين أيوب من الإقطاع شيئاً كثيراً ببلد دمشق ، فبذل لهما نور الدين ما طلبا ، وحلف لهما على ذلك فساعد نجم الدين فى تسليم البلد إلى نور الدين ، فتسلمه ، ووفى لهما بما حلف لهما عليه ، وصارت منزلتهما عنده فى أعلا الرتب ؛ وصار أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه وعساكره .

ثم كان من قصد أسد الدين الديار المصرية بعساكر نور الدين ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ولما كان ابتداء أمر نجم الدين وأخيه أسد الدين مبنيًا على الدولة الأتابكية كان الأولى الابتداء بذكر الدولة الأتابكية .

ذكر ابتداء الدولة الأتابكية

كان قسيم الدولة آق سُنْقَرُ الحاجب . جَدُّ نور الدين محمود بن زَنْكِي — مملوكاً ، للسلطان العادل عضد الدولة أَلْبُ أَرْسَلان ، بن داود ، بن ميكائيل ، بن سلجوق ، فربى مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاه ، واستمر في صحبته إلى حين كبره ، وإفضاء السلطنة إليه ، فجعله من أعيان دولته ، وأكابر أمراءه ، وأخص أوليائه ، واعتمد عليه في أموره كلها ، وعلت مرتبته ومنزلته إلى أن لُقِّبَ : « قسيم الدولة » .

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة سَيَّرَ السلطانُ جلالُ الدولة [ملكشاه] فخرَ الدولة بن جهير^(١) إلى ديار بكر ليتسلها ، وأعطاه الكوسات^(٢) ، وسَيَّرَ معه العساكر ، فسار إليها ، ونزل بنواحي آمد .

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة أَرْدَفَه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير أَرْتُقُ بن أَكْسَبِ^(٣) — أبو الملوك الأرتقية — وكان صاحبها وهو ابن مروان

(١) هو أبو نصر فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير ، ولى الوزارة للخليفين القائم والمقتدى ، وتوفى سنة ٤٨٣ هـ ؛ انظر أخباره في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢ وما بعدها ؛ ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦٤) .

(٢) عرفها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ و ١٣) بأنها صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسى ؛ ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو (الطبلخانة) — كما كانت تسمى في مصطلح العصور الوسطى — ؛ وفي (المنتظم : ج ٩ ، ص ٦) جملة توضح هذا المعنى وتؤكدده ، قال : « وعقد للوزير فخر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعطى الكوسات ، وأذن له في ضربها أوقات الصلوات الخمس بديار بكر ، والصلوات الثلاث : الفجر والمغرب والمشاء في المعسكر السلطاني » .

(٣) في الأصل : « أكشت » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤ ؛ Lane-Poole : *M. Dynasties*, P. 166) وذكر ابن خلكان أنه يقال فيه أيضاً : « أكسك » وبهذا النطق أخذ (Zambaur : Op. Cit. P. 230) فرسمه هكذا : « Ortoq b. Eksek » ؛ أنظر ترجمة حياته وبياناً بأفراد أسرته في هذه المراجع جميعاً نفس الأجزاء والملاحظات .

الكردي^(١) — لما نازلته العساكر السلطانية قد مضى إلى الأمير شرف الدولة مسلم ابن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — راغباً في أن ينصره ويساعده على من قصده ، على أن يسلم إليه آمد ، فأجابه إلى ذلك ، واتفقا عليه ، وتحالفا ، واجتمعا على حرب فخر الدولة بن جبير .

فلما رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصلح ، وقال : « لا أوتر [٦] أن يحل بالعرب بلاء على يدي . » فعلم التركمان ما قد عزم عليه ، فركبوا ليلاً ، وأتوا إلى العرب ، واحتاطوا بهم ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة ؛ والتحم القتال واشتد ، وانهزمت العرب ، ولم يحضر هذه الواقعة فخر الدولة ، ولا أُرْتُق ؛ وغنم التركمان حلل العرب ودوابهم ، وانهزم شرف الدولة ، وحى نفسه حتى دخل إلى آمد ، فانحصر فيها ، ونازله فخر الدولة ومن معه ، فراسل شرف الدولة [مسلم بن قريش] الأمير أُرْتُق ، وبذل له مالا ، وسأله أن يمن عليه بنفسه^(٢) ويمكنه من الخروج [من آمد^(٣)] وكان هو على حفظ الطرق [والحصار^(٣)] ، فأذن له في الخروج ، فخرج لتسع^(٤) بقين من ربيع الأول ، وقصد الرقة وأرسل إلى الأمير أُرْتُق

(١) ابن مروان المذكور هنا هو واحد من بني مروان حكام ميفارقين وآمد في القرن الخامس الهجري ، وهو أبو المظفر منصور بن نظام الدين أبو القاسم نصر بن نصر الدولة أبي نصر أحمد بن مروان الكردى ، حكم ميفارقين وآمد في المدة بين سنتي ٤٧٢ و ٤٧٨ ، (Zambaur: Op. Cit. P. 136)

(٢) في الأصل : « أن يمن على نفسه » ، وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤) . ويلاحظ أن المؤلف ينقل هذه الحوادث عن ابن الأثير نقلاً حرفياً في معظمه وبإيجاز يسير في أقله دون أن ينص على ذلك ؟ والرأى عندي أن ابن واصل إما أنه ينقل عن ابن الأثير للتشابه التام بين النصين وإما أنه ينقل عن المرجع الذي أخذ عنه ابن الأثير ، وذلك لأن ابن الأثير لم يكن معاصراً لهذه الحوادث .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) في ابن الأثير : « فخرج منها في الحادى والعشرين من ربيع الأول » ، وما فعله ابن واصل في المتن نموذج لأسلوبه في الإيجاز عن ابن الأثير أو عن مرجع ابن الأثير .

ابن أَسْبَ بما [كان (١)] وعده [به (١)] ، ثم سار فخر الدولة بن جبير إلى ميفارقين ، ومعه الأمير بهاء الدولة [منصور (١)] بن مزيد — صاحب الحلة — وابنه الأمير سيف الدولة صدقة ، ففارقوه ، وعاد إلى العراق . ثم نازل فخر الدولة خلاط . ولما بلغ السلطان جلال الدولة (ملكشاه) انهزام شرف الدولة وحصره بآمد ، لم يشك في أسره ، فخلع على الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جبير ، وسيّره في جيش كثيف إلى الموصل ، وسيّر معه من الأمراء : الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب — المقدم ذكره — ؛ وكان الأمير أرتق قد رجع إلى السلطان ، وعاد صحبته (٢) عميد الدولة من الطريق ، ونازلوا الموصل وأرسلوا إلى أهلها يشيرون عليهم بطاعة السلطان ، ففتحوا البلد وسلموه إليهم ؛ وسار السلطان بنفسه إلى بلاد شرف الدولة ليملكها ، (٣) وكانت بلاده الموصل ، وديار ريبة أجمع ، ومدينة حلب ، ومنبج ، وما بينهما من البلاد الجزيرية والفراتية (٤) ؛ فأتاه الخبر بحركة أخيه تكش بخراسان ، ورأى شرف الدولة قد خرج من الحصر ، فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة — وهو مقابل الرحبة — فأعطاه العهود والمواثيق ، فحضر إلى عند السلطان — وهو بالبوازيج (٥) — فخلع عليه ، وذلك سلخ رجب ، وكانت أمواله قد ذهبت ، فاقترض ما خدم به [٧] ، وحمل للسلطان خيلاً رائعة (٥) ،

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) في الأصل : « واحد عن صحبه عميد الدولة » . والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٤ — ٥٥) .

(٣) هذه الجملة غير موجودة في ابن الأثير ، وإنما أضافها ابن واصل للايضاح ، وهكذا اعتاد عند ذكر أسماء الأعلام والبلدان أن يضيف إليها ما يعرف بها .

(٤) في الأصل : « البوازيج » ، وقد ضبطت بعد مراجعة ابن الأثير وياقوت ، وقد عرفها الأخير في (معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك وهي من أعمال الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٥) في الأصل : « رابعة » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

من جملتها فرسه بشار — وهو فرسه المشهور الذى نَجَّاه من المعركة على ما هو مذكور فى أخباره — وكان لا يجارى ، فأمر السلطان أن يُسابق به الخيل ، فجاء سابقاً لها كلها ، فقام السلطان قائماً لما بداخله من العجب .

وأقر السلطان شرف الدولة على بلاده ، وأعاد إليه الموصل ، وهذا كله مذكور فى موضع آخر يليق به ، وإنما سقناه هنا لتتصل أخبار آق سنقر التى نحن بصدددها . وكان صاحب قونية وأقصر وما يتصل بهما من البلاد الرومية الملك سليمان ابن قطلمش — وهو ابن عم السلطان جلال الدولة ملكشاه — فقصد فى هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين وأربعمئة — مدينة أنطاكية وهى بيد الروم — وكان ملكوها سنة ثمان وخسين وثلاثمئة .

وكان صاحبها الفردوس الرومى قد سار عنها إلى بلاد الشام ، ورتَّب فيها شحنة ، — وكان الفردوس سميء السيرة فى رعيته وفى جنده جداً — ، وكاتب (سليمان) الشحنة وابن الفردوس . لأن أباه (الفردوس) كان قد حبسه ، فكاتبهما سليمان ليساموا البلد إليه ، وركب البحر وقصدها فى ثلاثمئة فارس ، وراجل كثير ، ثم خرج من البحر ، وسار فى جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها للموعد . فنصب عليها السلايم باتفاق من الشحنة وابن الفردوس ، وصعد السور ، واجتمع بالشحنة ، ودخل البلد ، وذلك فى شعبان ، فقاتله أهلها ، فهزهم (مرة) بعد أخرى ، وقتل كثير من أهلها ، ثم عفا عنهم ، وتسلم القلعة المعروفة بالقُسيَّان (١) ، وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم ، وأمر بعمارة ما خرب ، ومنع أصحابه من النزول فى دورهم ومخالطتهم ، وأرسل إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه يبشره بذلك .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها واد ولم يزد .

وأرسل الأمير شرف الدولة [مسلم بن قريش^(١)] — صاحب حلب والموصل — إلى الملك سليمان يطلب منه ما كان الفردوس يحمله من المال ، ويخوّفه معصية السلطان ، فأجابه : « أما الطاعة للسلطان فهي شعاري ودياري ، والخطبة له والسكة في بلادى [٨] وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعاده من هذا البلد [وأعمال الكفار^(١)] ، وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية [قبلي^(١)] فهو كان كافراً ، وكان يحمل جزيته وجزية أصحابه ، وأنا بحمد الله مؤمن ، ولا أحمل شيئاً » ، فذهب شرف الدولة بلد أنطاكية ، فذهب سليمان بلد حلب ، ووقعت بينهما فتنة^(٢) اقتضت أنهما التقيا في يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فانهزم شرف الدولة وأصحابه بعد أن قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب [ثم قُتل شرف الدولة مسلم بن قريش في نفس اليوم — الرابع والعشرين من صفر^(٣) —] .

[ولما قُتل شرف الدولة سار سليمان بن قتلمش إلى حلب] ، فحصرها إلى خامس ربيع الآخر ، فلم يبلغ منها غرضاً ، فرحل عنها . وكان [سليمان بن قتلمش^(٣)]

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) انظر تفاصيل هذه الفتنة في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦) فقد تجاوز ابن واصل عنها هنا إيجازاً .

(٣) النص هنا لا يستقيم مع المعنى ، لأن شرف الدولة قتل في هذه السنة بعد هزيمته مباشرة ، والذي تولى حصار حلب بعد موته هو سليمان بن قتلمش ؛ والراجح عندي أن المؤلف لم يلتفت إلى هذا الخلط وهو يوجب عن ابن الأثير ، أو أن هنا سقطاً من عمل الناسخ سبب هذا الاضطراب في المعنى ، وقد أضفنا ما بين الحاصرتين لتصحيح والايضاح بعد مراجعة (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٧) ، وقد ترجم هناك لشرف الدولة بعد ذكر موته ترجمة مختصرة مفيدة تؤثر نقلها هنا إتماماً للفائدة ، قال : « وكان أحوك ، وكان قد ملك من السندية التي على نهر عيسى إلى منبج من الشام وما والاها من البلاد ، وكان في يده ديار ربعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب ، وما كان لآبيه وعمه قرواش ، وكان عادلاً حسن السيرة ، والأمن في بلاده عام والرخص شامل ، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يسير الراكب =

قد أرسل إلى ابن الحتيتي (١) العباسي — مقدم حلب — يطلب منه تسليمها إليه ،
فأنفذ إليه مალًا ، واستمعه إلى أن يكتب السلطان جلال الدولة ملكشاه ، وأرسل
ابن الحتيتي إلى الملك تاج الدولة تُتُش ابن السلطان العادل عضد الدولة ألب
أرسلان — أخى السلطان — وهو يومئذ صاحب دمشق ، يعده أن يسلم إليه حلب ،
فسار تاج الدولة [تُتُش] طالبًا حلب ، وذلك في (٢) سنة تسع وسبعين وأربعمائة ،
فسار إليه ابن عمه سليمان بن قُطْلُش (٣) ، ومع تاج الدولة الأمير أُرْتُق بن أكَسَب ،
وكان قد فارق ابن جَهِير خوفًا أن ينهى إلى السلطان إطلاق شرف الدولة من آمد
— كما ذكرنا — وصار إلى خدمة تاج الدولة ، فأقطعه البيت المقدس وما يتصل به .
ثم التقى العسكران ، فانهزم أصحاب الملك سليمان ، وثبت هو في القلب ، فلما رأى
انهزام عساكره قيل إنه أخرج سكينًا [كانت] معه فقتل بها نفسه ، وقيل بل قُتل
في المعركة ، واستولى تاج الدولة على معسكره .

وكان سليمان في السنة الماضية — في صفر — أنفذ جثة شرف الدولة ملفوفة
في إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب أن يسلموها إليه ، وفي هذه السنة — في صفر —
أرسل الملك تاج الدولة جثة الملك سليمان في إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب
أن يسلموها إليه ، فأجابه [ابن] الحتيتي أنه يكتب السلطان ، ومهما أمره فعل ،
فخصر تاج الدولة البلد ، وضيّق على أهله ، وسلم ابن الحتيتي كل برج من أبراجها

= والراكان فلا يخافان شيئًا ، وكان له في كل بلد قرية حامل وقاض وصاحب خير بحيث لا يتعدى
أحد على أحد .

أنظر أيضاً : (Zambaur: O p. Cit. p. 135).

(١) في الأصل : « الحتيتي » والتصحيح عن ابن الأثير .
(٢) في الأصل : « وذلك في » وبها انتهى السطر ، ثم بدأ السطر التالى بقوله :
« وفي سنة تسع وسبعين الخ » وقد صححت بعد مراجعة (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ،
ص ٦٠) .

(٣) رسم هذا اللفظ في الأصل تارة بالتاء وتارة بالطاء .

إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه ، [٩] وسلم برجاً من أبراجها إلى إنسان يعرف بابن الراعوني (١) .

ثم إن ابن الحتيتي أوحش هذا الرجل بكلام أغلظ له فيه ، وكان شديد القوة ، ورأى ما الناس فيه من ضيق الحصار ، فراسل تاج الدولة يستدعيه ، وواعده ليلة برفع الرجال إلى السور في الحبال ، فأتى تاج الدولة [تَنَشُّ (٢)] للميعاد ، فأصعد الرجال في الحبال والسلام ، وملك تاج الدولة البلد .

واستجار ابن الحتيتي بالأمير أُرْتُق فشفع فيه ، وكان بالقلعة سالم بن مالك ابن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة [مسلم بن قريش (٢)] — فأقام تاج الدولة يحصر القلعة سبعة عشر يوماً ، ثم بلغه وصول مقدمة أخيه السلطان ، فرحل عنها إلى دمشق .

وكان ابن الحتيتي قد كاتب السلطان [ملكشاه (٢)] ليسلم إليه حلب ، فسار إليه من أصفهان ، وعلى مقدمته الأمير برسق ، وبُزَّان (٣) ، وغيرها من الأمراء ، وجعل طريقه على الموصل ، فوصلها في رجب ، وسار عنها ووصل إلى حَرَّان فسلمها إليه ابن الشاطر ، فأقطعها الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، ثم سار إلى الرُّها — وهي بيد الروم — فحصرها وملكها ، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير .

ثم سار إلى قلعة جَعْبَر ، فحصرها يوماً وليلة وملكها ، وقتل جمعاً من بني قُشَيْر (٤) ، وأخذ جَعْبَرًا صاحب القلعة (٥) — وكان شيخاً أعمى — وولدين له ، وكانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل ، ثم عبر منها الفرات ، فملك مدينة منبج في طريقه .

(١) كذا في الأصل ، وفي ابن الأثير : « ابن الرعوى » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين للإيضاح .

(٣) كذا في الأصل ، وفي ابن الأثير : « بوزان » .

(٤) في الأصل : « بشير » ، والتصحيح عن : (ياقوت : معجم البلدان ، مادة جبر) .

(٥) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أن جبر قلعة على الفرات بين بلس والرقّة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى « دوسر » فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جبر بن مالك ، ولما قصد السلطان جلال الدين ملك شاه بن أرسلان ديار ريعة ومضر نازلها وأخذها من جبر ونفى عنها بني قشير .

ولما قارب حلب رحل أخوه تاج الدولة — كما ذكرنا — على البرية ،
ومعه الأمير أرثق ، وكان أشار أرثق على تاج الدولة أن يكبس السلطان ، وكانوا
قد وصلوا ، وبهم وبدوا بهم من التعب ما لم يبق معه امتناع ، ولو فعل لظفر بهم ؛
فقال تاج الدولة : « لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود على بالوهن
أولا » . وسار إلى دمشق .

ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة ، وسلم إليه شمس الدولة سالم
ابن مالك^(١) بن بدران القلعة على أن يعوضه عنها قلعة جعبر ، وكان قد امتنع
بالقلعة أولاً [١٠] فأمر السلطان أن يرمى إليه بالنشاب رشقاً واحداً ، فرمى الجيش كله
عن يد واحدة ، فكادت الشمس أن تحتجب من كثرة النشاب فعوضه السلطان عنها
قلعة جعبر ، ولم تزل بيده ويد أولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين
محمود بن زنكى^(٢) — رحمهم الله — على ما سند كره .

وأرسل الأمير نصر^(٣) بن على بن منقذ الكنانى — صاحب شيزر — إلى السلطان ،
ودخل فى طاعته ، وسلم إليه اللاذقية ، وكفر طاب ، وفامية ، [فأجابه إلى المسالمة ،
وترك قصده ، وأقر عليه شيزر^(٤)] .

(١) فى الأصل « مالك بن سالم » ، والتصحيح عن ابن الأثير و (Zambaur: Op. Cit. p. 135)

(٢) ولى شمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العقيلي قلعة جعبر من سنة ٤٧٩ إلى ٥١٩ ،
ثم وليها من بعده شهاب الدولة مالك بن على بن سالم إلى سنة ٥٦٤ حيث ملكها نور الدين محمود ،
أنظر : (Zambaur: Op. Cit, P. 135) .

(٣) فى الأصل : « نصير » وهو الأمير عز الدولة أبو مرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ .
(Zambaur: Op. Cit. p. 104)

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن الأثير للإيضاح ، وقد أسقطها المؤلف عند الاختصار ،
هذا وفى ابن الأثير فقرة أخرى — أسقطها المؤلف أيضاً — تشير إلى مصير ابن الحقيق ،
وقد آثرنا ذكرها هنا لتمام الفائدة ، قال : « وأما ابن الحقيق فكان واثقاً بإحسان السلطان
ونظام الملك إليه ، فانه استدعاهما ، فلما ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحقيق ،
فأجابهم إلى ذلك واستصحبه معه ، وأرسله إلى ديار بكر ، فافتقر وتوفى بها على حال شديدة
من الفقر ، وقتل ولده بأنطاكية ، قتله الفرنج لما ملكوها » .

ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر

الحاجب على مدينة حلب

ولما تسلم السلطان حلب سلمها إلى حاجبه الأمير قسيم الدولة آق سنقر في هذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وأربعمائة — وقيل بل سلمها إليه سنة ثمانين ، فاستولى عليها وعلى أعمالها : كنبج ، واللاذقية ، وكفر طاب ، وأقطع السلطان مدينة الرها مجاهد الدولة بزان (١) ، وأقطع أنطاكية الأمير ياغي سيان (٢) ، وظهرت كفاة الأمير قسيم الدولة وحايته ، وعظمت هيئته في جميع بلاده .

ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق فقدم عليه في تجميل عظيم ، ولم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها ، ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة ، وأقيمت الحدود الشرعية ، وعمرت الطرقات ، وأمنت السبل ، وقتل المفسدون بكل فج ، وكان كلما سمع يفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة .

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جمع الأمير قسيم الدولة عسكره ، وقصد شيزر وحاصرها وصاحبها نصر بن علي بن منقذ ، وضايقها ونهب ربيضا ، ثم صالحه صاحبها وعاد إلى حلب .

(١) هو أبو الفوارس مجاهد الدين بوزان بن مامين الكردي ، توفي سنة ٥٥٥ هـ ؛ أنظر أخباره وترجمته في : (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٩ والصفحات المذكورة في الفهرس الأبجدي) .

(٢) في الأصل : « ياغي سيان » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٧) ، وهو في (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١٣) : « ياغي سيان » وفي (ياقوت : معجم البلدان ، مادة أنطاكية) : « بغيسان » ، وعن أخباره واستيلاء الفرنج على أنطاكية أثناء حكمه لها أنظر : (حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ج ٤٨ وما بعدها وما به من مراجع) .

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب (١) منارة حلب ، وكان بحلب بيت معبد نار ، قديم العماره ، صار بعد ذلك أتون حمام ، فأخذ ابن الخشاب حجارتها ، وبني بها المنارة ، فأنهى بهض حساده إلى الأمير قسيم الدولة خبره ، فغضب على القاضي ابن الخشاب ، فاستحضره وقال : « هدمت معبداً هو لى وملكى » . فقال : « أيتها الأمير ، هذا معبد للنار ، وقد صار أتوناً [١١] فأخذت حجارتها لأعمر بها معبداً للإسلام ، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له ، وكتبتُ اسمك عليه ، وجعلت الثواب لك ، فإن رسمت غرمت ثمنه لك (٢) ، ويكون الثواب لى ، فعلتُ » . فأعجب الأمير كلامه ، واستصوب رأيه ، وقال : « بل الثواب لى ، وافعل ما تريد » . فشرع فى عماره المنارة وانتهى فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

منازلة قسيم الدولة حمص واستيلاؤه عليها

فى هذه السنة نازل الملك جلال الدولة تئش بن السلطان ألب أرسلان ، والأمير قسيم الدولة آق سنقر ، والأمير مجاهد الدولة بزّان (٣) — صاحب الرها — حمص ، وسبب

(١) هو القاضي أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد بن الخشاب ؛ والمؤلف لا ينقل هنا عن ابن الأثير ، وإنما ينقل قطعاً عن تاريخ حلب لابن العديم ، فقد نقل هذا النص عنه ابن الشحنة فى : (الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٦٦ — ٦٧) ، وعليه راجعنا النص هنا وصحناه لأننا لم نتمكن من مراجعة تاريخ ابن العديم فاته لم يطبع بعد ؛ وأنظر ترجمة القاضي أبى الحسن فى : (ابن الشحنة ، ص ٦٨) .

(٢) النص فى ابن الشحنة : « فان رسمت لى أن أعمر ثمن الأحجار ويكون الثواب لى فعلت » وأنظر هناك أخباراً تفصيلية عن هذه المنار وتاريخها .

(٣) فى الأصل : « مجاهد الدولة بن ألب أرسلان » وهو خطأ ، والصحيح ما ذكرناه بعد مراجعة : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أنظر أيضاً ما فات ، ص ١٩ ، هامش ١

ذلك أنها كانت بيد سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبى^(١) ، فأساء السيرة ، ونزل على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي ، ورماه بالمنجنيق إلى برج سلمية ، وأخذ قوماً من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم واستغاثوا إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه ، فخرج أمر السلطان إلى أخيه تاج الدولة — صاحب دمشق — وقسيم الدولة — صاحب [حلب — ومجاهد الدولة بزّان — صاحب الرّها — بالنزول على حمص ، والقبض على ابن ملاعب وتسييره ، فنزلوا على حمص وحاصروها ، وأخذوه وسيّروه إلى السلطان ، فأقام في الحبس إلى أن توفي السلطان ، فأطلقته خاتون زوجة السلطان . وتسلم آق سنقر قلعة حمص ومدينتها ، ولما خلاص ابن ملاعب من الحبس صار إلى مصر ثم عاد منها وتسلم حصن أفامية ، وبقيت في يده سبع عشرة سنة وكان مدة ملكه بحمص سبع عشرة سنة .

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة تسلم قسيم الدولة حصن أفامية .

ثم سار تاج الدولة ، ومعه قسيم الدولة آق سنقر ، إلى طرابلس ، فحاصرها ، وبها صاحبها جلال الملك بن عمار ، فرأى جيشاً لا يُدفع بجيلة ، ولم ير فيهم مطمعا ، وكان مع الأمير قسيم الدولة آق سنقر وزير^(٣) فراسله ابن عمار ، فرأى فيه لنا ، فأتحفه وأعطاه ، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة في إصلاح حاله ، ليدفع عنه ، ويحمل إليه ثلاثين ألف دينار وتحفّاً بمثلها ، وعرض عليه [١٢] المناشير التي بيده

(١) كذا بالأصل ، ولم أجد أحداً من المؤرخين نعت هذا النعت غير ابن واصل ، وإنما اتفقوا جميعاً على تسميته بخلف بن ملاعب السكلاكي ، أنظر : (ابن القلانسي ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٤٩) و (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣ وما بعدها) و (كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها) .

(٢) ما بين الحاصرتين ورد بهامش الأصل ، وأشير إلى مكانه بعلامة في المتن .

(٣) في الأصل : « وزيراً » وقد ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أن هذا الوزير

كان اسمه : « زرين كمر (?) » .

من السلطان بالبلد ، والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته ، والشد معه (١) والتحذير من مخالفته ؛ فقال قسيم الدولة لتاج الدولة : « لا أقاتل من هذه المناشير بيده » . فأغلظ له تاج الدولة ، وقال : « هل أنت إلا تابع لى ؟ » فقال قسيم الدولة : « أنا أتابعك ، إلا فى معصية السلطان فلا » . ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد مجاهد الدولة بُزَّان إلى بلاده .

وفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة اجتمع مع الأمير شرف الدين إبراهيم ابن قریش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — عرب كثير ، وكان معتقلا فى قبضة أخيه ، فلما قتل استبد بالأمر ، وانضاف إليه خلق كثير من العرب ، وكان محبوباً كريماً ، فلقيه الملك جلال الدولة ، والأمير قسيم الدولة ، فهزموه ، ونهبوا من معه من العرب ، وسبوا نساءهم (٢) .

وفى هذه السنة توفى السلطان جلال الدولة ملكشاه ببغداد ، فطمع أخوه (٣) تاج الدولة — صاحب دمشق — فى السلطنة ، واستمال قسيم الدولة — صاحب حلب — ، ومجاهد الدولة بُزَّان — صاحب الرُّها — ، وكان تاج الدولة — قبل ذلك — فى خدمة أخيه ببغداد ، فلما انفصل راجعاً إلى بلاده ، بلغته وفاة أخيه وهو بهيمت ، فسار إلى دمشق ، وتجهز وجمع العساكر ، وأنفق الأموال ، وسار نحو حلب ، فخرج قسيم الدولة إلى خدمته ، ودخل فى طاعته ، وأرسل إلى ياغيسيان (٤) — صاحب أنطاكية — ، و بُزَّان — صاحب الرُّها — وأشار عليهما بالدخول فى طاعة السلطان تاج الدولة حتى يروا ما يكون من أولاد السلطان ملكشاه ،

(١) فى الأصل : « منه » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٢) أنظر أخبار إبراهيم بن قریش بن بدران العقيلي التفصيلية من سنة ٤٨٢ إلى أن تمت عليه الهزيمة فى هذه السنة ٤٨٥ فى : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) .

(٣) فى الأصل : « أخاه » .

(٤) فى الأصل : « باغى سيار » ؛ أنظر ماقات ، ص ١٩ ، هامش ٢

فإنه كان بينهم يومئذ حلف كبير ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا تحت طاعته ، واتفقوا على الخطبة له على منابر بلادهم ، ثم قصدوا الرحبة ، وحاصروها ، وملكوها في المحرم (١) سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم سار إلى نصيبين — وبها نواب إبراهيم بن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — فحصرها وفتحها عنوة [١٣] وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، ونهب الأموال ، وفعل الأفعال القبيحة ، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، وسار يريد الموصل .

وكان الأمير إبراهيم بن قريش بن بدران قد استدعاه السلطان ملكشاه سنة اثنتين وثمانين ليحاسبه ، فلما حضر عنده اعتقله ، وأنفذ فخر الدولة بن جيهري إلى البلاد ، فملك الموصل وغيرها ، وبقي إبراهيم مع ملكشاه ، وسار معه إلى سمرقند ، وعاد إلى بغداد ، فلما مات السلطان [ملك شاه] أطلقت زوجته تركان (٢) خاتون ، فسار إلى الموصل .

وكانت صفية — عمة السلطان [ملكشاه (٣)] وزوجة شرف الدولة (٤) ، [ولها منه ابنه (٥)] على — ثم تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم ، فأقطعها

(١) يتفق هذا التاريخ مع ما جاء في (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) فهو ينقل عنه نقلاً يكاد يكون حرفياً ، أما (Zambaur, Op. Cit. P. 30) فيذكر أن السلاجقة استولوا على الرحبة ونصيبين في سنة ٤٨٥

(٢) في الأصل : « بركات » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) و (أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٣) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للإيضاح .

(٤) في الأصل : « شرف الدين » والتصحيح عن ابن الأثير ، أنظر أيضاً السطور التالية هنا .

(٥) في الأصل : « وابنه علي » وبها يفسد المعنى ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) حيث ينقل عنه ابن واصل هنا نقلاً يكاد يكون حرفياً .

السلطان [مدينة ^(١)] بَلَدٌ؛ فلما مات السلطان قصدت الموصل ومعها ابنها على ، فقصدها محمد بن شرف الدولة ، وأراد أخذ الموصل ، فافترق العرب فرقتين : فرقة معه ، وفرقة مع صفية — عمة السلطان — وابنها على ؛ فاقتتلوا بالموصل عند الكناسة ، فظهر ^(٢) على ، وانهزم محمد ، وملك سعد الدولة على بن شرف الدولة الموصل .

فلما وصل إبراهيم إلى جبهينة — وبينه ^(٣) وبين الموصل أربعة فراسخ — سمع أن الأمير علياً — ابن أخيه — قد ملك الموصل ، ومعهم أمه صفية خاتون — عمة السلطان [ملكشاه ^(١)] — ، فأقام مكانه ، وراسل صفية ، وترددت الرسل بينهما ، فسلمت إليه البلد ، فأقام به ، فلما ملك تاج الدولة [تَنْش ^(١)] نصيبين ، أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر إليها ، [ويطلب الخطبة بالسلطنة ^(١)] فامتنع إبراهيم من ذلك ، فسار إليه تاج الدولة ، وتقدم [إبراهيم أيضاً ^(٤)] نحوه ، فالتقوا بالمضييع ^(٥) — من أعمال الموصل — في ربيع الأول ؛ وكان إبراهيم في ثلاثين ألفاً ، وتاج الدولة في عشرة آلاف ؛ وكان قسيم الدولة في الميمنة ، وبُزْآن في الميسرة ، فتمت الهزيمة على العرب ، وأسر إبراهيم ، وجماعة من أمراء العرب ، فقتلوا صبراً ، وأخذت أموالهم ، وسُبيت نسائهم ، وقتل كثيرٌ من نساء العرب أنفسهن ، خوفاً من الفضيحة .

وملك تاج الدولة [تَنْش] الموصل ، وولاهها للأمير سعد الدولة على بن شرف الدولة — ابن عمته — ، وأرسل إلى بغداد يطلب من الخليفة المقتدى

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) في ابن الأثير « فظهر » .

(٣) في الأصل : « وبينها » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) في الأصل : « تاج الدولة » ولا يستقيم المعنى به ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٥) في الأصل : « بالمصنع » وما هنا عن ابن الأثير ، ولم أجد لهذا المكان تعريفاً

فيما بين يدي من مراجع .

بأمر الله الخطبة [١٤] له بالسلطنة ، — وكان الشحنة ببغداد كوهرائين — (١)
وقيل لرسوله : « إنا ننتظر وصول الرسل من العسكر » . وعاد إلى تاج الدولة الجواب .
ثم سار السلطان تاج الدولة تُتَشُّ فملك مِيَّافارقين ، وديار بكر أجمع ، وقويت
شوكته ، وعظم أمره ، وسار إلى أذربيجان ؛ وكان ابن أخيه — السلطان ركن الدين
بركيارق بن ملكشاه — قد قوى ، وصارت بيده الريّ وهمدان وما يليهما ،
فسار بالعساكر لينع عمه من البلاد ، ففارق قسيم الدولة آق سنقر ومجاهد الدين
بزان تاج الدولة ، وانحازا إلى السلطان ركن الدين بركيارق ، فعاد تاج الدولة
إلى الشام .

ذكر مقتل الأمير قسيم الدولة آق سنقر

ولما عاد السلطان تاج الدولة من أذربيجان لم يزل يجمع العساكر حتى عظمت
جموعه ، وكثر حشده ، فسار في جمادى الأولى (٢) سنة سبع وثمانين وأربعمائة
[عن دمشق (٣)] نحو حلب ، فحشد الأمير قسيم الدولة والأمير مجاهد الدين
[بوزان (٣)] — صاحب الرُّها — وأمدّهما السلطان بركيارق بالأمير كَرُبُوقَا (٤) ،

(١) في الأصل : « كوهراوتين » ، والتصحيح عن ابن الأثير ؛ وقد رسم هذا الاسم
في (صدر الدين أبو الحسن على بن ناصر : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ،
ص ٥١ ، ٥٤ ، ٧٢) « كهرائين » . أنظر ترجمة سعد الدولة الكوهرائين بالتفصيل
في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١١٥ — ١١٦) .

(٢) في الأصل : « جمادى الآخر » ، والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٩٥)
فهو الأصل الذي ينقل عنه ابن واصل . أنظر أيضا ما يأتي ص ٢٦
(٣) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للإيضاح .

(٤) في الأصل : « كرنوقا » والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو أبو سعيد قوام الدولة
كربوقا أو كربوغا حاكم الموصل ، أنظر أخباره في : (ابن القلائسي ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٣٤ ، ١٤٠) و (Zambaur , Op. Cit. P. 38) وقد توفي كربوقا سنة ٤٩٤

فالتقى الجمعان بمكان يعرف بنهر سبّعين^(١) ، قريباً من تل السلطان^(٢) ، بينه وبين حلب ستة فراسخ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فحاصر بعض العسكر الذين مع قسيم الدولة ، فانهزموا ، وتمت الهزيمة بسبب انهزامهم ، وأخذ آق سنقر أسيراً ، وأحضر بين يدي السلطان تاج الدولة ، فقال : « لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي ؟ » قال : « كنت أرى قتلك » . قال : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليّ » ، فقتله صبراً .

وسار [تاج الدولة] نحو حلب ، وكان قد دخلها^(٣) : كَرْبُوقاً ، وبُزْان^(٤) ، فحفظاها ، فحصرها تاج الدولة ، ولجّ في حصرها ، فسلمها إليه المقيم بقلعة الشريف^(٥) ، ومنها دخل البلد ، وكانت الوقعة التي قُتِلَ فيها قسيم الدولة يوم السبت لتسع ماضين من جمادى الأولى ، وكان نزوله على حلب يوم الأحد غد هذا اليوم ، ومعه رأس قسيم الدولة ، وتسلمها العصر من ذلك اليوم ، وبات بقلعة الشريف ، وتسلم قلعة حلب يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى [الأولى] ، وأخذ بُزْان

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، ولكنه لم يذكر أنه نهر ، وإنما عرفه بقوله : سبعين قرية بياب حلب كانت إقطاعاتي من سيف الدولة .
(٢) كان يعرف هذا المكان قبل بالمرج الأحمر ، وإنما عرف بقل السلطان بعد ذلك لأن السلطان ألب أرسلان الساجوق خيم به مدة فنسب إليه ، هكذا ذكر (ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ١٣٦) .

(٣) كذا في الأصل ، ويلاحظ أن ابن واصل كثيراً ما يلتزم مذهب « أكلوني البراءيث » فيستعمل الفعل المثني والفعل الجمع مع وجود الفاعل ، ولم نشأ نحن أن نفر ما التزمه المؤلف محافظة على أسلوبه .

(٤) في الأصل : « كرنوقا ونزاب » والتصحيح عن (ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٩٦) أنظر أيضاً ما فات .

(٥) لم أجد لهذا المكان تعريفاً في المراجع التي بين يدي ، والظاهر أنها كانت إحدى القلاع الهامة القائمة في حلب وقتذاك ، فقد قال (ابن القلانسي ، ص ١١٨) في حوادث سنة ٤٧٨ : « وفيها شرع في عمارة القلعة الشريف بحلب وترميم ما كان هدم منها وإعادتها إلى ما كانت عليه في حال عمادتها » .

وَكِرْبُوقًا [١٥] أُسِيرَيْن ، وَبَعَثَ إِلَى حَرَّانَ وَالرُّهَا ، — وَكَانَتْا لِبِزَانَ —
 أَنْ [يَسْلُمَهُمَا مِنْ بَيْهَمَا (١)] إِلَيْهِ ، فَامْتَنَعَ أَهْلُهَا مِنَ التَّسْلِيمِ ، فَقَتَلَ بُزَانَ ، وَأَنْفَذَ
 رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ ، وَتَسَلَّمَ الْبَلَدَيْنِ ، وَبُعِثَ كِرْبُوقًا إِلَى حِمصَ ، فَخَبَسَ بِهَا ، وَكَانَتْ لَأَقِ
 سَنَقَرٍ ، فَتَسَلَّمَهَا ، وَسَلَّمَهَا إِلَى جَنَاحِ الدَّوْلَةِ حُسَيْنِ أَتَابِكِ وَلَدِهِ الْمَلِكِ فَخْرِ الْمَلِكِ رِضْوَانَ ،
 فَلَمَّا قُتِلَ تَاجُ الدَّوْلَةِ أَخْرَجَ الْمَلِكُ رِضْوَانَ كِرْبُوقًا مِنَ الْحَبْسِ .

ذِكْرُ سِيرَةِ الْأَمِيرِ قَسِيمِ الدَّوْلَةِ (٢) — رَحِمَهُ اللَّهُ —

[كَانَ] أَمِيرًا عَادِلًا ، حَسَنَ السَّيْرِ ، جَمِيلَ السِّيَاسَةِ ، وَكَانَ شَرْطًا عَلَى أَهْلِ
 كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ بِلَادِهِ أَنْهُمْ مَتَى أَخَذَ عِنْدَهُمْ قَفْلًا أَوْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، غَرَّمَهُمْ جَمِيعَ
 مَا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ — قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا — ، فَكَانَتْ السَّيَّارَةُ إِذَا بَلَغُوا قَرْيَةً
 مِنْ بِلَادِهِ ، أَلْقَوْا رِحَالَهُمْ ، وَنَامُوا ، وَحَرَسَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ إِلَى أَنْ يَرْحَلُوا ،
 فَامْتَنَتِ السَّبِيلَ .

وَكَانَ عِنْدَهُ وِفَاءٌ عَظِيمٌ وَحَسَنُ عَهْدٍ ، وَمَرْوُوءَةٌ غَزِيرَةٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ قَتْلُهُ وَفَاءً
 لِسُلْطَانِهِ وَرَبِّ نِعْمَتِهِ جَلَالِ الدَّوْلَةِ ، وَحَفَظًا لَوْلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنَّمَا صَارَ مَعَ تَاجِ
 الدَّوْلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ خَوْفًا مِنْهُ ، وَلَئِنْ بَنَى صَاحِبُهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ اتِّفَاقٌ ، فَلَمَّا اسْتَفْضَلَ
 أَمْرَ السُّلْطَانِ بَرَكْيَارِقَ — وَلَدَ صَاحِبِهِ — انْحَاذَ إِلَيْهِ وَقُتِلَ فِي هَوَاهُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَكَاتَبَ لِبِزَانَ أَنْ يَسْلُمَهَا إِلَيْهِ » ، وَهُوَ خَطَأٌ فَضَّلَا عَنْ أَنَّهُ اخْتِصَارٌ مَخْلُ
 بِالْمَعْنَى ، وَقَدْ صَحَّحَتِ الْعِبَارَةُ وَأَضْيَفَ مَا بَيْنَ الْحَاصِرَتَيْنِ بَعْدَ مَرَاجَعَةِ ابْنِ الْأَثِيرِ .

(٢) أَنْظَرَ تَرْجُمَتَهُ فِي : (ابْنُ خُلْكَانَ : ج ١ ، ص ١٣٩) .

ذكر أخبار عماد الدين زنكي

ابن قسيم الدولة آق سنقر — رحمه الله —

لم يخلف [آق سنقر] من الولد غير أتابك زنكي ، وكان عمره حين توفي والده عشر سنين ، فاجتمع عليه ممالك والده وأصحابه ، وفيهم الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين^(١) ، وهو صبي أيضاً ؛ ولما تخلص كربوقا من سجن حمص -- بعد مقتل تاج الدولة تئش -- توجه إلى حرّان ، واجتمع إليه جماعة ، فلكها ، وملك نصيبين ، ثم ملك الموصل وماردين ، وعظم شأنه وأحضر ممالك قسيم الدولة آق سنقر ، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي ، وقال : « هو ابن أخي ، وأنا أولى الناس به وبتريته » . فأحضره عنده ، وأقطعهم الإقطاعات السنية ، وجمع عماد الدين زنكي ممالك أبيه ، واستعان بهم في حروبه ، وأقام عماد الدين في صحبة كربوقا إلى أن توفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

وملك الموصل موسى التركماني^(٢) ، ثم شمس الدولة جكرميش^(٢) — أحد ممالك السلطان [١٦] جلال الدولة ملكشاه — فقرب عماد الدين زنكي ، واتخذ ولدًا إلى أن توفي جكرميش في سنة خمسائة .

ثم ولي بعد جكرميش جاولي سقا ، واتصل به عماد الدين زنكي .

(١) في الأصل هنا وفيما يلي دائماً « علي كوجل بن بكتكين » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣١٦) و (Zambaur, Op. Cit.) P. 38 وسنوالى ضبط الاسم كما بالمتن كلما ورد ذكره بعد ذلك دون الإشارة .

(٢) ملك الموصل ستة شهور من سنة ٤٩٥ هـ ، ثم أخذها منه جكرميش (Djekermish) في ذي الحجة من نفس السنة وظل يتولاها إلى سنة ٥٠٠ هـ ؛ انظر : (Zambaur, Op. Cit.)

ثم ولي الموصل الأمير مودود^(١) — من نسل السلطان غياث الدين محمد ابن ملكشاه — وصحبه عماد الدين زنكي ، وحضر معه حروبه .

ثم قُتل مودود بدمشق ، فأقطع السلطان الموصل لجيوش بك ، وسير معه الملك مسعود — ولده — ، وسير قسيم الدولة اسباسلار^(٢) البرسقي^(٣) آق سنقر في الجيوش لقتال الفرنج^(٤) ، وكانوا قد ملكوا سواحل الشام وفتحوا البيت المقدس ؛ فسار وصحبه عماد الدين زنكي ، فحاصروا الرها ، وأخربوا بلاد سروج وسنجار وميساط ، ثم عادوا ، وأقام عماد الدين زنكي بالموصل في صحبة الملك مسعود بن السلطان محمد ، والأمير جيوش بك .

وفي سنة إحدى عشرة وخمسة وألنور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، وفيها توفي السلطان محمد ، فأقر ولده السلطان محمود بن محمد أخاه مسعوداً^(٥) بالموصل مع جيوش بك .

وفي سنة أربع عشرة وخمسة خرج مسعود عن طاعة أخيه السلطان محمود ، فخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم التقى الاخوان ، فكسر مسعود ، وأمنه السلطان ، وأمن جيوش بك ، وأقطع الموصل قسيم الدولة آق سنقر البرسقي سنة خمس عشرة

(١) وليها من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٠٧ ؛ أنظر المرجع بالهامش الثاني من الصفحة السابقة .

(٢) أنظر مافات ص ٢ هامش ١

(٣) في الاصل هنا وفيما يلي : « البرسقي » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) ، وهو أبو سعيد سيف الدين قسيم الدولة آق سنقر البرسقي : صاحب الموصل ، ملكها بعد قتل الأمير مودود سنة ٥٠٧ ، وقتل البرسقي سنة ٥٢٠ فملك الموصل بعده ابنه عز الدين إلى أن مات في سنة ٥٢١ فملكها بعده عماد الدين زنكي ، وسيضبط الاسم فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك في الهوامش .

(٤) في الأصل : « لقتان آق سنقر الفرنجي » وهو لاشك خطأ من الناسخ .

(٥) في الأصل : « مسعود » .

وخمسمائة ، وأمر السلطانُ آق سنقر [البرُسُقي] بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند إشارته ، ففعل ذلك .

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع عماد الدين زنكي شَحْنَكِيَّة (١) البصرة وواسط ، وعظم شأنه ، وهابه الأمير دُبَيْسُ بن صدقة — صاحب الحلة — وهَمَّ دُبَيْسُ بقصد بغداد ، فسار إليه آق سنقر البرُسُقي بنفسه ، وتبعه الخليفة المسترشد بالله ، فانهزم عسكر دُبَيْس ، وقُتل منهم وأسر خلق كثير ، وكان لعماد الدين أثر حسن في هذه الواقعة ، وذلك في أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة .

ولحق دُبَيْسُ بالسلطان طُغرُل بن السلطان محمد ، [١٧] وكان معه عاصياً على السلطان محمود ، وأمر السلطان لآق سنقر البرُسُقي أن يرجع إلى الموصل فعاد ، فقال عماد الدين لأصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير ، ويؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، فتارة نحن بالعراق ، وتارة بالشام ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة » . فسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فكان يقف إلى جانب تخت الملك عن يمينه ، لا يتقدم عليه أحد ، وهو مقام والده قسيم الدولة [آق سنقر] من قبله ، وبقى لعقبه من بعده .

ثم بلغ السلطان أن العرب قد اجتمعت ، ونهبت البصرة ، فأعلم عماد الدين زنكي بالمسير إليها ، وأقطعها إياها ، لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكر والحروب ، ففعل ذلك ، فعظم عند السلطان ، وزاد محله عنده ، وكان جرى بين برتقش (٢) الزكوى — شَحْنَة (١) بغداد — وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدهد المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان شاكياً

(١) أنظر مافات ، ص ٧ ، هامش هـ

(٢) كذا في الأصل ، وفي (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩) : « برتقش » .

من المسترشد ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع المساكر عازماً على منعه من العراق ، فسار السلطانُ إلى بغداد ، وجرت حروب ووقائع ، ليس هذا موضع (١) ذكرها

ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكى (٢)

شحنكية (٣) بغداد

ثم نظر السلطان محمود بن محمد فيمن يصلح لشحنكية العراق ، بحيث يأمن معه من الخليفة ، ويضبط الأمور ، فرأى أن زنكى أصلح الناس لذلك ، فولاه الشحنكية — مضافاً إلى ما بيده من البلاد والإقطاع — وسار السلطان من بغداد .
وفي سنة عشرين وخمسة قُتل آق سنقر البرُسُقي ، قتلته الباطنية (٤) ، وكانت بيده الموصل وحلب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على الموصل

لما توفي البرُسُقي قوض السلطان الأمر بعده بالموصل إلى ولده الأمير عز الدين مسعود بن آق سنقر [البرسقي] ، فلم تطل أيامه ، وتوفي في سنة إحدى وعشرين وخمسة ، وولى بعده أخ له ، وقام بتدبير أمره مملوك لأبيه ، يقال له جاولي ، فأرسل إلى السلطان محمود [١٨] يطلب تقرير البلاد على ولد آق سنقر البرُسُقي ،

(١) أنظر تفاصيل هذه الحروب والوقائع في (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩ وما بعدها) .

(٢) أنظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ج ١ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧ وما بعدها) .

(٣) أنظر ما فات ، ص ٧ ، هامش .

(٤) أنظر تفاصيل قتله في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

وبذل الأموال الكثيرة على ذلك ، وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزورى ، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى (١) — أمير حاجب البرسقى — فحضرا دركة (٢) السلطان ليخاطباه في ذلك ، وكانا يخافان (٣) جاولى ولا يرضيان بطاعته ، فاجتمع صلاح الدين [محمد الياغيسيانى] ونصير الدين جقر (٤) ، وكانت بينهما مصاهرة ، وذكر له صلاح الدين ما ورد فيه ، وأفشى (٥) إليه سره ، فخوفه نصير الدين [من (٦)] جاولى ، وقبّح عنده طاعته ، وقرّر في نفسه [أنه (٦)] إنما أبقاه وأمّاله لحاجته إليهم ، ومتى أجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم .

وتحدث معه صلاح الدين في أن يخاطب السلطان في ولاية عماد الدين زنكى ، وضمن له الولايات والإقطاع الكثير ، وكذلك للقاضى بهاء الدين بن الشهرزورى ، وخاطباه في ذلك ، وضمننا له كلما أراد ، فوافقهما على ما طلبا .

وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير شرف الدين أنوشروان [بن (٧)] خالد ، فقالا : « إنه قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها ،

(١) في الأصل : « الباعسانى » ، أنظر مافات ص ١٩ ، هامش ٢

(٢) الدركة — والجمع دركاوات — عرفها (Dozy, Supp Dict Arab.) فقال إنها لفظ فارسى معناه القضاء أو الأمر المؤدى إلى مدخل قصر أو بناء كبير : (Cour devant un

• palais, vestibule, portique, porte)

(٣) في الأصل : « يخافا » .

(٤) هو نصير الدين جقر بن يعقوب نائب عماد الدين زنكى على الموصل إلى سنة ٥٣٩

حيث قتل ، وقد رسم هذا الاسم في (Zambaur, Op. Cit. P. 38) هكذا : « نصير الدين تشغرا Naşiraddin Tschaghra » ، أنظر بعض أخباره في : (ابن القلانسى : ص ٢١٧ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١) .

(٥) في الأصل : « وأفشى » بالألف .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤)

وذلك للايضاح .

(٧) ما بين الحاصرتين عن ابن الاثير ، نفس الجزء والصفحة ، وهو شرف الدين أنوشروان

ابن خالد بن محمد الكاشانى ، ولى الوزارة لسلطان محمود السلجوقى في العراق من ربيع الثانى سنة ٥٢١ إلى رجب سنة ٥٢٢ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) .

وقد قويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من حدّ ماردین إلى عریش مصر — ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين — ، وقد كان البرسقي — مع شجاعته — يكفّ بعض عاديّتهم ، فمذ قُتل زاد طمعهم ، وولده طفل ، ولا بد للبلاد من رجل شهيم شجاع ذی (١) رأى وتجربة يذبّ عنها ويحمي حوزتها ، وقد أنهيّا الحال إليك لئلا يجري خلل أو وهن على المسلمين ، فيختص اللوم بنا ، ويقال لنا : لم لا أنهيتم إلينا جليلة الحال . فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان ، فشكرها عليه ، وأحضرها ، واستشارها (٢) فيمن يصلح للولاية ، فذكر (٣) جماعة ، منهم : عماد الدين زنكي ، وبذلا عنه — تقربا إلى خزانة السلطان — مالا جليلا ، فأجاب [السلطان] إلى ذلك ، لما يعلمه من كفايته لما يليه ، وولاه البلاد كلها ، وكتب منشوره بذلك (٤) وضم إليه ولده الملك ألب أرسلان — المعروف بالخفاجي — وجعله أتابكه ، فمن ثم قيل لزنكي : « أتابك (٥) » ، فسار أتابك زنكي (٤) .

(١) في الأصل : « ذو » .

(٢) في الأصل : « واستشاره » والتصحيح عن ابن الأثير حيث ينقل عنه هنا ابن واصل نقلا يكاد يكون حرفياً مع تغييرات طفيفة في اللفظ دون المعنى .

(٣) في الأصل : « فذكروا » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) هذه الجملة لا توجد في ابن الأثير وإنما أضافها ابن واصل من عنده للإيضاح ، وهو إيضاح له أهميته لتحديد التاريخ الذي لقب فيه عماد الدين بلقب أتابك وهو اللقب الذي ميز الدولة التي حكمت من نسله .

(٥) « أتابك » لقب يتكون من لفظين تركيبين : أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ؛ وذكر صاحب (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) أن أول من لقب بهذا اللقب هو نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة ؛ ثم أصبح ملوك السلاجقة يطلقون هذا اللقب على كبار قواد جيشهم الذين يولونهم الوصاية على أبنائهم القاصرين . وكثيراً ما كان الأمير الأتابك يتزوج أم الطفل الموصى به ، وبذلك تصبح العلاقة بينه وبين هذا السلطان القاصر علاقة شبه أبوية . أنظر أيضاً : (Demombynes: *La Syrie à l'Époque des Mamlouks*, Pref P. XXVII, LVI) و (دائرة المعارف الإسلامية : مادة أتابك) .

وبدأ بالبوازيج^(١) [١٩] فملكها ، وتقوى بها ، وجعلها وراء ظهره ،
لأنه خاف من جاولى أنه ربما صدّه عن البلاد ، ثم سار من البوازيج إلى الموصل ،
فلما سمع جاولى بقربه من البلد ، خرج إلى تلقية ، ومعه سائر العسكر ، فلما رآه
جاولى نزل عن فرسه ، وقبّل الأرض بين يديه ، وعاد في خدمته إلى الموصل ،
فدخلها في رمضان ، وأقطع [عماد الدين زنكى] جاولى الرحبة ، وسيّره إليها ،
وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، ووّلّى نصير الدين جقر دِرْدَارِيَّة^(٢)
[القلعة^(٣)] بالموصل ، وجعل إليه دِرْدَارِيَّة سائر القلاع ، وجعل صلاح الدين محمداً
أميراً حاجباً^(٤) ، وبهاء الدين قاضى القضاة في البلاد جميعها .

ذكر استيلاء عماد الدين

على جزيرة ابن عمر^(٥)

ثم سار عماد الدين إلى جزيرة ابن عمر ، وبها ممالك البرُسُقي ، فامتنعوا
من التسليم ، فحصرهم وراسلهم ، وبذل لهم البدول الكثيرة على أن يجيبوه ،
فلم يجيبوا ، فجدّ في قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس بالقاء أنفسهم
في الماء ، ليعبروا إلى البلد ، ففعلوا ، وعبر بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ،

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل
حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك ، وهى الآن (أى في زمن ياقوت) من أعمال
الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأتبار موضع آخر .

(٢) أنظر ما فات ص ٨ ، هامش ١

(٣) ما بين الحاصرتين عن (ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥) .

(٤) فى الاصل : « أمير حاجب » والتصحيح عن ابن الاثير .

(٥) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام تحيط
بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلاك ، ثم قال : وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر
ابن الخطاب التغلبى وكانت له امرأة بالجزيرة .

وبعضهم في الآكلاك (١) ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا من الجزيرة إلى أرض بين الجزيرة ودجلة ، تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فلما عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعهم ، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم ، فانهزم أهل البلد ، وتحصنوا بأسواره ، واستولى عماد الدين على الزلاقة ، فلما رأى ذلك أهل البلد علموا أن لا خلاص لهم منه ، فسلموا إليه البلد بالأمان ، فدخل إليه هو وعسكره ، وزادت دجلة في تلك الليلة زيادة منكبة ، بحيث لحقت (٢) سور البلد ، وامتلات الزلاقة ماء ، ولو أنهم أقاموا ذلك اليوم ، ولم يتفق لهم الدخول للبلد ، لغرقوا ولم يسلم منهم أحد ، فعلم الناس أن ذلك بداية سعادة ، وأن أمر هذه الدولة لعظيم .

استيلاء عماد الدين زنكى على نصيبين

ثم سار عماد الدين زنكى إلى نصيبين ، وكانت للأمير حسام الدين تيمرtaş ابن إيلغازى ابن أرتق (٣) — صاحب ماردين — فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة (٤) داوود ابن معين [٢٠] الدين [سُقمان (٥)] بن أرتق

(١) الكك — والجمع كلكات أو أكلاك — لفظ فارسي معناه السفينة الصغيرة وجاء في (محيط المحيط) : « الكك مركب يركب في أنهر المراق ويعرف بالطوف » أنظر أيضاً : (Dozy : Supp. Dict. Arab.) حيث ذكر أن هذا اللفظ استعمل في قصة السندباد البحري ، وللايضاح كذلك أنظر : (قامم الدجيلي في مجلة لغة العرب ، الأجزاء ١ و ٢ و ٣ سنة ١٩٠١) و (Kindermann : Schiff im Arabischen) وما به من مراجع . وراجع أيضاً : (البطريق أغناطيوس أفرام الأول : الألفاظ السريانية في المعاجم العربية . بحث نشر في مجلة المجمع العالمي العربي بدمشق ، أعداد سنة ١٩٥٠) حيث يرى أن اللفظ من أصل سرياني .

(٢) في س « أخفت » ، وما هنا من ابن الأثير .

(٣) في الأصل « يرتق » ، وقد صححت بعد مراجعة (Zambaur , Op.cit. p. 228, 230)

وقد حكم حسام الدين هذا ماردين من سنة ٥١٦ إلى ٥٤٧ هـ .

(٤) في الأصل : « الدين » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥)

و (Zambaur. p. 228)

(٥) في الأصل : « شهاب الدين بن أرتق » والتصحيح عن المرجعين المذكورين

في الهامش السابق . وقد حكم ركن الدولة داود هذا حصن كيفا من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٣٩ هـ .

صاحب حصن كيفا ، فوعده النجدة ، وجمع العسكر ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وأرسل رقاعا على جناح طائر إلى نصيبين ، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه سائران إليهم في العسكر الكثير ، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام ، فسقط الطائر على خيمة عماد الدين ، فقرأها ، وأمر أن يكتب بطاقة غيرها ، مضمونها : إني قصدت ابن عمي ركن الدولة (١) ، وقد وعدني النصرة ، وجمع العساكر ، وما تأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدة إلى أن يصل ، وجعل البطاقة في الطائر وأرسله ، فوقع بنصيبين ، فلما وقف أهل البلد على البطاقة أسقط في أيديهم ، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة ، فسلموا البلد إلى عماد الدين ، فقسلمه ، وهذا من غرائب الاتفاق .

استيلاء عماد الدين زنكي على سنجار والخابور

ثم سار إلى سنجار ، فامتنع من بها عليه ، ثم صالحوه ، وسلموها إليه ، وسير منها الشَّحَن إلى الخابور ، فملكه جميعه ، ثم سار إلى حرَّان .

استيلاؤه على حرَّان

ولما قاربها ، خرج أهلها مدعين له بالطاعة ، لأنهم كانوا في ضرر عظيم وضيق من الفرنج — لعنهم الله — فإنه كانت بأيديهم يومئذ الرُّها وسرُّوج والبيرة ، وتلك البلاد ، وتلك النواحي جميعها .

ولما ملك حرَّان أرسل إلى جوسلين — صاحب الرُّها وتلك البلاد — وهادنه مدة يسيرة ، ليتفرغ لإصلاح البلاد ، وتجنيد الأجناد ، وكان أهم الأمور إليه أن يعبر الفرات ويملك البلاد الشامية .

(١) في الأصل : « الدين » أنظر مافات ص ٣٥ ، هامش ٤

ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكي

على مدينة حلب

وكان آق سنقر البرُسُقي قد ملك حلب ، فلما قُتل آق سنقر [هذا (١)] بالموصل كان ولده عز الدين مسعود بقلعتها (٢) فسار إلى الموصل وملكها ، واستناب بقلعتها رجلا يقال له : « قومان (٣) » ، ولما استتب أمره (٤) سار إلى الرحبة ليحاصرها . وورد إلى حلب غلام السلطان محمود ، يقال له : « خُتلُغُ أبه (٥) » أتى بتوقيع من الأمير عز الدين يتضمن تسليم حلب إليه ، وصحبته سنقر [٢١] الطويل الملقب عمدة الدين — صاحب حرّان — المعروف بدران (٦) ، فسلم التوقيع إلى قومان (٣) ، فلم يقبل واحتج بعلامة بينه وبين عز الدين لم يتضمنها التوقيع ، واعترف بالخط ، وكان بينهما العلامة صورة غزال ، لأن عز الدين كان أحسن الناس نقوشاً وتصاویر ، وكان مفطر الذكاء ، وطال الأمر على خُتلُغُ أبه ، ولم يسلم إليه البلد ، فأشير إليه بالعود ، فعاد ، وكان عز الدين محاصراً الرحبة ، فوصل [ختلغ (١)] في خمسة أيام ، فوجد مسعوداً قد مات ، وهو مطروح على قطعة بساط ، والعسكر مشغولون عن دفنه ،

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين للإيضاح .

(٢) الضمير هنا يعود على حلب .

(٣) في الأصل : « تومان » ، والتصحيح عن (ابن الأثير) و (Zombaur: Op. Cit. p. 34)

(٤) الضمير هنا حائد على عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي صاحب حلب .

(٥) كذا في الأصل ، ويرسم أيضاً « قتلغ » أنظر المرجعين بهامش ٣

(٦) كذا في الأصل ، ولم أستطع تحقيق الاسم بعد مراجعة المراجع المتداولة هنا في الحواشي ، ويلاحظ أن ابن واصل لا ينقل في هذا الجزء عن ابن الأثير ، وفيما أورده هنا عن الاستيلاء على حلب تفاصيل كثيرة لا توجد في السكامل لابن الأثير أو ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي أو المختصر لأبي الفدا . وأغلب الظن أنه ينقل هنا عن تاريخ حلب لابن العديم وإن كنت لم أطلع عليه فهو لا يزال مخطوطاً ، وهذا الاختلاف حيناً والاتفاق حيناً آخر بين النصين يؤكد مذهبنا إليه من أن المؤرخين يأخذان عن مرجع واحد .

وقد نهب بعضهم بعضاً ، فماد خُتْلُغُ أَبَهٗ إِلَى حلب فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَعَرَّفَ النَّاسَ مَوْتَهُ ، فَأَدْخَلَهُ الرَّئِيسُ فُضَّائِلُ بْنُ بَدِيعٍ — رَئِيسُ حَلَبٍ — الْمَدِينَةَ ، وَاسْتَنْزَلُوا قَوْمَانِ مِنَ الْقَلْعَةِ بَعْدَ مَا صَحَّ عِنْدَهُ وَفَاةُ صَاحِبِهِ ، فَصَانَعَهُمْ عَلَى أَلْفِ دِينَارٍ ، وَسَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَى خُتْلُغُ أَبَهٗ ، وَاسْتَحْلَفَهُ الْحَلِيبِيُّونَ ، وَاسْتَوْثَقُوا مِنْهُ .

وَطَلَعَ [خُتْلُغُ] إِلَى الْقَلْعَةِ لَسْتُ بِقَيْنٍ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ، فَبَقِيَ أَيَّامًا يَظْهَرُ مِنْهُ شَرٌّ عَظِيمٌ وَفَسَقٌ كَبِيرٌ ، فَتَشَوَّشَتْ قُلُوبُ الرِّعَايَا مِنْهُ ، وَحَمَلَهُ قَوْمٌ عَلَى الطَّمَعِ ، فَصَارَ يَخْتَمُ عَلَى تَرْكَةِ مَنْ يَمُوتُ ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَكْشِفُ : هَلْ لَهُ وَرَثَةٌ أَمْ لَا ؟ فَاشْتَدَّتْ نَفَرَةُ النَّاسِ مِنْهُ وَعَرَفَ الرَّئِيسُ فُضَّائِلُ وَالْأَمِيرُ بَدْرُ الدَّوْلَةِ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أُرْتُقُ — الَّذِي كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صَاحِبَ حَلَبٍ — أَنَّهُ قَدْ عَزَمَ عَلَى قَبْضِهِمَا ، فَتَحَالَفَا ، وَاتَّفَقَا ، وَاتَّفَقَ مَعَهُمَا أَحْدَاثُ حَلَبٍ ، فَتَارُوا لَيْلَةَ الثَّلَاثَاءِ ثَانِي شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَكَانَ خُتْلُغُ أَبَهٗ وَحِجَابُهُ وَخَوَاصِيهِ فِي قَلْعَةٍ ، وَكُلُّهُمْ يَشْرَبُونَ فِي الْبَلَدِ عِنْدَ أَصْحَابِهِمْ ، لِأَنَّهُ عَشِيَّةُ يَوْمِ الْعِيدِ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِمُ الْحَلِيبِيُّونَ ، وَمَلَأُوا مِنْهُمْ الْحُبُوسَ وَالْمَسَاجِدَ وَدَارَ ابْنِ الْأَقْرِيطَشِيِّ ، وَقِيدُوهُمْ ، وَزَحَفَ النَّاسُ إِلَى بَابِ الْقَلْعَةِ ، وَحَاصَرُوهَا ، فَقَاتَلُوهُمْ النَّهَارَ أَجْمَعُ ، وَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ نَزَلَ وَأَحْرَقَ الْقَصْرَ ، فَتَلَفَتْ سَقُوفُهُ وَأَبْوَابُهُ ، وَذَهَبَهُ وَأَخْشَابُهُ وَرَخَامُهُ .

وَهَجَمَ النَّاسُ [٢٢] صَبِيحَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَأَخَذُوا مِنْهُ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ ، وَقَتَلَ خَلْقَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَوَصَلَ الْأَمِيرَانُ حَسَنُ وَحَسَّانُ — ابْنَا الْبُعْلَبُكِيِّ صَاحِبَا مَنَبِجٍ — مِنْ بُزَاعَةِ (١) سَابِعِ شَوَّالٍ ، فَسَامَاهُ الْخُرُوجُ ، فَأَبَى ، ثُمَّ وَصَلَ الْجُوسَلِينَ — مَلِكُ الْفَرَنْجِ — فِي مَائَتِي فَارَسٍ إِلَى بَانْقُوسَا ، وَنَفَذَ رَسُولُهُ يَصَانَعُوهُ فِدْفَعُوهُ .

(١) فِي (ابْنِ الْأَثِيرِ ، ج ١٠ ، ص ٢٧٦) : « فَوَصَلَ إِلَى حَلَبٍ حَسَّانُ صَاحِبُ مَنَبِجٍ وَحَسَنُ صَاحِبُ بُزَاعَةِ » .

وفي آخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضوان بن تاج الدولة تُتَشُّ ، فأدخله أهل حلب البلد ، ونادوا بشعاره ، ثم وصل يميند الأفرنجي — صاحب أنطاكية — وضايق البلد ، فركب الملك إبراهيم وبدر الدولة سليمان بن أرتُق والرئيس فضائل ابن ربيع في خلق من الحلبيين ، وترددت الرسل بينهم حتى استقر الأمر على الهدنة مدة ، وحمل إلى يميند ما اقترحه بعد أن أشرف البلد على الهلاك .

وطال الحصار على خُتْلُغْ أْبَه إلى نصف ذى الحجة ، فوصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش ، ومع سنقر وحسن توقيعُ سلطانٍ لعماد الدين زنكي بالموصل والجزيرة والشام ، ومعهما جماعة من الأمراء ، واتفق الأمر على أن يسير خُتْلُغْ أْبَه وبدر الدولة [بن عبد الجبار] إلى الأمير عماد الدين زنكي فلمن ولى استقر الأمر (١) ، فمضيا إلى باب عماد الدين ، وبقي في البلد حسن قراقوش والياً ولاية مستعارة .

ولما مضى بدر الدولة وخُتْلُغْ أْبَه إلى عماد الدين أصاح بينهما ، ولم يقع لأحد ، وطمع في البلد ، وسير جيشاً مع الأمير صلاح الدين الياغيساني — حاجبه — فصعد إلى قلعة حلب ، ورتب الأمور فيها .

ثم سار الأمير عماد الدين إلى الشام — في جيوشه وعساكره — فلك بزاعة ومنبج في طريقه ، وخرج أهل حلب إليه ، فالتقوه واستبشروا بقدومه ، ودخل البلد ، واستولى عليه ، ورتب أموره ، ثم قبض على خُتْلُغْ أْبَه ، وسلمه إلى ابن بديع ، فكحله (٢) بداره بحلب ، فمات ، فاستوحش ابن بديع ، فهرب إلى قلعة جعبر ، واستجار بصاحبها فأجاره .

(١) كذا في الأصل ، والمعنى غير واضح ، والمقصود أن أي الرجلين يولى عماد الدين يستقر له الأمر .

(٢) في الأصل : « فسهه » والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٧٧) حيث يعود النص هنا فيتنفق ونص ابن الأثير اتفاقاً كبيراً .

وولّى عماد الدين رياسة حلب أبا الحسن على بن عبد الرزاق ، وكان دخول
عماد الدين مدينة حلب واستقراره بها في [٢٣] جمادى الآخرة من سنة اثنتين
وعشرين وخمسمائة .

ثم سار من حلب إلى خدمة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه — في تجهل
عظيم — ، وعاد من عنده إلى الموصل في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، ومعه
منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما ، بعد أن يحمل إلى السلطان وأصحابه ما يزيد
على مائة ألف وعشرين ألف دينار .

وفي مستهل رجب سنة أربع وعشرين وخمسمائة وصل عماد الدين زنكي
إلى الفرات ، وفتح قلعة السن (١) ، وسير عسكرياً أغاروا على بلد عزاز (٢)
— وهي للفرنج — وعاثوا في بلد جوسلين ، وذلك لليلتين بقيتا من رجب ؛
وخيم عماد الدين ظاهر حلب ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج ، واصطاحوا
مدة ؛ ولعشر بقين من شعبان تزوج الأمير عماد الدين خاتون بنت الملك رضوان
ابن تتش .

(١) كذا في الأصل ، ولم أستطع تحقيق هذا الموقع لأن أخبار استيلاء عماد الدين على هذه
القلعة وعلى عزاز ثم خبر زواجه لم ترد جميعاً في حوادث سنة ٥٢٤ هـ في المراجع الكثيرة المتداولة
في هذه الحواشي ، ولعل المقصود قلعة البيرة فهي واقعة على الفرات .

(٢) عزاز — وربما قيلت بالألف في أولها — بليده فيها قلعة ولها رستاق شمال حلب ، بينها
يوم . (ياقوت : معجم البلدان) .

ذكر استيلاء الأمير عماد الدين

على مدينة حماة

وكانت حماة للأمير ظهير الدين (١) أتابك طُغْتِكَيْن — صاحب دمشق —
قد تسلمها عقيب موت صاحبها شهاب الدين محمود بن قَرَاجَا (٢) سنة سبع عشرة
وخمسمائة ، ثم سلّمها الأميرُ ظهير الدين إلى الأمير بهاء الدين إبراهيم بن مَوَّار ،
ثم توفي إبراهيم بعد موت ظهير الدين ، فولّى تاجُ الملوك بوري بن طغتكين
— صاحب دمشق — حماة ولده بهاء الدين سيونج بن بوري .

ولما كانت هذه السنة — أعنى سنة أربع وعشرين وخمسمائة — أرسل عماد الدين
زنكى إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين — صاحب دمشق — يستنجده على الفرنج ،
وأظهر العزم على الجهاد ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق ،
ثم جرّد عسكرياً من دمشق مع جماعة من الأمراء ، وأرسل إلى ابنه سيونج — صاحب
حماة — يأمره بالتقدمة على العسكر والمسير بهم إلى خدمة عماد الدين زنكى ، فساروا
بأجمعهم إليه ، فأكرمهم وأحسن ملتقاهم ، وكان عنده الأمير صمصام الدولة خترخان (٣)

(١) هو أبوسعيد سيف الاسلام ظهير الدين معتمد الدولة طغتكين — أتابك دُقاق بن تَنْش —
توفي في صفر سنة ٥٢٢ هـ (Zambour, Op. Cit. p. 225) .

(٢) ترجم لهذا الحاكم (ابن القلانسي ، ص ٢١٠) في شيء من التفصيل ، قال في حوادث
سنة ٥١٧ : « وفي هذه السنة ورد الخبر بأن محمود بن قراجة (كذا) وإلى حماة خرج
في رجاله ، وقصد ناحية أفامية وهجم ريفها ، فأصابه سهم من الحصن في يده ، ولما قلع منه
عملت عليه وتزايد أمرها فمات منه ؛ وكان طاهراً ظالماً متمرداً ، وقتل جماعة من أعيان حماة
ظالماً وتعدياً بسعاية بعضهم على بعض ، ولما عرف ظهير الدين ذلك أنهض إلى حماة من تسلمها
وتولى أمرها من ثقاته .

(٣) كذا في الأصل ، وقد أورد (ابن القلانسي ، ص ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ ،
٢٥٢) هذا الاسم على أشكال ثلاث : (خترخان ، خيرخان ، قرخان) ، وهو في (ابن الأثير :
ج ١٠ ، ص ٢٨١) : « قرجان » ، ولقبه صمصام الدين أو الدولة ، وقد ولي خمس بعد وفاة أبيه
قراجا في سنة ٥٠٥ هـ .

ابن قُراجا — صاحب حمص — فحسّن إمام الدين الغدر بيهاء الدين سُوْنُج، والقبض عليه وعلى أصحابه ، وأخذ حماة (١) ، ففعل ذلك ، وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه ، ولا شيء أقبح من الغدر ؛ [٢٤] ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء استفتى الفقهاء في ذلك ، فأفقاء منهم من لا دين له ، وجوّز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفاً ، فقبض على بهاء الدين وعلى جماعته ، وأنبه الخليل والخليم ، وقبض على جميع أصحابه ، واعتقل الأمراء بالقلعة والجند بحلب .

ثم سار في العشر الأول من شوال إلى حماة وتسلمها ، ثم غدر بصمصام الدين خترخان ، وسيرّه إلى حلب ، وحُبس بقلعتها .

وسار إلى حمص فنازلها ، وطلب عماد الدين من أولاد صمصام الدين خترخان تسليم قلعة حمص ، فامتنعوا ، فألحّ في حصارها ، ونقب النقبون القلعة ، فبطل عليهم النقب ، وأمر بنصب المجانيق عليها فبطلت ، وطالت مدة الحصار ، وهجم الشتاء ، فعاد بالعسكر إلى حلب ، وترددت الرسل بين تاج الملوك بوري — صاحب دمشق — وعماد الدين زنكي في إطلاق ولده بهاء الدين سُوْنُج وأصحابه ، فاستقر الأمر على خمسين ألف دينار ، فأجاب تاج الملوك إلى حملها ، ولم ينتظم بينهم أمر .

وفي منتصف ذي الحجة من هذه السنة سيرّ عماد الدين زنكي ألفي فارس ، وهجمت مَعْرَة مَصْرِين (٢) — وهى للفرنج — ونهبت وقتل من فيها ، وشنّ الغارة على تل

(١) حديث ابن واصل هنا عن أخذ عماد الدين حماة فيه إسهاب وتفصيل أكثر مما ورد في المراجع المختلفة المتداولة في هذه الحواشي كابن القلانسي وابن الأثير وأبي الفدا . . . الخ ولا يجب فحماة وطن ابن واصل ومسقط رأسه ، وسنلاحظ اعنائه الدائبة بذكر تاريخها مفصلاً كما ورد ذكرها فيما يلي .

(٢) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها ، بينهما نحو خمسة فراسخ ؛ أنظر أيضاً : (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، الصفحات المذكورة بالفهرس) .

بأشهر (١) والآثار (٢) ، وأوقع بخيل من الآثار ، فقتل منهم جماعة كبيرة ، وذكر ابن الأثير (٣) أنه فتح في هذه السنة حصن الآثار .

وفي المحرم سنة خمس وعشرين وخمسمائة توجه الأمير عماد الدين زنكي راجعاً إلى الموصل ، وفي ربيع الآخر من هذه السنة ورد السلطان محمود أمر العراق إلى عماد الدين مضافاً إلى ما بيده من الشام والموصل والجزيرتين ؛ وفي هذه السنة فتح الأمير عماد الدين قلعة للأكراد حصينة يقال لها مجهيمير (٤) .

ذكر قبض الأمير عماد الدين

على دُبَيْس بن صدقة المزيدي (٥) صاحب الحلة (٦)

وكان السلطان محمود قدم بغداد سنة ثلاث وعشرين من عند عمه السلطان سنجر بن ملكشاه — صاحب خراسان — ، ومعه الأمير دُبَيْس بن صدقة ، ليصالح

(١) ذكر (ابن الشحنة ، ص ١٦٩) أنها كانت من أعمال حلب ولها قلعة معمورة وبساتينها كثيرة .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أنها كانت قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ ، ثم قال : وهذه القلعة الآن (القرن السابع الهجري) خراب وتحت جبلها قرية تسمى باسمها .

(٣) هذه ثاني مرة يشير فيها ابن واصل إلى مرجع من المراجع التي أخذ عنها ، انظر ما فات هنا ص ٣ ، وفي (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٢) تفاصيل وافية عن فتح عماد الدين زنكي لحصن الآثار في سنة ٥٢٤ هـ .

(٤) لم تشر المراجع المختلفة إلى استيلاء عماد الدين على هذه القلعة ، ولهذا لم أتمكن من ضبطها .

(٥) في الأصل : « المزيدي » ، وقد ضبط الاسم كله بعد مراجعة : (ابن الغلاني ،

ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ — ٢٣٠ ، ٢٥١) و (Zambour, Op. Cit. p. 137) وقد حكمت أسرة مزيد الأسدى مدينة الحلة ابتداء من سنة ٤٠٣ ، أما ديبس المذكور هنا فهو نور الدولة ديبس الثاني أبو العز بن سيف الدولة صدقة الأول المزيدي ، حكم الحلة من سنة ٥٠١ إلى ذي الحجة سنة ٥٢٩ ، وقد قتل في أوائل سنة ٥٣٠ ، قتله السلطان مسعود بن محمد السلجوقي .

(٦) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : الحلة علم لعدة مواضع ، وأشهرها حلة بني مَزِيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت قبل تسميها الجامعين ، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن ديبس بن علي بن مَزِيد الأسدى .

بينه وبين الخليفة المسترشد بالله ، فتأخر دُبَيْس عن السلطان ، ثم وصل دُبَيْس ، ونزل بدار السلطان ، فاسترضى السلطانُ الخليفةَ عنه ، فامتنع أن يُؤَلَّى دُبَيْسَ [٢٥] شيئاً من الأعمال ، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار لأجل ذلك ، وبلغ الأمير عماد الدين أتابك زنكى أن السلطان قد عزم على تولية دُبَيْس الموصل ، فسافر إلى خدمة السلطان — كما قدمنا — ، ولم يشعر السلطان به إلا وهو عند السترة ، وبذل الجملة العظيمة التي ذكرناها ، وخلع عليه ، وأعيد إلى بلاده — كما ذكرنا — .

ثم رحل السلطان عن بغداد ، ومرض ، وبلغ دُبَيْساً ^(١) مرضه ، فطعم وجمع جمعاً كثيراً ، وقصد الحلة ، وكان بها بهروز — شحنة بغداد — ، فهرب ، ودخلها دُبَيْس ، فعاث في البلاد ، فسير إليه السلطانُ [آق سنقر ^(٢)] [الأحمدى ليكيف شره ، فأرسل دُبَيْس يستعطف الخليفة ، وقال : « إن رضيت عني رددت أضعاف ما أخذته » ، وترددت الرسل في ذلك ، ودُبَيْس يجمع ويحشد ، فاجتمع إليه عشرة آلاف فارس ؛ ثم سار السلطان إلى بغداد فأهدى له دُبَيْس هدايا جليلة ، من جملتها ثلاثمائة حصان منقولة بالذهب ، ومائتا ألف دينار ليرضى عنه الخليفة والسلطان ، فلم يُجِبْ إلى ذلك .

ولما دخل السلطان بغداد قصد دُبَيْس البصرة ، وأخذ منها أموالاً جليلة ، فسير إليه [السلطان] عشرة آلاف فارس ، ففارق البصرة ، ودخل البرية ، وسار متوجهاً إلى الشام ، فقيل إنه قصد قلعة صرخد ، لأن سرية ^(٣) لصاحبها

(١) في الاصل : « ديبس » .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن القلائسي ، ص ٢٣٨) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٤) أن صاحب صرخد توفي في هذه السنة وكان خصياً ، وخلف جارية سرية له فاستولت على القلعة وما فيها ، وعادت أنها لا يتم لها ذلك إلا بأن تنصل برجل له قوة ونجدة ، فوصف لها ديبس بن صدقة وكثرة عشيرته ، وذكر لها حاله وما هو عليه بالعراق ، فأرسلت تدعوه إلى صرخد لتتزوج به وتسلم القلعة وما فيها من ماك وغيره إليه ، فأخذ الأدلاء معه وسار من العراق إلى الشام ، ففضل به الأدلاء بنواحي دمشق .

كتبت إليه وأطمعته فيها ، وضلَّ به الأدلاء الطريق بنواحي دمشق ، فنزلت (١) بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة ، فقبضوا عليه ، وحملوه إلى تاج الملوك بوري ابن طغتكين — صاحب دمشق — فحبسه عنده ، وبلغ ذلك عماد الدين زنكي ، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب دُبَيْسًا ، على أن يطلق ولده بهاء الدين سُوْنَجَ وَمَنْ عنده من المأسورين ، فإنه إن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها ، فأجابه تاج الملوك إلى ذلك ، فأرسل دُبَيْسًا ، وأرسل إليه عماد الدين بهاء الدين سُوْنَجَ وأصحابه ، وتسلم عماد الدين دُبَيْسَ بن صَدَقَةَ ، فأحسن إليه عماد الدين ، ودفع إليه من الأموال والسلاح ما لم يكن في ظن دُبَيْسَ .

فأرسل [٢٦] الخليفة المسترشد بالله لما سمع بالقبض على دُبَيْسَ سديد الدولة ابن الأنباري (٢) وأبا بكر بن بشر الجَزَرِي (٣) ، يطلبان من تاج الملوك دُبَيْسًا ، لما بينه وبين الخليفة من العداوة ، فسمع سديد الملك — وهو في الطريق — بمصير دُبَيْسَ إلى عماد الدين ، فسار إلى دمشق ولم يرجع ، ووقع في عماد الدين وذمه ، واستخف به ، وبلغ ذلك عماد الدين فأرسل إلى طريقه من يأخذها إذا عادا ، فلما رجعا من دمشق قبضوا عليه (٤) وعلى ابن بشر ، وحملوها إليه فَأَطْلَقَ ابن بشر ، وسَجَنَ ابن الأنباري ثم أَطْلَقَهُ .

وكان مصير دُبَيْسَ إلى عماد الدين سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وفيها مات السلطان محمود بن محمد .

(١) الضمير هنا يعود على الأدلاء .

(٢) هو سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن الأنباري ، كان كاتباً للخليفة المسترشد ؛ أنظر : (ابن القلانسي ، ص : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٥) أنه سمى هكذا نسبة إلى موطنه جزيرة ابن عمر .

(٤) الضمير هنا عائد على ابن الأنباري .

وكان الأمير عماد الدين زنكي قد عبر الفرات ^(١) ، ووصل إلى مدينة حلب في أول شوال ، ثم توجه إلى حمص ، فحاصرها يوماً واحداً ، وتوجه نحو أطراف الشام ، وتسلم دُبَيْسًا ، وأطلق سِوْنَج — كما ذكرنا — وبلغه وفاة السلطان وهو بالقرَيْتَيْن ^(٢) — من عمل حمص — لأربع عشرة بقيت من شوال ، فسمع عمادُ الدين ودُبَيْسُ بْنُ صَدَقَةَ — ^(٧) وكان عنده ولدان للسلطان ^(٣) محمود — أحدهما أَلْب أرسلان الخفاجي ويكنى أبا طالب وهو الذي جعله ^(٤) السلطان أتابكه — وقد ذكرناه ^(٥) — والآخر ^(٦) عند دُبَيْس ^(٧) .

فأرسل الأمير عمادُ الدين إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطب ببغداد لأبي طالب أَلْب أرسلان بن السلطان محمود ، فاعتذر المسترشد بالله بأنه صبي ، وأن السلطان عهد بالسلطنة لولده داوود بن محمود — وهو بأصبهان — وقد وردت رسل الأطراف بالخطبة له ، ونحن منتظرون كتاب السلطان سَنَجَر بن ملكشاه ، فإنه عَمُّ القوم .

(١) في الأصل « الفرات » .

(٢) « القرَّيتان » قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سُخْنَةَ وَأَرْك ، أهلها

كلهم نصارى (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) في الأصل : « السلطان » وقد صححت كما بالمتن ليتضح المعنى .

(٤) الضمير هنا حائد على عماد الدين زنكي ، والمقصود أن السلطان جعل عماد الدين أتابكا

لابنه أبي طالب أَلْب أرسلان الخفاجي .

(٥) أنظر ماقات ، ص ٣٣

(٦) لم يذكر اسم الابن الثاني ، والمعروف أن السلطان محموداً كان له أولاد خمسة : أَلْب أرسلان وفروخ زاد ، وداود ، وهلك شاه الثاني ، ومحمد . أنظر القوائم الملحقة بكتاب (Zambaur) .

(٧) هذه الجملة لازالت مضطربة المعنى ، ولم أستطع تقويمها أكثر من ذلك ، فهي مما اعتاد ابن واصل زيادته عند النقل عن غيره رغبة في التعريف والايضاح .

ذكر الواقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله

وبين عماد الدين زنكي

لما مات السلطان محمود خطب بهمدان وأصفهان والجلال وأذربيجان لولده السلطان داوود ، وسار من همدان إلى رَمَكان (١) ، وكان عمه السلطان مسعود ابن محمد قد سار من جرجان ووصل إلى تبريز (٢) ، فاستولى عليها ، فسار إليه داوود في ذي [٢٧] القعدة من هذه السنة — أعني سنة خمس وعشرين وخمسة — ، وحصره بها ، وجرى بينهما قتال إلى سلخ الحرم سنة ست وعشرين وخمسة ، ثم اصطلحوا وتأخر داوود مرحلة ، وخرج السلطان مسعود من تبريز (٣) واجتمعت إليه العساكر ، وسار إلى همدان .

وكانت رسل داوود تقدمت في طلب الخطبة ، فأجاب الخليفة : « إن [الحكم في (٣)] الخطبة للسلطان سَنَجَر ، من أراد خُطْبَ له » وأرسل السلطان سَنَجَر : أن لا يأذن لأحد في الخطبة ، وأن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده ؛ وأرسل السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي يطلب مساعدته ، فوعده النصرة .

وسار السلطان سلجوق شاه — ومعه أتابكه قراجا الساقى صاحب بلاد فارس وخوزستان — في عسكر كشياف إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، فأكرمه الخليفة ،

(١) ضبطت هكذا بعد مراجعة ياقوت ، ولم يعرفها بأكثر من قوله إنها موضع ، وفي (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٧) أنه سار إلى زنجان لارمكان .

(٢) في الأصل : « تورين » ، والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٧) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير) للإيضاح ، وبلاحظ أن النص هنا يعود فيتنفق كثيراً ونص ابن الأثير .

واستحلفه لنفسه ؛ ثم وصل السلطان مسعود يطلب الخطبة ، ويتهدده إن منعهما ، فلم يُجبْ إلى ما طَلَبَ ، فنزل عباسيَّة (١) الخالص .

وبرز الخليفة وسلجوق شاه وقراجا الساقى عازمين على قتال مسعود ، وتوجه عماد الدين زنكى إلى بغداد — ومعه دُبَيْس بن صدقة — ، وكانت رسل السلطان سَنَجَر قد وردت إلى عماد الدين بتوليته شَحَنَكِيَّة بغداد ، وإقطاع الحِلَّة لدُبَيْس ، وبلغ الخليفة وقراجا الساقى وصول عماد الدين إلى المَعشوق (٢) ، فبهر قراجا إلى الجانب الغربى ، وتقدم إلى الملك سلجوق شاه بمرافقة أخيه السلطان مسعود إلى أن يفرغا من حرب عماد الدين ، وسار الخليفة في يوم وليلة إلى المعشوق ، فواقع عماد الدين زنكى فهرزمه ، وأسر كثيراً من أصحابه .

وسار عماد الدين إلى تكريت ، وعبر منها دجلة ، وكان الدزدار بتكرت يومئذ نجم الدين أيوب بن شادى — والد صلاح الدين يوسف — فأقام لعماد الدين المعابر (٣) ، فلما عبر أمن الطلب ، وسار لإصلاح بلاده ، فكان هذا الفعل من نجم الدين سبباً

(١) فى الأصل : « عباسية » والتصحيح عن ابن الأثير ، وقد ذكر ياقوت جملة مواضع تحمل اسم العباسية إحداها كانت محلة ببغداد بين الصراطين قرب المحلة المعروفة بباب البصرة وتنسب إلى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وقد كنت أحسبها هذه ، لولا أن الأستاذ المحقق الدكتور مصطفى جواد تفضل فكتب إلى : أن « عباسية الخالص » قرية على نهر الخالص فى الجانب الشرق من دجلة ، وقد ذهب اسم القرية مع كثير من قرى الخالص ، أما النهر فلا يزال من أنهار المقاطعات فى شرق بغداد ، وإني أتهز هذه الفرصة لأشكر الدكتور مصطفى جواد لتفضله بتعريف بعض المواقع العراقية التى استغمرت منه عنها .

(٢) عرفه (ياقوت : معجم البلدان) بأنه قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط البرية ، بينه وبين تكريت مرحلة ، عمره المعتمد على الله ، ولا تزال بقاياه قائمة حتى العصر الحاضر .

(٣) المَعْبَر والمَعْبَرَة — والجمع معابر — من أسماء السفن العربية ، وقد عرفه صاحب اللسان بأنه ما عُبِر به النهر من فُلْكَ أو سفينة أو قنطرة أو غيره . راجع كذلك : (ابن سيده : المخصص ، ج ١٠ ، ص ٢٦) ومخطوطتنا التى لم تطبع بعد (معجم السفن العربية) و (Kindermann Schiff im Arabischen. pp. 62, 102.)

للسعادة التي آلت به إلى أن صار ولده ملوك الأرض ، فلينظر العاقل إلى ثمرة الجميل وفعل الخير .

وسار السلطان مسعود من العباسية إلى الملكية (١) ، ووتعت الطلائع بعضها على بعض ، وآل الأمر [٢٨] إلى أن اصطاح الأخوان مسعود وسلجوق على أن تكون السلطنة لمسعود ، وسلجوق ولي عهده ، وأن العراق يكون للخليفة (٢) ، ونحالفوا على ذلك واتفقوا .

وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، ونزل سلجوق بدار الشنكية ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وخمسة .
وأما السلطان سنجر فإنه سار من خراسان إلى همدان — وصحبته ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد — مريداً تملكه ، لأنه كان قد لازمه ، فوصلا إلى الري ثم إلى همدان ، فلما بلغ ذلك الخليفة والسلطان مسعود ، تجهزا وسارا إلى لقائه ، ومعهما قراجا الساقى وسلجوق شاه ، ثم تأخر عنهما الخليفة خوفاً من عماد الدين زنكى ، لما بلغهم أنه على قصد بغداد ، فاستعد للمدافعة ، وجند الأجناد ، ومضى الباقون ، فكانت الواقعة بينهم وبين السلطان سنجر بغولان (٣) بقرب الدينوز ، فانكسر السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه ، وأخذ قراجا الساقى أسيراً ، فقتله السلطان سنجر صبراً ، وأحضر ابن أخيه السلطان مسعود ، فأكرمه ، وعاتبه على مخالفته ،

(١) لم أجد لها تعريفاً في المراجع الجغرافية ، وإنما ذكر لي الدكتور مصطفى جواد في خطاب منه أن « الملكية » ضيعة من ضياع الخالص بشرق دجلة قرب بغداد ، وقد ذكرها ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٦١٤ مع مواضع الجانب للشرق التي أغرقها دجلة .
(٢) في (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٨) : « وأن يكون العراق لوكيل الخليفة » .
(٣) في الأصل « بنولان » وفي (ابن الأثير) : « بعولان » ، ولم يشر ياقوت إلى أيهما ، وإنما ورد فيه « غولان » وعرفها بأنها موضع ولم يزد .

وأعاده إلى كَنْجَة (١) ، وأجلس ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد في السلطنة ، وأمر بالخطبة له في جميع البلاد ، وكانت هذه الواقعة في ثامن رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة .

ثم عاد السلطان سَنْجَر إلى نيسابور ، وكان السلطان سَنْجَر قد كاتب الأمير عماد الدين ودُبَيْس بن صَدَقَة ، وأمرها بقصد العراق ، فقصدا بغداد ، وبلغ الخليفة المسترشد ذلك ، فأمرع العود إليهما ، وعبر إلى الجانب الغربي ، وسار فنزل بالعباسية ونزل عماد الدين زنكي بالمنارية من دُجَيْل ، ثم التقيا في السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عَقْرَقُوف (٢) ، واقتتلوا قتالا كبيرا ، فحمل الأمير عمادُ الدين على ميمنة الخليفة ، — وفيها جمال الدين (٣) إقبال — فانهزموا ، وحمل نظر الخادم — وكان في ميسرة الخليفة — على [ميمنة] (٤) عماد الدين ودُبَيْس ، وحمل [٢٩] الخليفة بنفسه ، واشتد القتال ، فانهزم دُبَيْس ، ورأى الأمير عماد الدين تفرق الناس عنه ، فانهزم ، وقتل من المعسكر جماعة ، وأسر جماعة ، وبات هناك الخليفة ليلة ، وعاد إلى بغداد .

حكى الأمير مؤيد الرولة أسامة بن مرشدر بن علي بن سنقر في كتاب ألفه ، وذكر فيه شهامة الخليفة المسترشد بالله وشجاعته ، قال : « كان الإمام المسترشد بالله يلحق بالصدر الأول من سلفه في علو الهمة ، وحسن السياسة ، والإقدام العظيم ، فإنه لما التقى هو وعماد الدين زنكي بن آق سنقر في المصاف بعقرقوف وأنا حاضر المصاف ، ضرب له خيمة أطلس أسود ، ووضع له فيها تخت ، وجلس عليه ،

- (١) عرفها (ياقوت) بأنها مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أرمغان ، وهي من نواحي لرستان بين خوزستان وأصهان ، وأهل الأدب يسمونها جنزة .
- (٢) قرية من قرى دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ (ياقوت) . والذي ذكره (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩) أنهما التقيا بمحصن البرامكة . أنظر خريطة العراق الحديث
- (٣) في ابن الأثير : « جمال الدولة » .
- (٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

والخيل تطرد ، فكسر عسكر أتابك ، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فاستولى على كل ما فيه ، وانهزم أتابك زنكي إلى الموصل ، وذلك الإقدام العظيم كان سبب تلفه .

قلت : إن الخلفاء كان قد ضعف أمرهم من أيام المقتى بالله (١) ، واستولت عليهم الملوك ، خصوصاً في أيام المستنكى بالله (٢) ، فإن بنى بويه الديلم ملكوا العراق وغيرها من الممالك ، وصارت الخلفاء تحت حجرهم ، ثم ظهرت السلاطين السلجوقية ، فتغلبوا أيضاً وتحكموا ، وهلم جرا إلى أيام المسترشد ، فاتفق وقوع الخلف بين السلاطين السلجوقية ، واغتتم ذلك الخليفة المسترشد ، فكانت نفسه أبية ، وشجاعته عظيمة ، فجنّد الجنود ، وباشر القتال بنفسه ، وأدى ذلك إلى أن أسره السلطان مسعود ، وقتل في معسكره — كما سنذكره إن شاء الله تعالى — .

وبويع ببغداد لولده الراشد ، ووصل السلطان إلى بغداد ، فهرب الراشد ، وأقعد السلطان عمه المقتى ، وحكم عليه إلى أن مات السلطان مسعود ، ثم بعد ذلك قوى المقتى ، وملك العراق ، وقامت حشمة الدولة العباسية ، واستمرت قوتها إلى أن زالت بالتتار الملاحين سنة ست وخمسين وستمائة ، والمسترشد بالله شعر يدل [٣٠] على قوة نفسه وبعدهمته ، وهو :

أَنَا الْأَشَقَرُ الْمَوْعُودُ بِي فِي الْمَلَأَحِمِ وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بَغَيْرِ مُزَاحِمِ
سَتَبْلُغُ أَرْضَ الرُّومِ خَيْبِي وَتَنْتَهِي (٣) بِأَقْصَى (٤) بِلَادِ الصِّينِ بَيْضُ صَوَارِمِي

(١) حكم بين سنتي ٣٢٩ و ٣٣٣ (٩٤٠ — ٩٤٤) .

(٢) ولى بعده من ٣٣٣ إلى ٣٣٤ (٩٤٤ — ٩٤٦) .

(٣) في (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٧) : « وتنتهى » .

(٤) في الأصل : « بأقصا » .

وكان الأمير إبراهيم^(١) بن سُقْمَان بن أَرْثُقْ — صاحب حصن كيفا — لما سمع بقصد عماد الدين بغداد قد خرج من حصن كيفا نجدة للخليفة ، في جمع كثير ، وأغار على نصيبين .

ذكر منازل الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل

وفي العشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، حصر الإمام المسترشد بالله مدينة الموصل ، وكان السبب في ذلك ما تقدم من الفتنة بينه وبين عماد الدين ، فقصد باب الخليفة المسترشد — رحمه الله — جماعة من الأمراء السلجوقية ، وخدموه ، وقوى بهم لاسيما واتفق اشتغال السلاطين بالخلف الواقع بينهم ، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفراييني — الواعظ — إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة ، وزادها أبو الفتوح — زيادة في الحجة — ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين زنكي ، وأهانته ولقاه ما يكره .

ولما كان في شعبان سار الخليفة عن بغداد في ثلاثين ألف مقاتل ، فلما قرب من الموصل فارقها عماد الدين زنكي ببعض عسكره ، وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جُقر — دزدارها والحاكم في دولته — فنازلها الخليفة ، وضيق على من بها ، وسار عماد الدين إلى سنجار ، وكان يركب في كل ليلة ، ويقطع الميرة عن العسكر ، ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكّل به ، فضاقت على العسكر الأمور ، وتواطأ جماعة من الجصاصين^(٢) بالموصل على تسليم البلد ، فسعى بهم ،

(١) حكم حصن كيفا بعد أبيه سُقْمَان ، وذلك من سنة ٩٨٠ : إلى سنة ٥٠٢ ؛ وقد ظل حصن كيفا تحت حكم الأرتقيين إلى أن استولى عليه الملك الكامل محمد الأيوبي في سنة ٦٢٩ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 228, 230) و (ابن القلانسي ، ص ١٣٧ — ١٣٨ نقلًا من الفارقي) .

(٢) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢) : « الجصاصين » .

فأخذوا وُضُلبوا ، ودام الحصار نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر الخليفة منها بشيء ، فعاد إلى بغداد ، وقيل كان سبب رحيله أنه بلغه أن السلطان مسعوداً (١) قصد بغداد ، فعاد لذلك ، والله أعلم .

استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة وأخذها من عماد الدين

وفي هذه السنة — أعنى سنة [٣١١] سبع وعشرين وخمسة — قصد شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري — صاحب دمشق — مدينة حماة ، وكان والده تاج الملوك قد توفي سنة ست وعشرين ، وجلس [هو] في الأمر مكانه .
وكنا قد ذكرنا أن حماة كانت لبهاء الدين سيونج — أخى شمس الملوك — وأن عماد الدين قبض عليه وأخذ منه حماة ، فلما نزل شمس الملوك على حماة حاصرها ، وذلك في العشر الآخر من رمضان من هذه السنة ، وكان الوالى بها ، وهو سنقر — غلام صلاح الدين محمد بن الياغسياني (٢) — مقطوعاً قد سمع الخبر ، فاستكثر من الرجال والذخائر ، فزحف إليها شمس الملوك يوم العيد ، ثم عاد عنها ذلك اليوم ، وزحف إلى البلد من جميع جوانبه ، فملكه قهراً ، وأمن أهله ، وحصر القلعة ، ولم تكن يومئذ حصينة على ما هي اليوم ، وإنما عمرها بعد ذلك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فعجز الوالى عن حفظ القلعة ، فسلمها إليه ، ثم رحل عنها إلى شيزر فحصرها ، ونهب بلدها ، فصانعه صاحبها ابن منقذ (٣) بمال ، فرجع .

(١) في الأصل : « مسعود » .

(٢) في الأصل : « الباغستاني » ، أنظر ماسبق هنا ، ص ١٩ ، هامش ٢

(٣) كان صاحب شيزر في تلك السنة هو مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ — والد المؤرخ المشهور أسامة — ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٥٣١ ؛ أنظر : (محمد أحمد حسين : أسامة بن منقذ ، ص ٧ وما بعدها) و (Zambaur, Op. Cit, p, 104)

ذكر الوقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا

سنة ثمان وعشرين (١) وخمسمائة

اجتمع الأمير عماد الدين أتابك زنكي والأمير حسام الدين تيمرتاش بن إيلغازي ابن أرتق [صاحب ماردین (٢)] وقصدا مدينة آمد وحاصراها ، فأرسل صاحبها — وهو [سعد الدولة أبو منصور ايكلكدي بن فخر الدولة إبراهيم (٣)] إلى الأمير ركن الدين [داود (٤)] [بن سُقْمَان بن أرتق يستنجده ، فجمع العساكر ، وسار ليرحلهما عنها ، فالتقوا على باب آمد ، واقتتلوا ، فانهزم ركن الدين ، وعاد مغلولاً ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة ، وأقام عماد الدين [زنكي] وحسام الدين [تيمرتاش] على آمد محاصرين لها ، وقطعا الشجر ، وشعنا البلد ، ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض .

(٥) استيلاء عماد الدين على قلعة الصور

ثم قصد عماد الدين قلعة الصور من ديار بكر ، فحاصرها وضايقها ، ثم ملكها في رجب من هذه السنة (٥) .

(١) في الأصل : « وخمسين » وهو خطأ واضح .

(٢) في الأصل : « يرتق » ، وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

(٣) في الأصل : « ابن إبراهيم بن كيكلكدي » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (Zambaur)

Op. Cit. P. 139) وقد حكم سعد الدولة هذا حصن آمد من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٣٦

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) للإيضاح .

(٥) ما بين القوسين ورد في الهامش وأشير إلى مكانه في المتن بعلامة .

استيلاء عماد الدين على قلاع [الأكراد^(١)] الحميدية^(٢)

وفي هذه السنة تملك عماد الدين قلعة العقر^(٢)، وقلعة شوش^(٣)، وغيرها، وكان عماد الدين قد أقرّ الأمير عيسى الحميدى — صاحب هذه القلاع — عليها، لما ملك البلاد، فلما نازل الخليفة المسترشد بالله الموصل، نزل عيسى إلى خدمة الخليفة، وحشد له [٣٢] الأكراد، فلما رحل الخليفة أمر عماد الدين بمنازلة القلاع، فنوزلت وملك في هذه السنة.

استيلاء عماد الدين على قلاع الهكارية^(٤)

كان صاحب هذه القلاع الأمير أبا الهيجاء بن عبد الله وكانت له أشب^(٥) والجديدة^(٦) وتوشى^(٧) وجبل لهيجة، فأرسل عماد الدين من استحلفه وحمل إليه مالا، ثم سافر عماد الدين، وأخرج معه من أشب ولده أحمد — وهو والد الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الذى سنذكره فى أخبار صلاح الدين رحمه الله —

- (١) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير، ج ١١، ص ٥) للإيضاح.
 (٢) بغير ضبط فى الأصل، وقد ذكر (ياقوت) أكثر من مكان كان يسمى بالعقر، أحدها هو المقصود هنا، وعرفه بقوله: المقر قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شرق الموصل، تعرف بعقر الحميدية، أى أنها تنسب إلى الحميدية وهم طائفة من الأكراد.
 (٣) شوش قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قيل هى أعلى من المقر وأكبر ولكنها فى القدر دونها. (ياقوت: معجم البلدان).
 (٤) طائفة من أكبر طوائف الأكراد. (انظر عباس العزاوى: العشائر الكردية).
 (٥) بدون ضبط فى الأصل، وهى قلعة قديمة للأكراد، عمرها عماد الدين زكى فى سنة ٥٣٧ هـ فنسبت إليه وسميت منذ ذاك بالهادية، وهى — كما وصفها ياقوت — قلعة حصينة مكيئة فى شمالى الموصل، ومن أعمالها.
 (٦) ضبطت بعد مراجعة ياقوت حيث عرفها بأنها قلعة فى كورة بين النهرين التى بين نصيبين والموصل، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا.
 (٧) فى الأصل: «توشى» وفى (ابن الأثير): «نوشى»، وقد ضبطت بعد مراجعة: محمد أمين زكى: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٥٤).

(٦) ضبطت بعد مراجعة ياقوت حيث عرفها بأنها قلعة فى كورة بين النهرين التى بين نصيبين والموصل، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا.
 (٧) فى الأصل: «توشى» وفى (ابن الأثير): «نوشى»، وقد ضبطت بعد مراجعة: محمد أمين زكى: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٥٤).

وإنما فعل ذلك خوفاً من أن يتغلب عليها ، وأعطاه توشى ، واستخلف أبو الهيجا بأشب كرديا يقال له باو الأرجي^(١) .

ولما قدم أبو الهيجا على عماد الدين توفى عنده بالموصل ، فسار من توشى إلى أشب لملكها ، فمنعه باو وأراد حفظها لولد صغير لأبى الهيجا اسمه على ، ثم نازل عماد الدين أشب فملكها ، وذلك أنه استجرحهم^(٢) لما نازلهم ، وانهمز من بين أيديهم حتى أبعادوا عن القلعة ، ثم عطف عليهم فانهزموا ، فوضع السيف فيهم ، وأكثرت القتل والسبي ، ثم سار عنها .

وفى غيبته استولى نائبه نصير الدين [جقر^(٣)] على جبل لهيجة وتوشى وقلعة الجلاب^(٤) ، وحاصر جميع حصون الهدبانية^(٥) : وهى قلعة الشعبانى^(٦) ، وقرح ، وكوآشى^(٧) ، والزعفرانى ، وغيرها^(٨) فملك الجميع ، واستقام الجبل ، وأمنت الرعايا بأمن الأكراذ ، فإنهم كانوا معهم فى ضر عظيم .

- (١) فى الأصل : « باد » وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) .
- (٢) الضمير هنا عائد على أهل أشب ، وصيغة ابن الأثير أكثر وضوحاً وهى : « وسبب ملكها أن أهلها نزلوا كلهم إلى القتال فتركهم زنى حتى قاربوه واستجرحوا حتى أبعادوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا . . الخ » .
- (٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .
- (٤) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، قد ذكر أن جلاب اسم نهر بمدينة حران التى بالجزيرة مسمى باسم قرية يقال لها جلاب .
- (٥) فرقة أخرى من أكبر فرق الأكراذ .
- (٦) ذكرها (محمد أمين زكى : خلاصة تاريخ السكردوكردستان ، ص ١٥٤ و ٣٩٠) وذكر لى الدكتور مصطفى جواد فى خطابه أن مؤلف (إجابة السائل) المخطوط ببائس ذكرها باسم « الشعبانية » .
- (٧) فى ابن الأثير : « كوشر » ، وما هنا هو الصحيح ، والضبط عن ياقوت ، حيث ذكر أنها قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لراجل واحد وكانت قديماً تسمى « أودمشت » .
- (٨) أردف ابن الأثير هذه الاسماء بقوله : « وهى حصون الطهرانية » ، والطهرانية قبيلة من قبائل الأكراذ .

وباقى بلاد الهكَّاريَّة فتحتها قَرَّاجَانَجْنَا (١) صاحب العمادية بعد قتل عماد الدين وهذا قراجا أقطعه الأمير زين الدين بلاد الهكَّاريَّة بعد زنكى ، ولما فتح عماد الدين آشب بنى قلعة العمادية ، وهى التى كانت تسمى قلعة الجَلَّاب ، وإنما سميت العمادية (٢) نسبة إلى عماد الدين .

منازلة عماد الدين دمشق

وسبب ذلك أن صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بورى بن طفتكين كان ظالماً سيئ السيرة إلى الغاية القصوى ، مع بخل زائد ودناءة نفس ، فكرهه أصحابه وأهله ورعيته ، ولما استشعر بغض أصحابه له ، وخاف منهم راسل الأمير عماد الدين زنكى يحثه على سرعة [٣٣] الوصول إلى دمشق ليسلمها إليه ، وأخلى (٣) المدينة من الدخائر والأموال ، وحملها إلى صرخد ، وتابع الرسل إلى عماد الدين يحثه على الوصول ، ويقول : « إن أهملت المحجى سلمت المدينة إلى الفرنج » .

وتحقق ذلك أصحابه ، فواطأوا أمه على قتله فقتلته وانضاف إلى ذلك سبب (٤) آخر هو مذكور فى أخباره ، ولما قتلته أمه أقامت فى الأمر بعده أخاه شهاب الدين محمود بن بورى ، وحلفت الناس له .

ووصل عماد الدين زنكى إلى دمشق ، ونازلها فى جمادى الأولى [سنة تسع وعشرين وخمسمائة] (٥) ، وكان لما عبر الفرات أرسل رسلاً فى تقرير

(١) كذا فى الأصل ، وهو فى ابن الاثير : « قراجا » فقط ، ولم أتمكن من ضبط الاسم الثانى .

(٢) هذا يختلف مع تعريف ياقوت للعمادية وآشب ، انظر ما فات ، ص ٥٥ ، هامش هـ .

(٣) فى الأصل : « اخلا » .

(٤) ذكر هذا السبب الآخر (ابن الاثير : ج ١١ ، ص ٨) وخلاصته أن أم شمس الملوك

اتهمت باتصالها بأحد القواد فأزعم شمس الملوك قتلها فأسرعت هى بقتله .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الاثير للايضاح .

قواعد التسليم ، فأوا الأمر قد فات فسار إلى دمشق فحصرها ، وكان نزوله أولا من شمالها ، ثم انتقل إلى ميدان الحصى^(١) ، وزحف وقاتل ، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة ، وكان القائم بأعباء هذه الحروب معين الدين أئثر^(٢) مملوك طفتكين ، فقام في حفظ البلد قياما مشهودا .

وبينا عماد الدين يحاصر البلد إذ ورد عليه أبو بكر بن بشر الجزرى رسولا من الراشد بالله بن المسترشد ، ليتوجه إليه وينجده على السلطان مسعود ، ويأمره بصلح صاحب دمشق ، والرحيل عنها ، فصالحهم ، وخطبوا بدمشق للملك ألب أرسلان بن السلطان محمود ، وكانت الخطبة له في جميع بلاد عماد الدين .

ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله

حكى الأمير مؤيد الدين سريد الرواس أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأنبارى^(٣) — كاتب الانشاء — قال :

كان وقع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين الخليفة المسترشد بالله خلف ، وخرج الخليفة لقتاله مرتين وكُسِر ، فلما مات السلطان محمود وولى السلطنة أخوه السلطان مسعود بن محمد ، استطال نوابه بالعراق ، وعارض الخليفة في إقطاعه ، ف وقعت بينهما وحشة ، فتجهز المسترشد بالله وعزم على الخروج ، وجدَّ في ذلك ،

(١) في الأصل : « الحصا » .

(٢) في الأصل : « أئثر » ، انظر ما فات ص ٩ ، هامش ٤

(٣) حاش ابن الأنبارى بين سنق ٤٦٩ و ٥٥٨ (١٠٧٦ — ١١٦٣) ، وأقام كاتباً للانشاء نيفا وخمسين سنة ، وناب في الوزارة ، وبعث رسولا إلى الملك سنجر وغيره ، وكان بينه وبين الحريرى صاحب المقامات مكاتبات ومراسلات . أنظر ترجمته في : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٥٦٤ ؛ والزركلى : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٩١٩) ، ولا يعرف عن ابن الأنبارى أنه ألف في التاريخ أو غيره ، وأغلب الظن أن هذا الخبر روى عنه شفاها .

فدخل إليه الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبي^(١) وكال الدين^(٢) صاحب الخزن^(٣) ، وأنا معهما ، وكان المسترشد قد طرد نواب السلطان عن البلاد ، ورتب صاحب الخزن للنظر في المظالم^(٤) ، فقال له الوزير شرف الدين : « يا مولانا ، في نفس المملوك [٣٤] شيء ، فهل يؤذن له في المقال ؟ » فقال : « قل » ، فقال : « إلى أين نمضى وبمن نعتضد وإلى من نلتجئ ومقامنا ببغداد أمكن لنا ، ولا يقصدنا أحد ، والعراق فنيه لنا الكفاية ، فإن الحسين بن علي — عليهما السلام — لما خرج إلى العراق جرى عليه ما جرى ، ولو أقام بمكة ما اختلف عليه أحد من الناس ؟ » .

فقال لى الخليفة : « ما تقول يا كاتب ؟ » فقلت : « يا مولانا ، الصواب المقام ، وما رآه الوزير فهو الرأى ، ولا يقدم علينا أحد ، وليت العراق يبقى لنا » .

فقال لصاحب الخزن : « يا وكيل ، ما تقول ؟ » فقال : « في نفسى ما في نفس مولانا » . فأنشد الخليفة قول المتنبي :

وإذا لم يكن من الموت بدءً فمن العجز أن تموت جباناً

ثم إنه تجهّز وجمع وحصل في خدمته جماعة من أمراء الأتراك ، فأعطاهم مالا عظيما ، ثم خرج ، وخرجنا معه ، فلما قاربنا همدان ، وقع المصاف بين الخليفة

(١) هو وزير المسترشد والمقتدى ، انظر ترجمته في : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧١ ، ٢٧٥) .

(٢) في الفارق (همامش ابن القلانسي ، ص ٢٥٠) : « جمال الدين طائفة » .

(٣) لم أعثر على تعريف لهذه الوظيفة ، وإنما سمى متوليها في (ابن الساعى : الجامع المختصر) بصدر الخزن المعمور وذكر هناك في أكثر من موضع أنه عند توليها كان يخلع عليه قيس أطلس نفطى وبقير بمغربي ، ويحمل وراءه ثلاثة أسياف على أيدي مماليك ترك رجاله ويركب في جمع كثير من حجاب الديوان العزيز وحاشية الخزن المعمور (المرجع المذكور ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٢٣٠) .

ويبدو من النص هنا أنها كانت وظيفة كبيرة تلى في الأهمية وظيفة الوزارة وكتابة الانشاء .

(٤) للتعريف بهذه الوظيفة انظر : (الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٦٤ ، والقله شمدى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

المسترشد بالله والسلطان مسعود بن محمد بمكان يسمى وادى مرك^(١) — وهو قريب من جبل بهستون^(٢) بالقرب من همدان — ، فلما اصطفت العساكر فرًّا من معسكرنا جميع الأتراك ، ومالوا إلى ناحية السلطان ، ثم وقع القتال ، فانهزم الخليفة ومن بقى معه ، ونهب عسكره ، وقُبِضَ على الخليفة وأرباب المناصب ، وحمل الوزير وصاحب الخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهان^(٣) — بالقرب من قزوین والرى — وبقي الخليفة مع السلطان وسار معه في بلاد أذربيجان إلى أن وصلوا إلى مراغة ؛ وهجم على الخليفة ثلاثة نفر من الملاحدة الباطنية ، وهو في خيمته ، فقتلوه ، وقتلوا معه [أبا عبد الله^(٤)] ابن سكينه — وكان يصلى به — ، وذلك يوم الخميس لأربع بقين من ذى القعدة^(٥) سنة تسع وعشرين وخمسمائة^(٦) .

(١) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠) : « دایم رج » ولم يرد لها ذكر في ياقوت .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قرية وجبل ، أما القرية فبين همدان وحلوان ، تبعد عن همدان أربع مراحل ، أما الجبل فرتفع ممتنع لا يرتقى إلى ذروته لأنه أملس كأنه منحوت .

(٣) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوین وزنجان وأهر ، ونص على أنه رآها فوجدها من أحسن القلاع .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير وابن الجوزى .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٤٩) : (وابن الأثير ،

ج ١١ ، ص ١٠) أنه قتل يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة .

(٦) انفرد ابن واصل بنقل هذا الحديث — هنا وفيما يلي — عن ابن الأنبارى كاتب

إنشاء المسترشد ، ولهذا الحديث أهمية خاصة لأن ابن الأنبارى كان شاهداً عياناً لهذه الحوادث جميعاً كما أنه شارك فيها ، ولم يرد لهذا الحديث أى ذكر أو إشارة في كل المراجع الهامة التى كتبت

عن هذا العصر والتى أشير إليها دائماً في هذه الحواشى ، وهى المنتظم لابن الجوزى ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ؛ وإنما استطعت أن أحقق

أنه نقله عن تاريخ الفارقى ، فقد نقل نصه عنه آمدرود في هوامش كتاب (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢٥٠ — ٢٥١) وعليه عارضنا نص ابن واصل لتصحيحه ، وقد نص الفارقى

على أن هذا الحديث جرى بينه وبين ابن الأنبارى ، قال : « ولقد سألت السعيد مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الأنبارى رحمه الله في سنة ٥٣٤ ببغداد حين نزلت إليه في هذه السنة

عن حال المسترشد والوقعة وما جرى ، فقال رضى الله عنه : إلخ » ثم روى الحديث كما جاء هنا .

قلت (١) : وصل في اليوم الذي قتل فيه الخليفة رسول إلى السلطان مسعود من عمه السلطان سنجر شاه بن ملكشاه — صاحب خراسان — برسالة ظاهرها التقدم إليه بتعظيم الخليفة ورده إلى سرير ملكه ، وباطنها التدمير عليه والراحة منه ، ووردت الملاحظة صحبة الرسول ، فلما قتل الخليفة أظهر [٣٥] السلطان مسعود الجزع العظيم والحزن الكثير ، ودفن الخليفة بمراغة .

ووصل الخبر بذلك إلى العراق ، فحزن الناس عليه حزنا عظيما وبويع بالخلافة ولده الراشد بالله ببغداد ، واستقرت خلافته بها ، ثم قدم السلطان وضرب عنق دُبَيْس ابن مَرْيَد صاحب الحلة .

قال مؤيد الدين سريبر الدولة بن الانباري : (لما قُتل الخليفة المسترشد بالله أحضرنا السلطان مسعود — وكان تقيب العلويين قد مات بقلعة مَرْجَهَان ، ودُفِنَ هناك — فلما حضرنا عنده ، قال : « ما الرأي وما التدبير في أمر الخلافة ، ومن ترون ؟ » فقالوا : « يامولانا ، الخلافة لولى العهد — يعنى الراشد بالله — ، وقد بايعه الناس ببغداد ، وجلس واستقر ، وبويع له من قبل قتل أبيه بولاية العهد ، وبويع له الآن بالخلافة » . فقال السلطان : « ما إلى هذا سبيل ، ولا أقره عليها ، فإنه يحدث نفسه بالخروج مثل أبيه المسترشد ، ومن حين تولى أبيه لم يترك الخروج علينا ، كان قد خرج على أخى محمود مرتين ، وعلى مرة ، وهذه أخرى ، وتم عليه ماتم ، وبقيت علينا شناعة عظيمة وسبة إلى آخر الدهر ، فإنه يقال : قتلوا الخليفة ، وهم كانوا السبب في عود الخلافة إلى هذا البيت ، ولا أريد يلى الأمر إلا رجل لا يدخل نفسه في غير أمور الدين (٢) ، ولا يجند ، ولا يجمع ولا يخرج على

(١) هذا تعليق من المؤلف قطع به حديث ابن الانباري ، وسيعود إليه مرة ثانية .

(٢) هذا نص واضح يدل على مبلغ ما وصلت إليه مكانة الخليفة العباسي في ذلك العهد السلجوقي أن « لا يدخل نفسه في غير أمور الدين » .

ولا على أهل بيتي ، وفي دار الخلافة جماعة ، فاعتمدوا على شيخ منهم صاحب عقل ورأى وتدبير ، يلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ، ولا يخرج من داره ؛ ولا نُعَرِّجُوا عن هارون بن المقتدى بأمر الله ، فهو شيخ كبير ، ولا يرى الفتنة ، وقد أشار به عَمِي سَنَجَر .

وكان في دار الخلافة في ذلك الوقت سبعة من أولاد المقتدى بأمر الله ، وهم أعمام المسترشد بالله بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله ، وبقى من السبعة من هو حي إلى سنة نيف وخمسين وخمسةائة ؛ وكان في الدار من أولاد المستظهر بالله — أخوة المسترشد بالله — سبعة ، وهم : الأمير أبو عبد الله محمد ، وأبو طالب ، وأبو نصر ، وأبو القسم ، وأبو علي ، وإسماعيل ، ويحيى ؛ ولهم أولاد جماعة ؛ وكان للمسترشد أولاد جماعة ، منهم الراشد بالله ، وللراشد نيف وعشرون ولداً ، أكبرهم [٣٦] حملت أمه به وعمر الراشد تسع سنين ، وهذا من أعجب الأشياء ؛ فحكى عن من كان يدخل إلى دار الخلافة ، ويطلع على أسرارهم أن الخليفة المسترشد أعطى لولده الراشد — وعمره أقل من تسع سنين — عدة جوارٍ ، وأمرهن أن يلاعبنه ويمكّننه من أنفسهن ، وكان فيهن جارية صفراء حبشية ، فحملت من الراشد ، فلما ظهر الحمل ، وبلغ ذلك المسترشد أنكره ، فأحضرها وتهدها ، فقالت : « والله ما تقدم إلىَّ سواء ، وأنه قد بلغ الحلم » ، فسأل عن ذلك بقية الجوارى ، فقلن مثل ذلك ؛ فأمر أن تُحمَلَ الجارية قطناً ، ثم وطئها الراشد ، فلما قام عنها أخرج القطن والمنى عليه ، وفعل ذلك ببقية الجوارى ، فخرج وعليه المنى ، ففرح المسترشد بذلك ، ووضعت الجارية ابناً ، فسماه المسترشد « أمير الجيش » ، وسر به سروراً شديداً .

وهذا لم يسمع بمثله إلا في الحجاز ، فإنه قيل إن نساء تهامة يحضن لتسع ، وتبلغ صبيانها لتسع ، وروى أن عمرو بن العاص كان أكبر من ابنه عبد الله بإثني عشر .

قال ابن الأثير: « وأرسل السلطان مسعود إلى عمه السلطان [سنجر] (١) يستشيريه فيمن يولى الخلافة ، فأرسل إليه يقول : « لا تولى إلا من يضمه الوزير وصاحب الخزن وابن الأنباري » ، فلما وصل السلطان إلى همدان اجتمع بنا ، وأشار بهارون بن المقتدى ، وعرفنا ما أمر به عمه السلطان سنجر ، فقال الوزير : « إذا كان الأمر يلزمنا ، فنحن نولى من نريد ، وهو الزاهد الدين الذي ليس في الدار مثله » ، فقال السلطان : « من هو ؟ » فقال : « الأمير أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله » ، فقال : « وتضمن ما يجري منه ؟ » فقال الوزير : « نعم » ، وكان الأمير [أبو] (١) عبد الله صهر الوزير على ابنته ، فإنها دخلت يوما الدار في خلافة المستظهر بالله ، فراها الأمير أبو عبد الله ، فطلب من أبيه تزويجها ، فزوجه بها ، فدخل بها وبقيت عنده ، ثم توفيت ، فقال السلطان : « ذلك إليكم » ، وكنتموا الحال لثلاث يشهر الأمر ، فيقتل الراشد بالله عمه الأمير أبا عبد الله ، ثم رحل السلطان والجماعة نحو بغداد (٢) .

وأما الراشد فإنه لما بويغ له ببغداد بالخلافة [٣٧] بعد مقتل أبيه المسترشد بالله . أرسل إلى الأمير عماد الدين زنكي بن آق سنقر يستدعيه لنجدة ، وضمن له أن يكون السلطنة والملك للملك ألب أرسلان بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي عند أتابك ، وأن تكون أتابكية السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين ، فوردت الرسالة على عماد الدين زنكي بذلك ، وهو بظاهر دمشق محاصرها ، وبها شهاب الدين محمود بن بوري ، فصالحه عماد الدين زنكي ، ورحل عنها ، ووصل إلى حماة ، وبها شمس الخواص اليتاش (٣) — نائب صاحب دمشق — وكان قد نزع يده من طاعة صاحب دمشق ،

(١) ما بين الحاصرتين عن الفارق (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥١ ، الهامش) .

(٢) بهذا اللفظ ينتهي حديث ابن الأنباري كما رواه الفارق وعنه ابن واصل .

(٣) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي ، ص ٢٤٨) : « شمس الخواص » فقط .

فالتجأ إلى عماد الدين ، قبض عليه عماد الدين ، وأخذ منه حماة ، وسلمها إلى صاحبه صلاح الدين الياغيساني ، فاستناب فيها ولده شهاب الدين أحمد .

ثم توجه عماد الدين زنكي إلى بغداد لنصرة الراشد بالله ، وورد إلى بغداد جماعة من ملوك الأطراف متفقين على قتال السلطان مسعود ، ونصرة الراشد ، وهم : السلطان داود بن محمود (١) بن ملكشاه — صاحب أذربيجان — ، وبرنقش — صاحب قزوین — ، والبقش الكبير — صاحب أصفهان — ، وصدة بن دئيس — صاحب الحلة — الذي قتل السلطان أباه دئيساً ، ومعه عنتر بن أبي العسكر ، يدبره — لصباه — وورد أيضاً ابن الأحمدلي ، وانضاف إلى هؤلاء مقدمو (٢) عساكر بغداد ، وهم : كج أبة ، وطر نطاي ، وغيرهما ، واضطربت بغداد ، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة .

وأمر الخليفة أن يخطب بالسلطنة بعده للسلطان داود ، وتحالف الخليفة والسلطان داود والأمير عماد الدين زنكي ، وأرسل الخليفة الراشد إلى عماد الدين ثلاثين (٣) ألف دينار ، ووصل بعد ذلك سلجوق شاه بن محمد — أخو السلطان مسعود — إلى واسط ، وقبض على الأمير بك أبة ، ونهب ماله ، فأنحدر إليه عماد الدين زنكي ، فدفعه عنها ، ثم اصطالحا ، وعاد عماد الدين إلى بغداد .

(١) في الأصل : « محمد » والصحيح ما ذكرناه .

(٢) في الأصل : « مقدمين » .

(٣) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤) : « مائتي ألف دينار » . ولاحظ أن نص ابن واصل يموه فينتفق ونص ابن الأثير ، وأغلب الظن أن المؤرخين ينقلان عن الفاروق .

ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد

وهروب الراشد بالله وعماد الدين زنكي إلى الموصل

ثم عبر الأمير عماد الدين زنكي إلى خراسان ، وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود ، وسار السلطان داوود [٣٨] نحو طريق خراسان ، وأظهر أنه يمضي إلى مراغة ، ثم عاد عماد الدين إلى بغداد ، ^(١) وبرز الراشد بالله إلى ظاهر بغداد أول شهر رمضان سنة ثلاثين وخمسمائة ، وسار على طريق خراسان ثلاثة أيام ، ثم عاد ونزل عند جامع السلطان ، ثم دخل بغداد ، وراسل العسكر وسائر الأمراء ، وأمرهم بالعود ، فإدوا ، ونزلوا في الخيام ، واتفقت كلمتهم على قتال السلطان مسعود .

ثم قدم السلطان مسعود في العساكر الكثيرة إلى بغداد ، ونزل بالملكية ، وشارف بعض العسكر البغدادى عسكره ، وطاردوهم ، ثم نزل السلطان بغداد ، وحاصرها نيفا وخمسين يوماً ، فلم يظفر بطائل ، فعاد إلى النهروان عازماً على العود ، فوصله طرنتاي — صاحب واسط — ، ومعه سفن كثيرة ، فعاد إليها ، وعبر إلى غربي دجلة ، واختلفت كلمة العساكر الذين ببغداد ، وعاد السلطان داوود إلى بلاده .

ولما أحس الخليفة الراشد بالله بقوة السلطان مسعود ، وعلم أنه لا بد أن يولى الخلافة غيره جمع الأمراء من أهل بيته — الذين هم في الدار — ، وجمعهم في سرداب ،

(١) هنا تبدأ نسخة س ، فقد نص كاتبها على أنه سيبدأ الكتاب بالتأريخ لحوادث سنة ٥٣٠ هـ ، غير أن نص س في أوله مختصر كثيراً عن نص ك . وفيما يلي نص السطور الواردة في (ا ب) من نسخة س وهي المقابلة للفقرة المذكورة هـ بين الرقن : « سنة ثلاثين وخمسمائة ، وما وقع فيه (كذا) من الحوادث والاخبار : استهلكت هذه السنة والخليفة هو المقتدى بأمر الله ابن المستظهر بالله ، وساطان الوقت هو السلطان مسعود زنكي (كذا) ؛ قال بدر الدين بن الأتباري : « في هذا العام برز الراشد بالله لظاهر بغداد ، وسار على طريق خراسان ثلاثة =

وتقدم بأن يطبق عليهم ، فحكى أبو القاسم ^(١) على — المعروف بحاجب الباب ^(٢) — :
 « أنه لما جمعهم الراشد في السرداب استدعاني ، وأشار إلى سيف بين يديه ، وقال :
 « يا علي ، خذ هذا السيف » وأخذ بيده سيفاً آخر ، وقال : « إحدرك أن يسبق سيفي
 سيفك ، فإنني أريد أن أخرج كل من في السرداب ، وأقتل الجميع ، حتى لا يبقى
 من يصلح للخلافة ، فإن هؤلاء ربما دخلوا ولوا غيري » ، ثم أمر بفتح السرداب ،
 وإذا الخبر قد جاءه أن عماد الدين أتابك زنكي قد هرب ونهب الحرم الطاهري ^(٣) ،
 وتوجه إلى الموصل ، فرمى السيف من يده ، ودخل الدار ، وأخرج معه من الجواهر
 ما لا يعرف قيمته ، وأعطاني مثل ذلك ، وأخرج معه [قاضي القضاة ^(٤)] الزينبي ،
 وجلال الدين أبا الرضا بن صدقة ، — وكان قد استوزره — وخرجتُ معه ، ولحقنا
 بعماد الدين زنكي على طريق الموصل ، ووصل الراشد ، وصحبته عماد الدين زنكي
 إلى الموصل .

= أيام ، ورجع ثانياً ، وكاتب المساكر ، وأمرهم فعادوا ، وجاء السلطان مسعود إلى بغداد
 وحاصرها سبع (كذا) وخمسين (؟) ، ثم رجع إلى المروان واستعد ، وطاد فعل بها الديج ،
 فلما أحس به الراشد ، قام وجمع الأمراء في سرب (كذا) وقتلهم ، قال أبو القاسم المعروف
 بحاجب الباب : « وكنت عنده إذ ذاك — فأحلفني ، ومضيت إلى منزلي ، وأرسل ثانياً وطابني ،
 وقال : أما تدري أن المقتي مخبأ في بيت الرجل الذي كان عندما ؟ »

هذا هو نص س المقابل لهذه الفقرة هنا ، والفرق واضح بينهما إيجازاً وتفصيلاً ، وبهناية
 النص تنتهي ص (اب) ، وهناك سقط بينها وبين أول ص (١٢) فان المعنى غير متصل ،
 أنظر مايلي ، ص ٦٩

(١) مما يؤكد ترجيحنا السابق أن تاريخ الفارق هو المرجع الذي يأخذ عنه كل من ابن
 الأثير وابن واصل أن هذه القصة لم ترد في ابن الأثير ، وإنما نقلها آمدي عن الفارق
 في (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٩ — ٢٦١ ، الهوامش) . ولقد نص الفارق
 على أن هذه القصة مما حدثه به زين الدولة أبو القاسم على حاجب الباب .

(٢) في الأصل : « الظاهري » وفي الفارق (الطاهر) ؛ وما هنا عن (ياقوت : معجم
 البلدان) حيث ذكر أنه بأعلى مدينة السلام بغداد في الجانب الغربي ، منسوب إلى طاهر بن الحسين ،
 وبه كانت منازلهم ، وكان من لجأ إليه آمن ، فلذلك سمى الحرم وكان أول من جعلها حريماً
 عبد الله بن طاهر بن حسين .

(٣) ما بين الحاصرتين عن الفارق .

ذكر البيعة بالخلافة

للمقتفى لأمر الله بن المستظهر بالله

[٣٩] قال مؤيد الدين بن الأثير^(١) . كاتب الانشاء : — « لما كان هذا اليوم — وهو يوم الأحد سابع عشر^(٢) ذى القعدة — من هذه السنة — أعنى سنة ثلاثين وخمسمائة — مضى الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبي إلى دار السلطان ونحن معه ، وأخذ السلطان خط الوزير وخطوطنا بالضمان ، ثم صرنا إلى دورنا ، وأصبحنا يوم الاثنين فحضرنا عند الأمير أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وتحدث الوزير معه ، وتحدثنا معه ، وشرطنا عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان ، وأعلمناه أننا قد ضمننا للسلطان جميع ما اقترحه علينا ، فرضى بذلك ، وانفصلنا عنه ، ومضينا إلى السلطان ، وأعلمناه ما جرى ، وأنه رضى بما اشترطنا عليه ، فقال السلطان : « إذا كان كما قلتم فبايعوه » ، فلما كان الغد صعدنا إلى الدار فأخرجنا منها أشياء من الآلات التي تصلح للبقاء ، وأشياء لاتليق ، وشهد جماعة من أهل الدار أن الراشد كان يشرب الخمر ، فأففى العلماء بخلمه ، وحكم القضاة بذلك ، فخلعوه من الخلافة .

ودخلتُ إلى الأمير عبد الله محمد ، أنا والوزير وصاحب الخزن ، وتحدثنا معه ، وناولته رقعة^(٣) مما يلقب به ، فكان فيها : المقتفى بأمر الله ، والمستضى بنور الله ،

(١) هذا الحديث منقول أيضاً عن الفارق .

(٢) في الفارق : « عاشر ذى القعدة » ، وهو خطأ واضح لأنه قال بعد ذلك : « وأصبحنا يوم الاثنين سابع عشر ذى القعدة . . » .

(٣) الفارق : « رقعة فيها ما يسمى به من الألقاب » .

والمستجير بالله^(١)، فقال الخليفة: «ذلك إليكم»، ثم قال لى الخليفة: «ماذا ترى؟»
 فقلت: «المقتنى لأمر الله» فقل: «مبارك» ثم مد يده، فأخذها الوزير وقبلها،
 وقال: «بايعتُ سيدنا ومولانا الإمام المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين على كتاب الله
 وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — واجتهاده»؛ ثم أخذها صاحب الخزن وقبلها،
 وبايعه على مثل ذلك، ثم أخذت يده، وقلت بعد أن قبلتها: «بايعتُ سيدنا ومولانا
 الإمام المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين على ما بايعت عليه أباء وأخاء وابن أخيه في ولاية
 عهده —، وكنت بايعت الإمام المستظهر بالله لما خدمته في وكالة الدار سنة اثنتين^(٢)
 وتسعين وأربعمائة، وبقيت إلى سنة سبع وخمسمائة^(٣) وبايعت المسترشد، وبايعت
 الراشد بولاية النهدي — [٤٠] قال: ثم قت من عنده، ودخل أمراء الدار وبايعوه،
 ودخل الدماء والقضاة والفقهاء وأكابر الناس أجمع فبايعوه، ثم حضر السلطان مسعود
 عنده، وكله المقتنى بالله بكلام وعظه فيه وعرفه ما يلزمه من طاعة الخلافة،
 وأمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم، وخوفه عاقبة الظلم، فبايعه السلطان،
 وقبل يد الخليفة، ورجع إلى دار السلطنة.

وأما الراشد بالله فإنه أقام بالموصل مع عماد الدين أتابك زنكى، والخطبة
 بالموصل وسائر بلاد عماد الدين للراشد بالله، ثم أرسل عماد الدين زنكى إلى بغداد
 القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن الشهرزورى وصحبته رسول الراشد بالله،
 فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته، وأما كمال الدين فأحضر في الديوان وسمعت رسالته،

(١) كذا في الأصل، وفي الفارق: «والمستجبد بالله».

(٢) الفارق: «سنة ٩٠ فقط».

(٣) في الأصل: «وخمسين» والتصحيح عن الفارق.

فُحِى عن كمال الدين (١) أنه قال : « لما حضرت الديوان قيل لى : « تباع أمير المؤمنين ؟ » فقلت : « أمير المؤمنين عندنا بالموصل (٢) ، وله فى أعناق الخلق بيعة متقدمة » . وطال الكلام وعدت إلى منزلى ، فلما كان الليل جاءتنى امرأة عجوز سرّاً (٣) ، فاجتمعت بى وأباعتنى رسالة عن الخليفة المتغنى لأمر الله ، مضمونها (٤) عتابى على ما قلت ، واستنزالى عنه ، فقلت : « غداً أخدم (٥) خدمة يظهر أثرها » ؛ فلما كان الغد أحضرت (٦) الديوان ، وقيل لى فى معنى البيعة ، فقلت : « أنا رجل فقيه قاضى ، ولا يجوز لى أن أبايع خليفة إلا أن يثبت عندى خلع المتقدم » . فأحضروا الشهود وشهدوا عندى بالديوان بما أوجب خله ، فقلت : « هذا ثابت لا كلام (٧) فيه ، ولكن لا بد لى فى هذه الدعوة من نصيب ، لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله فى أرضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ، فنحن بأى شىء نعود ؟ » فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر أن يُقَطَّع عماد الدين زكى صريفيين (٨)

(١) هذا الحديث يرويه ابن واصل عن ابن الأثير ، فقد ذكره الأخير مروياً عن أبيه حيث قال (ج ١١ ، ص ١٧) : « حكى لى والدى عنه — أى عن كمال الدين — » .
(٢) عند هذا اللفظ يبدأ الاتفاق ثانية بين نصي (س) ، (ك) ، فان ص (١٢) من نسخة س تبدأ بهذين اللفظين : « عندنا بالموصل ... الخ » ، ويلاحظ هنا أيضاً أن الخلاف لا زال واضحاً بين نصي النسختين ، فان ما هنا — أى نص ك — مفصل ، وما فى س ملخص عنه .
(٣) فى (س) : « شريفة » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع نص ابن الأثير وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هذا الحديث .
(٤) فى (س) : « تتضمن » وهذا مثل يدل على الطريقة التى يتبعها كاتب هذه النسخة عند الاختصار .

(٥) فى (س) : « أخدمه » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع ابن الأثير .
(٦) فى (س) : « أحضرت إلى الديوان » ، وفى (ابن الأثير) : « حضرت إلى الديوان » .
(٧) فى (س) : « لا كلام لأحد فيه ولا بد » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .
(٨) فى (س) : « صريفيين » بدون نقط ، وصريفيين — أو صريفون كما رسمها ياقوت — فى سواد العراق فى موضعين : أحدهما قرية كبيرة قرب عكبراء وأوانا على ضفة نهر دجيل والثانية من قرى واسط ؛ أنظر (ياقوت : معجم البلدان) .

ودرب^(١) هرون وحزمي^(٢) مالكا — وهي من خاص الخليفة — وأمر بأن يزداد في ألقابه^(٣) ، وقال : « هذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب [٤١] في خاص الخليفة » .

فبايعت وعدتُ مقضى الحوائج ، وقد حصلت^(٤) على جملة صالحة من الأموال والتحف ، وكانت بيعة القاضي كمال الدين للخليفة المقتدى لأمر الله^(٥) سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة .

ولما عاد كمال الدين [الشهرزورى]^(٦) سُرَّ على يده المحضر بخام الراشد ، فحكم به قاضى القضاء الزينبي بالموصل — وكان عند عماد الدين^(٧) — وخطب للمقتدى بالموصل وسائر البلاد العمادية ، ثم فارق الراشد بالله الموصل ، وسار نحو الرى ، ثم توجه نحو همدان ، ولم تزل الأحوال تتراعى به إلى أن عرض له مرض شارب به التلف ، ثم وثب عليه جماعة من الباطنية في يوم الثلاثاء سادس شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، فقتلوه ودفن بشهرستان في جامعها^(٨) .

(١) فى الأصل : « وصرف » والتصحيح عن (ابن الأثير) ، (س) ، هذا ولم يوفق الناشر لتحقيق موضع هاتين المهمتين ، وإنما عاد ابن الأثير إلى ذكرها مرة ثانية فى حوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وذلك فى (ج ١١ ، ص ١٤٨) ، قال : « وفيها أرسل نور الدين محمود رسولا إلى الخليفة ... يطلب تقليدا بنا ييده من البلاد ... وأن يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنىكى وهو : صريفين ودرب هارون ، والتمس أرضا على شاطئ دجلة بينها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هارون .. » .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧) : « وجرى ملكا » وفى (س) : « وحرص مالكا » .

(٣) فى (ابن الأثير) : « ويزداد فى ألقابه » وفى (س) : « وأمر أن يزداد فى القاية » .

(٤) فى (س) : « خلصت » .

(٥) فى الأصل : « بالله » وما هنا عن (س) وهو الصحيح .

(٦) ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير) .

(٧) هنا ينفصل ابن الأثير عن ابن واصل ، ويورد تفاصيل مختلفة عن حوادث أخرى .

(٨) ورد تاريخ قتل الراشد فى نسخة (س) متأخرا عن الخبر ومكان الدفن ، وهو هنا متقدم .

وفي (١) سنة إحدى وثلاثين وخمسة نازل عماد الدين دُقُوقَاء (٢) وملكها بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً .

منازلة عماد الدين مدينة حمص (٣)

قد ذكرنا أن حمص كانت لصمصام الدين خترخان بن قراجا ، وأن عماد الدين قبض عليه سنة أربع وعشرين وخمسة ، وحبسه في قلعة حلب ، ثم نقله إلى الموصل فحبسه بها ، وقتل في الحبس سنة تسع وعشرين وخمسة ، فولى حمص بعده ولده عين الدولة إيلخان (٤) بن خترخان ، والمدير لأمره اسباسلار خمرتاش — مملوك أبيه — .

ولما كان في سنة ست وعشرين وخمسة وثب على عين الدولة مملوكه [ومملوك أبيه (٥)] بزغش فقتله ، وكان بالقلعة زوج لجارية خترخان ، ومعه ابن لخترخان ، فقتل بزغش ، وأجلس في الأمر قریش بن خترخان (٦) ، والمدير لأمره اسباسلار خمرتاش ، ثم سلم خمرتاش حمص الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بوری — صاحب دمشق — وأخذ منه عوضاً اقترحه عليه ، فلما قُتل شمس الملوك ، وولى أخوه

(١) قبل هذا الخبر في (س) ورد هذان اللفظان : « قال الراوى » دون أن يحدد من هو وأغلب الظن أن كاتب نسخة (س) كتبها بالاملاء عن غيره ، وأن هذين اللفظين كانا من مستلزمات الملى .

(٢) في الأصل : « دُقُوقَا » وقد ضبط اللفظ بعد مراجعة ياقوت حيث ذكر أنها مدينة بين إربل وبغداد .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (س) والكلام هناك متصل .

(٤) رسم هذا اللفظ في الأصل هكذا : « أى لُحان » وهو في (س) : « أبى طان » .

(٥) ما بين الحاصرتين عن : (س) ص ٢ ب .

(٦) في الأصل : « ختلخان » ، والتصحيح يقتضيه النص .

شهاب الدين محمود بن بوري (١) سلم حصص للأمير معين الدين أنر (٢) — مملوك جده طفتكين — ، فلما كانت هذه السنة — سنة إحدى وثلاثين وخمسة — توجه الأمير عماد الدين من الموصل إلى حصص ، وحصرها ، وقبل وصوله إليها نازلها حاجبه [٤٢] الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني — صاحب حماة ، وهو أكبر أمرائه — ، وكان ذا مكر وحيل ، أرسله عماد الدين (٣) ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه ، فوصل إليها وفيها الأمير معين الدين أنر (٢) — وهو أكبر أمراء دمشق وإقطاعه حصص — ، فلم ينفذ فيه مكره ، ثم وصل عماد الدين فحصرها ، وعاود معين الدين في تسليم البلد غير مرة ، تارة بالوعد وتارة بالوعيد ، فاحتج بأنها ملك شهاب الدين ، وأنها بيده أمانة لا يسلمها إلا عن غلبة (٤) ، فأقام عليها إلى العشرين من شوال ، ثم رحل عنها من غير بلوغ غرض .

ذكر فتح قلعة بارين (٥) وكسر الفرنج — لعنهم الله —

ثم سار الأمير عماد الدين من حصص ونازل بارين — وهي للفرنج بالقرب من مدينة حماة — ، وزحف إليها ، فحشد الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا إلى عماد الدين

(١) هذه الفقرة السابقة لهذا الرقم كلها استطراد من ابن واصل لتفصيل هذه الحقبة من تاريخ حصص ، وهو استطراد هام للغاية إذ لا يوجد له شبيه في كل المراجع التي تؤرخ لهذا العصر ، وهذه ميزة لابن واصل ولكسابه فقد اتباد أن يقف طويلاً وأن يتحدث تفصيلاً كلما ورد ذكر مدينة من مدن الشام الشمالية ، وخاصة المدن الهامة الثلاثة : حماة — وطنه الأصلي — وحمص ، وحلب .

(٢) في الأصل : « أنر » أنظر ما فات هنا ، ص ٩ ، هامش ٤

(٣) في (س) : « عماد الدين إليها ليسلموها » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير (ج ١١ ، ص ١٩)

(٤) في (س) : « عن إذنه » وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .

(٥) في الأصل : « ماردن » وهو خطأ ، والتصحيح عن : (س) و (ابن الأثير) : أنظر أيضاً النص فيما يلي . وهي في (ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٠) : « بمرين » ؛ والرمضان صحيحان ، وإنما بمرين هو ما تستعمله العامة ، وبارين تقع بين حماة وحلب ، (ياقوت : معجم البلدان) .

في ملوكهم وقامصتهم (١) وكنودهم (١) ليرحلوه عن بارين فلقبهم وقاتلهم أشد قتال ، وصبر الفريقان ، فهزم الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، فاحتسى ملوكهم وفرسانهم بحصن بارين — لقربه منهم — ، فحصرهم المسلمون ، ومنع عماد الدين منهم كل شيء ، وتغذر وصول الأخبار إليهم ، ودخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية ، مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها ، وأن همه المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس ، فحشدت النصرانية وجمعت ، وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية .

وجدَّ عماد الدين في حصار بارين ، وعدمت عندهم الذخائر حتى أكلوا الدواب ، فأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ليعودوا إلى بلادهم ، فلم يجبههم [إلى ذلك (٢)] فلما سمع بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الفرنج أعطاهم الأمان ، وتسلم منهم الحصن ،

(١) يتكرر ذكر « القومس » كثيراً في الكتب العربية التي أدرخت للحروب الصليبية كالروستين لابي شامة والكامل لابن الأثير ، وهو تعريب حرفي للفظه اللاتينية « Comes » أى الأمير ، ومعناها الأصلية في اللاتينية « الرقيق » لأنه كان في بادىء الأمر يرافق الملك في حروبه وتغلاته ، ثم سمى بالأمير ، وقد تختلف المراجع في رسم هذا اللفظ ، فهو القميس ، أو القومس أو القمص ، أو القومس ؛ وم تارة يؤثثونه فيقولون : القومصية ، أو القومصة ، وكما اختلفت المراجع في رسم المفرد اختلفت أيضاً في رسم الجمع ، فهو عندهم : قامس ، وقامسة ، وقامصة ، وقوامس ؛ واللفظة (Comes) هي التي حورت في اللغة الفرنسية إلى (Comte) وهذه هي ما اعتادت نفس المراجع أن تعربها إلى « كُنت » ؛ واختلفوا في رسم هذا اللفظ أيضاً فهو عندهم : كُنت ، وقُنت ، وم يجمعونهم على كنود . وهو عين اللفظ الذي اعتاد الكتاب المحدثون أن يسموه هكذا « كُنت » أو « كُنت » ، ومعنى اللفظين واحد وهو الأمير ، وإنما الأول مأخوذ عن اللاتينية (Comes) والثاني عن الفرنسية (Comte) أنظر : (الألب انستاس ماري الكرملي : ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب ، مجلة الرسالة ، العدد ٤١١ ، ١٩ مايو سنة ١٩٢١) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) و (ابن الأثير) .

وقرر عليهم خمسين ألف دينار [٤٣] يحملونها^(١) إليه ، ووقعت الإجابة إلى ذلك ، فلما فارقوا الحصن وتحققوا خروج ملك الروم لنصرتهم ندموا حيث لم ينفعهم الندم^(٢) .

ذكر فتح المعرة وكفر طاب

وفي مدة حصار بارين تسلم عماد الدين — رحمه الله — المعرة وكفر طاب من الفرنج^(٣) ، وكان الضرر ياحق المسلمين بالفرنج الذين فيها لتوسطهما البلاد الإسلامية^(٤) ، ولقد سلك الأمير عماد الدين من العدل في أهل المعرة لما استنفذها من الفرنج طريقة لم يسلكها أحد قبله ، سمعت^(٥) والدي — رحمه الله — يقول — ونحن بالبيت المقدس سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر بن أيوب قد قدم إليها فاجتمع به والدي بالحرم الشريف — قال : « سألتني اليوم السلطان الملك المعظم : هل كان للمعرة سور ؟ قلت : « نعم » ، قال : « فمن هدمه ؟ » قلت : « أتابك زنكي لما ملك المعرة واستنفذها من الفرنج » ، ثم ذكرت له عدل أتابك زنكي ، وقلت له : إنه كان حنفي المذهب ، ومن مذهب أبي حنيفة — رحمه الله — أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك للمسلمين خرجت تلك الأملاك عن ملك أصحابها^(٥) لصيرورة البلد دار حرب^(٥) ، فإذا عاد البلد

(١) في الأصل : « يحملوها » وما هنا عن : (س) و (ابن الأثير) وهو الصحيح .

(٢) هذه الحوادث رواها ابن الأثير أكثر تفصيلا ، والنصان متفقان في اللفظ في أكثر

من مواضع .

(٣) نص (س) يختلف عما هنا بمض الشيء وهو : « وكان الضرر بالأفرنج الذين فيها على المسلمين عظيما لتوسطهما البلاد الإسلامية » .

(٤) هذه فقرة من الفقرات الكثيرة الهامة التي يشير فيها ابن واصل إلى أبيه وإلى نفسه ، ومن هذه الفقرات استدلنا أن نعرف الشيء الكثير عن حياة ابن واصل وحياة أبيه مما لم تتضمنه كتب التراجم .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (س) .

بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبیت المال ، فلما فصح أن تابك المعرفة جاءه (١) المعريون يطلبون تسليم أملاكهم إليهم ، فاستفتى أنابك الفقهاء [على] (٢) ذلك ، فأفتوه بما يقتضيه مذهبهم ، وهو أن الأملاك لبیت المال ، ولاحظاً لأصحابها فيها ، فقال رحمه الله : إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم (٣) ، ونحن نأخذ أملاكهم ، فأى فرق بيننا وبين الفرنج ؟ كل من أتى (٤) بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها ، فرد إلى الناس جميع أملاكهم ، ولم يعترض لشيء منها . وقال : « فاستحسن [السلطان] (٥) الملك المعظم هذه الفعلة » . قلت (٦) : وأما ابن الأثير (٧) فإنه في تاريخه روى ذلك على غير هذه الصورة ، وقال : « إن الفرنج لما ملكوا المارة أخذوا أملاك أهلها ، فلما فتحها [عماد الدين] (٨) زنكي ، حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك ، فطلبوا [٤] أملاكهم ، فطلب منهم كتبها ، فقالوا : إن الأفرنج أخذوا كل ما لنا ، وذهبت الكتب التي للأملاك (٩) ؛ فقال لأصحابه : « اطلبوا دفاتر ديوان حلب ، فكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه » ، ففعلوا ذلك ، وعاد الناس إلى أملاكهم (١٠) ؛ وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها — رحمه الله وقدهس روحه — .

(١) في الأصل : « جاءوا » وما هنا عن س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٣) في (س) : أملاكهم ولا نردها نحن ، فأى فرق ... الخ .

(٤) في الأصل : « آتا » بالألف .

(٥) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٦) مكان هذا اللفظ في س : « قال صاحب الكتاب القاضي جمال الدين بن واصل قاضي القضاة بجهاء » .

(٧) هذا مثل من أمثلة كثيرة ستأتى فيها بعد تدل على أن ابن واصل لم يكن يقنع بالرواية الواحدة حتى ولو كان راويها أبوه نفسه ، بل كان يقارن بين روايات المؤرخين المختلفين كلما وجد خلافاً بين هذه الروايات .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (س) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠) .

(٩) نص ابن الأثير : « كل ما لنا والكتب التي للأملاك فيها » .

(١٠) نص ابن الأثير : « وأعاد على الناس أملاكهم » .

ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الإسلام

لما مضت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم واستفروهم على المسلمين بسبب عماد الدين ومنازلته بارين ، وخوفهم من أخذها واستئصال من فيها ، فتجهز الروم وركبوا في البحر من قسطنطينية ، وساروا إلى أنطاكية ، وهي لهم يومئذ ، فأرسوا بها منتظرين المراكب التي فيها الأثقال والسلاح ، فلما وصلت ساروا إلى مدينة نيقية فنزلوها وحاصروها ، ثم صولحوا على مال يؤدي إليهم ، ثم ساروا إلى مدينة أذنة والمصيصة ، — وهما لابن ليون^(١) الأرميني — فحصرهما ملك الروم وملكهما ، ثم نازل عَيْن زَرْبَى^(٢) ، فملكها عنوة ، وملك تل حمدون ، وحمل ملك الروم أهلها إلى جزيرة قبرس ، ثم وصل إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذى القعدة من هذه السنة — أعني سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة — ، وضيق على أهلها ، وبها يميند الأفرنجي ، ثم اصطالحا ، ورحل إلى بفراس ، ثم دخل بلد ابن ليون ، فبذل له ابن ليون مالا ، ودخل في طاعته .

ذكر استيلاء عماد الدين على حمص^(٣)

ولما فرغ عماد الدين من بارين سار إلى حماة ، ثم سار إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل — وهو لصاحب دمشق — وأطاعه مستحفظ بانياس

(١) هو ليون الثاني Lion II ملك أرمينية في تلك السنة . وتسميه مراجع العصر العربية أيضاً « ابن لاون » ، أنظر: دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « أرمينية » .

(٢) في الأصل : « عين رزية » ، وفي س « عين رومة » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠) : « عين زربة » والتصحیح عن معجم البلدان لياقوت حيث عرفها بأنها بلد بالفر من نواحي المصيصة ، ثم ذكر أنها بقيت بيد المسلمين إلى أن استولى عليها الروم في أيام سيف الدولة الحمداني ، ثم قال : « وفي أيديهم إلى الآن ، وأهلها اليوم أرمن ، وهي من أعمال ابن ليون » .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

— وهي لصاحب دمشق أيضاً^(١) — ، ثم سار إلى حصص فحصرها ، فلما نازل ملك الروم حلب — على ما نذكره — رحل عن حصص ونزل على سلمية ، ثم نزل على حماة — على ما نذكره — ، فلما انحلت قضية الروم عاد إلى حصص فنازلها ، ثم وقعت بينه وبين شهاب الدين [صاحب دمشق ^(٢)] مراسلة ، فانتهى الأمر إلى الصلح ، وسلم إليه حصص ، وخطب زمرد خاتون — أم شهاب الدين ^(٣) — [٤٥] وهي التي ذكرنا أنها قتلت ولدها شمس الملوك ، وزفت إليه في رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة واعتقد [عماد الدين] أنه إذا تزوجها كان ذلك طريقاً إلى تملكه دمشق ، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها .

ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر^(٤)

ثم لما صالح ملك الروم ابن ليون قصد بزاعة^(٥) فحصرها ، فسير عماد الدين جماعة من العسكر إلى حلب لينعوهوا من الروم إن قصدوها ، ثم ملك ملك الروم بزاعة

(١) هذه الجملة في س مضطربة الألفاظ والمعنى ، ونصها : « وأطاعه وهو مستحفظ بإياس وهو لصاحب دمشق أيضاً » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) وذلك للإيضاح .

(٣) هذان اللفظان لم يذكر في س ، وقد أضاف ابن الأثير للتعريف بهذه السيدة قوله : « وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى » .

وهذه المدرسة هي المعروفة باسم « المدرسة الخاتونية البرانية » ، بنتها للحنفية ، وأوقفت عليها الأوقاف في سنة ٥٢٦ ؛ وزمرد خاتون هي صفوة الملوك ابنة الأمير جاولي ، أخت دقاق لأمه ، وزوجة تاج الملوك « بوري » ، وأم ولديه : شمس الملوك إسماعيل ، ومحمود ، وقد تزوجها فيما بعد أتابك عماد الدين زنكي ، فبقيت معه تسع سنين ، فلما قتل حجت وجارث بالمدينة المنورة إلى أن ماتت ودفت هناك بالبقيع في سنة ٥٥٧ ، أنظر أيضاً : (النعيمي : الدارس في المدارس ، نشر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٧) .

(٤) هذا العنوان غير موجود أيضاً في س ، ويلاحظ أن النص متصل دائماً في نسخة س ، وأن الضواوين الموضحة قليلة ، وسنكتفي بهذه الإشارة وما سبقتها إلى هذه الظاهرة ثم نسكت عنها بعد ذلك لتكرارها في معظم الصفحات والموضوعات .

(٥) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) فيه زيادة للتعريف بالمدينة ، قال : « وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب » .

بعد أن نصب على أهلها المنجنقيات ، وضيق عليهم ، فسلموها إليه بالأمان في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، وقتل وأسر وسبا ، وكان عدة من خرج إليه من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس ؛ وتنصّر قاضيها وجماعة من أعيانها — نحو أربعمائة نفس — وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى ، ف قيل لهم : « إن جماعة نزلوا في المغارات » ، فسَخَّنوا عليهم ، فهلكوا في المغائر .

ثم ^(١) رحل ملك الروم إلى حلب ، فقتل على نهر قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام ، وزحفوا إلى حلب بخيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم ، فأقاموا [على حلب ^(٢)] ثلاثة أيام ؛ ولم يظفروا بباطل ، فرحلوا إلى قلعة الأثارب ، فهرب من بها من المسلمين ، فملكوها الروم تاسع شعبان وتركوا ^(٣) بها سبي بزاعة والأسرى ، ثم رحلوا عنها ، فلما سمع برحيلهم ابن سوار — نائب عماد الدين بحلب — رحل فيمن معه من العسكر ، فأوقع بمن في الأثارب من الروم ، وخلص الأسرى والسبي ، وعاد إلى حلب .

ونزل عماد الدين سلمية — كما ذكرنا — وعبر ثقله الفرات ، وأقام بسلمية جريدة ، ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة .

ثم قصد الروم قلعة شيزر — وصاحبها الأمير أبو العساكر [سلطان بن علي ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ^(٤)] — فمازلوها ونصبوا عليها ستة عشر منجنيقاً ، فسار عماد الدين ونزل على النهر المعروف بالعاصي [٤٦] — بينها وبين حماة —

(١) قبل هذا اللفظ في س (ص ٤ ب) عنوان كبير هو : (ذكر منازلة ملك الروم حلب) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل : « ونزلوا » والنصحيح عن س (ص ٤ ب) و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن : (س ، ص ٤ ب) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

وكان [عماد الدين] كل يوم يركب هو وعسكره ويسرون إلى شيزر ، ويقفون بحيث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم .

ذكر توجه القاضي كمال الدين بن الشهرزورى

إلى السلطان مسعود فى معنى الروم واستنجاهه [به (١)] عليهم

ولما كان الروم على بُرَاعة أرسل الأمير عماد الدين زنكى القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه يستنجده ويطلب منه العساكر ، فقال [القاضي (١)] لعماد الدين حين أرسله : « أخاف (٢) أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة [علينا (١)] ، وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها » . فقال الأمير عماد الدين : « إن هذا العدو قد طمع فى البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها » . قال كمال الدين : [فسرت طالب بغداد ، وجديت فى السير (٣)] ، فلما وصلت بغداد [وحضرت قدام السلطان (٣)] وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخطب ولا أزداد على الوعد [شيئاً (٣)] ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا — وهو فقيه كان ينوب عني فى القضاء — فقلت [له] : « خذ هذه الدنانير وفرقها فى جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد : « وا إسلاماه ! وا دين محمداه ! »

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٤ ب) .

(٢) هذا الحديث بين القاضي وعماد الدين غير مثبت فى (ابن الأثير) ويلاحظ أن نصي ابن واصل وابن الأمير يتفقان فى معظمهما ، وقد يختلفان إيجازاً وإطناباً ، وسقوط هذا الحديث مثل لذلك . والأمثلة بعد هذا كثيرة مما يرجح رأينا أن المؤرخين ينقلان عن مرجع آخر لا نعرفه .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ١٥ أ) .

ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ؛ ثم وضعت إنسانا آخر فعل ذلك في جامع السلطان ؛ فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح ، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى ، وبطلت الخطبة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ؛ وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالمسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره [٧ ٤] وقال : « ما الخبر ؟ » فقيل : « إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة ^(١) » ، فقال : « أحضروا [القاضي] ابن الشهرزورى » ، قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه ، إلا أننى قد عزمت على صدقه وقول الحق .

فلما دخلت قال : « يا قاضى ، ما هذه الفتنة ؟ » فقلت : « إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ، ولا شك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو ، وإنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم فى الفرات وفى البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد » ، وعظمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه ؛ فقال : « اردد هؤلاء العامة عنا ، وخذ من العساكر ما شئت ، والأمداد تاحقك » . قال : « فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم ، وعرقهم الحال ، وأمرتهم بالعود ، فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت ^(٢) من عسكره عشرة آلاف فارس [من خيار العسكر ^(٣)] ، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير ، وأجدد استغذانه فى ذلك ، فأمرنى بتسميرهم والحث على ذلك ، وعبرت بالعساكر الجانب الغربى ، فبينما نحن

(١) فى س (ص ٥ ب) : « المراق » وهو خطأ واضح .

(٢) فى الأصل : « وانتخب » ، وما هنا عن س .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٥ ب) .

نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ، فلما خاطبت السلطان في ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها ، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي ، وسرت إلى الشهيد .

ذكر تخذيل^(١) عماد الدين

بين الفرنج والروم حتى رحلوا خائبين

قد ذكرنا منازلة الروم والفرنج شيزر ، ونزول عماد الدين زنكي — رحمه الله — على العاصي بالقرب منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : « إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرت بكم أرحمت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » ؛ ولم يكن لعماد^(١) الدين بهم طاقة ولا قوة ، وإنما كان يوهّمهم بهذا القول وأشباهه ، فأشار الفرنج على ملك الروم بمصافقته^(٣) [٤٨] وهوّنوا أمره عليهم ، فلم يفعل ، وقال : « أظنون أنه ليس له من العسكر إلا ماترون ؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجىء إليه من [نجدات] ^(٤) المسلمين مالا حد عليه .

وكان أيضاً عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يوهّمه بأن فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه لتخلّوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من ملك الروم ، ويقول لهم :

(١) في س : « محدد » .

(٢) في الأصل : « بهاد » ، وما هنا عن س (ص ١٦) .

(٣) في (اللسان) : « أصفقوا على الأمر اجتمعوا عليه ، وأصفقوا على الرجل كذلك » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

« إِنْ مَلَكَ بِالشَّامِ حَصَنًا وَاحِدًا مَلَكَ بِلَادَكُمْ جَمِيعًا » ؛ فاستشعر كلٌّ مِنْ صاحبه ،
فرحل ملك الروم^(١) مِنْ شِيزَر فِي هذه السَّنة ، وترك المجانيق وآلات الحصار بِحَالِهَا ،
فَاتَّبَعَ عَمَادُ الدِّينِ سَاقَةَ العِسْكَرِ ، فَظَفَرَ بِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ ، وَأَخَذَ جَمِيعَ مَا تَرَكَهُ ، وَرَجَعَ مَلِكُ
الرُّومِ خَائِبًا إِلَى بِلَادِهِ .

وَفِي خُرُوجِ مَلِكِ الرُّومِ إِلَى الشَّامِ وَحَلْبِ وَعُودِهِ عَنْهَا خَائِبًا يَقُولُ الْمُسْلِمُ^(٢)
ابْنُ خُضْرٍ بَنِ قَسِيمِ الْحَمَوِيِّ قَصِيدَةً يَمْدَحُ بِهَا الْأَمِيرَ عَمَادَ الدِّينِ زَنْكِي — رَحِمَهُ اللَّهُ — .
أَوَّلُهَا :

بِعَزْمِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الرَّحِيمُ تُذِلُّ لَكَ الصَّعَابُ وَتَسْتَقِيمُ
[وَمِنْهَا يَقُولُ^(٣)] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ كَلْبَ الرُّومِ لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّكَ الْمَلِكُ الرَّحِيمُ
فَجَاءَ يُطَبِّقُ الْفُلُوكَاتِ جَيْشًا^(٤) كَانَ الْجَحْفَلَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ
وَقَدْ نَزَلَ الزَّمَانُ عَلَى رِضَاهُ وَكَانَ^(٥) لَخُطْبِهِ الْخُطْبُ الْعَظِيمُ
فَحِينَ رَمَيْتَهُ بِكَ^(٦) فِي خَمِيسٍ تَيَقَّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَدُومُ

(١) كان امبراطور الدولة البيزنطية في هذه السنة (٥٣٢ = ١١٣٨) هو الامبراطور
يوحنا الثاني كالوجوهانيز Calojohannes [١١١٨ — ١٥٤٣] ؛ انظر كتاب (الامبراطورية
البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، وترجمة الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ محمود يوسف زايد ،
ص ٤٠١) .

(٢) لم أَعثر عَلَى ترجمة مفصلة لهذا الشاعر ، وإنما ذكر (الصابوني ، تاريخ حماة ، ص ١٠٠)
أنَّهُ كَانَ مِنَ الشعراء المجهدين ، وأنه توفى سنة ٥٣٤ ، ثم استشهد بهذه الأبيات المذكورة هنا .
(٣) ما بين الحاصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٣) .
(٤) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَهِيَ فِي : س (ص ١٦) : « حِينًا » ، وَفِي (ابن الأثير) :
« خَيْلًا » .

(٥) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَفِي س ، وَهِيَ فِي (ابن الأثير) : « وَدَان » .

(٦) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَفِي ابن الأثير ، وَهِيَ فِي س : « لَكَ » .

وَأَبْصَرَ فِي الْمَفَاضَةِ مِنْكَ لَيْثًا (١) فَأَحْرَقَ لَا يَسِيرُ وَلَا يَقِيمُ
كَأَنَّكَ فِي الدَّجَاجِ شِهَابُ نُورٍ تَوَقَّدَ وَهُوَ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ
أَرَادَ بَقَاءَ مُهْجَتِهِ فَقَوْلَى وَلَيْسَ سِوَى الْحِمَامِ لَهُ حَمِيمٌ

ولما رجع ملك الروم وصل إلى عماد الدين زنكي رسول الخليفة الإمام المقتفى
لأمر الله أمير المؤمنين ، وهو مؤيد الدين سديد الدولة بن الأنباري — كاتب الإنشاء
ورسول السلطان مسعود — بالخلع ، فلبس خلعة الخليفة والسلطان وركب بهما ،
وذلك بظاهر مدينة حمص يوم عرفة [٤٩] من هذه السنة — أعني سنة اثنين
وثلاثين وخمسمائة — ودخل بزمرد خاتون أم الأمير شهاب الدين محمود ، صاحب
دمشق — كما تقدم — .

وفي المحرم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وصل الأمير عماد الدين — رحمه الله —
إلى حلب ، واستقر أهلها وأهل حماة وأهل منبج على حصن بزاعة حتى فتحه بالسيف
[وقتل كل من فيه من الروم والفرنج (٢)] وجمعت رؤوس القتلى وبنيت منها منارة
أُذِّنَ عليها ، ثم تحول بالعسكر إلى حصار قلعة الأتارب ففتحها في صفر ، ثم توجه
إلى البلاد الشرقية .

وفي هذه السنة نازل عماد الدين قلعة دارا ، وهي للأمير حسام الدين تمرتاش
[ابن] ايلغازي بن أرتق (٣) [فلم ينل منها طائلا ، وخاف على المسلمين ، ثم رحل منها
إلى حران (٢)] .

(١) في س : « لَيْث » ومعظم الكلمات الأخرى غير منقوطة ، أما في (ابن الأثير)
فانص يختلف ، وهو :

وَأَبْصَرَ فِي الْمَفَاضَةِ مِنْكَ جَيْشًا فَاحْرَبَ لَا يَسِيرُ وَلَا يَقِيمُ

(٢) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٣) في الأصل : « برتق » والتصحيح عن س ، وحسام الدين ثاني أمير من فرع الأراقة
الذين حكموا ماردين ، وإيها من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥٤٧ . أنظر : (Zambaur. Manuel de :
Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. P. 228).

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على حرّان ثانيا

كنا قد ذكرنا أن عماد الدين ملك حرّان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، ولما ملكها أقطعها سودكين الكرجى ، فعصى عليه وانضاف إلى عسكر الخليفة المسترشد بالله لما نازل الموصل ، وسار معه حين رحل عن الموصل ، وترك فيها والياً من قبله ، ثم مات [بعد ذلك] ^(١) سودكين فنازلها في هذه السنة عسكر عماد الدين ، فتسلم المدينة ، وبقيت القلعة وفيها الوالى ، ثم تسلم عماد الدين القلعة في منتصف ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة — .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى

على شهرزور وأعمالها

كانت شهرزور ^(٢) وما يضاف إليها من الأعمال في يد قفجاق بن أرسلان باش التركمانى ، وكان نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانيمهم ، وكان الملوك يتحامون قصد ولايته لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، فقصد عماد الدين ، وهزم عسكره ، وملك بلاد شهرزور وغيرها ، وأضافها إلى ولايته ، وأصلح أحوالها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

وفى ذى الحجة من هذه السنة رجع عماد الدين إلى الشام ، ونزل بظاهر حلب على قويق ، ثم رحل إلى أرض حماة ، واستصحب من أهل حماة تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب .

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنها كورة واسعة في الجبال بين أربل وهمدان ، أحدثها زور بن الضحّاك ، ومعنى شهر بالفارسية المدينة .

وفي هذه السنة قُتل الأمير شهاب الدين محمود^(١) بن بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، وذلك في ليلة الجمعة [٥٠] لثلاث بقين من شوال ، قتله [ثلاثة من غلمانه]^(٢) : البقش ، ويوسف الخادم ، والفراس الخركاوي^(٣) ، وصبيحة قتله وصل أخوه الأمير جمال الدين محمد بن بوري ، وملك دمشق ، وقام بتدبير دولته الأمير معين الدين أُنَر^(٤) ، مملوك جده طغتكين .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك

كان السبب في ذلك أن شهاب الدين محموداً^(٥) لما قُتل بدمشق حزنت عليه أمه زمرد خاتون حزناً شديداً ، فحملت عماد الدين على قصد دمشق والطلب بئار^(٦) ولدها شهاب الدين ، فتحرك لقصده دمشق ، فاستعد معين الدين بدمشق ، واستكثر

(١) حكم دمشق من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣٣ ؛ أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 30)

(٢) في الأصل وفي س : « غلامه » وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٦)

فإن النص فيما يلي يقتضيه .

(٣) فصل (ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩) الحديث عن قتل شهاب الدين محمود بن بوري وعن قتلته ، وقد آثرنا نقل حديثه هنا للايضاح ، قال : « وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من السنة في غداته ظهرت الحادثة المدبرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك ، وقتله في فراشه وهو في نومه في ليلة الجمعة المذكورة ، بيد غلمانه الملاعين . البقش الأرمني الذي اصطنعه وقربه إليه واعتمد في أشغاله عليه ، ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه لديه ، والخركاوي الفرّاش الرّاقد حواليه . . . وكان هؤلاء الثلاثة نفر الجناة الملاعين يبيتون حول سريره ، وتحققوا نومه ووثبوا عليه فقتلوه في فراشه على سريره ، وصاح فرّاش آخر كان معهم فقتلوه أيضاً ، ودبروا أمرهم بينهم وأخفوا سرهم بحيث خرجوا من القلعة ، وظهر الأمر ، وطلب البقش لعنه الله فهرب ونهب بيته ، ومسك الآخرا ن فصلباً على سور باب الجابية . . . إلخ » .

(٤) في الأصل ، وفي س ، وفي ابن الأثير : « أنز » والصحيح ما أثبتناه هنا ، وهكذا ضبطه الذهبي . انظر : (النعماني ، الدارس في تاريخ المدارس ، ذكر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٥٨٨) .

(٥) في الأصل « محمود » .

(٦) أنظر تفصيل ذلك في (ابن القلانسي ، ص ٢٦٩) .

من الذخائر والعدد والرجال ، ولم يتركوا شيئاً يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله ، وأقاموا ينتظرونه ، ووصل عماد الدين إلى بحيرة قدس ، ثم سار منها إلى بعلبك فنازلها .

وكان الأمير جمال الدين محمد بن بوري لما ملك دمشق بعد أخيه شهاب الدين قد أقطع بعلبك لمعين الدين ، فاستناب فيها معين الدين [من يثق إليه] (١) ، فجدّ عماد الدين في محاصرتها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمى ليلاً ونهاراً ، فأشرف من بها على الهلاك ، فطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة ، وبقيت القلعة وفيها جماعة من الشجعان ، فقاتلهم فلما يئسوا من النصر طلبوا الأمان ، فأمتهم ، فسلموا إليه القلعة ، فلما سلموها إليه عذبهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ، ولم ينبج منهم إلا القليل ، فاستقبح الناس منه ذلك ، واستعظموه وخافوه وحذروه ، ولا سيما أهل دمشق ، فإنهم قالوا : « لو ملكنا لفعل بنا كذلك » ، فجدّوا في محاربته .

وكان لمعين الدين جارية يهاها ، فلما تزوج أمّ جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق سيّرها (٢) إلى بعلبك ، فلما ملك عماد الدين بعلبك أخذ الجارية [فتزوجها] (٣) بحلب ، فلم تزل بها إلى أن قُتل [عماد الدين] (٤) فسيّرها ابنه نور الدين محمود — رحمهم الله تعالى — إلى معين الدين ، وهي كانت سبب الود بينهما ، وكان فتح بعلبك رابع صفر (٥) سنة أربع وثلاثين وخمسمائة .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ١٧) .

(٢) التضمير هنا عائد على الجارية .

(٣) في الأصل ، وفي س : « وتركها » ، والصحيح وما يستقيم به المعنى ما ذكرناه هنا .

نقلا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٧) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٧ ب) .

(٥) لم يذكر اليوم والشهر في س .

ذكر منازلة عماد الدين زنكى دمشق^(١)

ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق ، وذلك في ربيع الأول^(٢) من هذه [٥١] السنة — أعنى سنة أربع وثلاثين وخمسة^(٣) — فنزل بالبقاع وسير إلى جمال الدين محمد يبذل له بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق ، فلم يجبه إلى ذلك ، فرحل [عماد الدين] إلى دمشق ، ونزل داريا ثالث عشر ربيع الأول^(٤) ، والتقت الطلائع واقتتلوا ، فكان الظفر لعماد الدين ، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف ، وقتل جمع كثير ، ثم تقدم عماد الدين زنكى إلى المصلى ، فنزل هناك ، ولقيه جند دمشق وأحداها ورجالة الغوطة ، فقاتلوه ، فانهزموا ، وقتل منهم وأسر وجرح جماعة ، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسليم ، فأمسك عماد الدين عن القتال عدة^(٥) أيام وراسل جمال الدين صاحب دمشق ، وبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختار من البلاد ، فامتنع أصحابه من ذلك ، وخوفوه عاقبة غدره كما فعل بأهل بعلبك ، ثم عاود [عماد الدين] الزحف ، واستمر القتال والحصار إلى شعبان من هذه السنة .

ولما كانت ليلة الجمعة ثامن شعبان توفي جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق — وعماد الدين محاصر البلد — فأجلس في الملك بعده ولده الأمير بجير الدين آبق^(٦) بن محمد — وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين — ، وقام بتدبير

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه هناك هذان اللفظان : (قال الراوى) .

(٢) في س : « ربيع الآخر » ، أما ابن الأثير ففتق مع المتن هنا .

(٣) لم ينص على السنة في س .

(٤) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي ابن القلانسي : « ربيع الآخر » .

(٥) في س « مدة » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) : « عشرة » .

(٦) في الأصل : « اتق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي ، ص ٢٧١) .

و (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٨) و (Zambau, Op .Cit. P. 30) .

دولته معين الدين أنر ، فطعم عماد الدين في البلد وزحف إليه زحفاً شديداً ظناً منه أنه ربما يقع بين المتقدمين والأمراء اختلاف ، فيملك البلد ، فخاب أمله ، وراسل^(١) معين الدين الفرنج ، واستدعاهم إلى نصرته ، وبذل لهم بذولاً ، ومن جملتها أنه يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم ، وخوفهم من عماد الدين أنه إن ملك دمشق يملك البيت المقدس ، ولا يترك لهم بلداً بالساحل ؛ فأجمع^(٢) الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها على قتال عماد الدين زنكي ، وعلم عماد الدين ذلك ، فسار عماد الدين إلى حوران — خامس رمضان — عازماً على لقاء الفرنج قبل أن يجمعوا مع الدمشقيين على قتاله ، فلما سمع^(٣) الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ، فعاد عماد الدين إلى حصر دمشق ، فنزل بعذرا^(٤) ، وذلك سادس^(٥) شوال من هذه السنة ، وأحرق عدة قرى من المرج [٥٢] والغوطة ، ورحل عائداً إلى بلاده ، ووصل الفرنج إلى دمشق ، واجتمعوا بصاحبها .

وسار معين الدين بعسكر دمشق إلى بانياس — وهي في طاعة عماد الدين — ليحصرها ويسلمها إلى الفرنج ، وكان صاحبها قد جمع جمعاً ، وسار إلى صور للغارة على بلده^(٥) ، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدة لصاحبها

(١) كان رسول معين الدين إلى الفرنج هو أسامة بن منقذ الشاعر المعروف ، أرسله إلى فولك الخامس ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٢) ، وقد تقدم هذا الملك وحده أول الأمر لمساعدة معين الدين والدماشقة ، فلما هزموا انضم إليهم ريمون صاحب أنطاكية وجوسلين الثاني صاحب الرها . أنظر : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩ — ٣٢ ، وما به من مراجع) .

(٢) في س (١٨) : « فاجتمعوا » و « سمعوا » .

(٣) ذكر (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) أنها شمال دمشق .

(٤) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي (ابن القلانسي ، ص ٢٧٢) : « يوم الأربعاء »

لست بقين من شوال .

(٥) في الأصل ، وفي س : « بلدها » ، وهذا خطأ يعكس المعنى ، وقد صحح بعد مراجعة

(ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) ونصه هناك واضح مفهوم وهو : (وكان واليها — أي والي بانياس — قد سار قبل ذلك منها بجبهة إلى مدينة صور للاغارة على بلاده) .

على عماد الدين ، فاقمتلا ، فانهزم المسلمون ، وأخذ صاحب (١) بانياس ، فقتل من قتل ، ونجا من نجا إلى بانياس (٢) ، وجمعوا جمعاً كثيراً من أهل البقاع ، وحفظوا القلعة ، فنار لها (٣) معين الدين — ومعه الفرنج — فتسلها وسلمها للفرنج ، ولما سمع عماد الدين حصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عن بانياس من يحصرها ، فأقام فيها .

فلما عاد عسكر دمشق — بعد ملك بانياس وتسليمها للفرنج — فرّق عماد الدين عسكره في الإغارة على حوران وأعمال دمشق ، وسار جريدة ، فنزل على دمشق سحراً (٤) ، ولم يعلم به أحد ، فلما أصبح الناس رأوا عسكره ، خافوا وارتج البلد ، واجتمع العسكر والعامّة على السور ، وفتحت الأبواب ، وخرج أهل البلد إليه ، وقتلوه ، فلم يمكن الأمير عماد الدين عسكره من الإقدام عليهم ، لغلبة أكثر عسكره في الإغارة وتفرقهم .

ثم توجه عماد الدين إلى مرج راهط ، وقد أقام ينتظر عود عسكره ، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم ، فلما اجتمعوا عنده رحل عائداً إلى بلاده (٥) .

وفي سنة خمس (٦) وثلاثين وخمسمائة جرت وقعة بين عماد الدين والأمير ركن الدين داوود بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — فانهزم ركن الدين ، وملك عماد الدين بهمد (٧) ، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل .

(١) كان صاحب بانياس هو (إبراهيم بن طرغت) ، انظر : (ابن القلانسي ، ص ٢٧٢) .

(٢) في س (١٨) : « فقتل جميع من نجا إلى بانياس » .

(٣) في س (١٨) : « فنادى معين الدين » .

(٤) في الأصل : « سحر » ، وفي س (١٨) : « سحر » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٩) .

(٥) المعنى متفق في الفصول السابقة بين النص هنا وبين الأثير ، ولكن المؤرخين — كما سبق أن ذكرنا — يختلفان إيجازاً وإطناباً ، تقديم الحوادث وتأخيرها .

(٦) في الأصل ، وفي س (٨ ب) : « خمسة » والتصحيح ما أثبتناه .

(٧) كذا في الأصل ، وهي في س (٨ ب) : « بهرد » وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٠) : « بهود » .

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين الحديثه ، ونقل من كان بها [من آل مهران] ^(١) إلى الموصل ، ورثب أصحابه بها .

وفي هذه السنة خطب لعماد الدين بآمد ، وصار صاحبها في طاعته ، وكان قبل ذلك موافقا لركن الدين داوود — صاحب الحصن — على عماد الدين ، فلما رأى قوة عماد الدين صار معه .

وفيها أغار عسكر عماد الدين — المقيمون بحلب — على بلد الفرنج [٥٣] فنهبوا وظفروا بسرية للفرنج ، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل ^(٢) .

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين قلاع الهكاريه ، وقد ذكرناه لتعلقه بما كان قبله .

ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن ^(٣) محمد

وبين عماد الدين زنكي

كان السلطان مسعود قد حقد على عماد الدين حقداً شديداً ، وكان ^(٤) ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه إلى ذلك بمواطاة من عماد الدين ، وأنهم إنما يصدرن عن رأيه ، وكان عماد الدين يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان مسعود فيتفرغ لقصد ^(٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٤) .

(٢) في س : « فارس » .

(٣) في الأصل : « مسعود وبين محمد » .

(٤) كذا في الأصل . وفي س (أ ب) : « لأنه كان ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه بمواطاة من عماد الدين ، بينهم إنما يريدون عن رأيه » .

(٥) في الأصل ، وفي س (أ ب) : « لئلا يزال السلطان مسعود مشغولاً عنه فلا يتفرغ لقصد » وهو نص مضطرب المعنى ، وقد صحح بعد مراجعة : (ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣١) .

ففي سنة ثمان وثلاثين وخمسة رحل السلطان إلى بغداد ، وجمع العساكر ،
وتجهز لقصد عماد الدين زنكي ، فأرسل إليه عماد الدين يستعطفه ويستميله ، فأرسل
إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد ، فاستقرت القاعدة على
مائة ألف دينار يحملها عماد الدين ، فحمل إليه عشرين ألف دينار ، أكثرها
عروض ، وتنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة عماد الدين ،
فأطلق له الباقي مداراة واستمالة له ، وحفظا لقلبه .

وكان عماد الدين عنده من الدهاء والمكر شيء كثير ، فمن جملة ما فعله :
أنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازي لا يزال في خدمة السلطان مسعود — سفيراً
وحضراً — نائباً عن أبيه في الخدمة ، فأرسل إليه يأمره بالهرب^(١) من السلطان
[مسعود] إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه نصير الدين جُتَر بالموصل يأمره بمنع
سيف الدين من الدخول إلى الموصل والوصول إليه ، فهرب سيف الدين غازي
ووصل إلى الموصل ، فمنعه نصير الدين من الدخول إلى الموصل^(٢) ، ولما بلغ الخبر
إلى والده أرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولاً
إلى السلطان يقول له : « إن ولدي هرب [خوفاً]^(٣) لما رأى تغير السلطان على ،
وقد أعدته إلى الخدمة ، ولم أجمع به ، فإنه مملوكك ، والبلاد لك » . فخلَّ هذا
عند السلطان محلاً عظيماً .

(١) في س (١٩) : « بالقرب » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) في الأصل بعد لفظ « الموصل » : « إلى والده » وما لفظان زائدان لا يستقيم بهما
المعنى ، فحذفناهما ، ولا وجود لهما في س ؛ وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « الدخول
إلى الموصل الوصول إليه » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٩) ، وابن الأثير .

وفي هذه السنة سار عماد الدين إلى ديار بكر ، ففتح طَنْزَةَ (١) ، وأَسْعِرْدَ (٢) ،
والمَعْدَنَ (٣) ، وَحِيزَانَ (٤) ، وحصن [٥٤] الرُّوقِ (٥) ، وفطليس (٦) ، وباناسا (٧)
و حصن ذى القرنين (٨) ، وغير ذلك ؛ وملك من [بلد ماردين مما هو بيد] (٩) الفرنج
يومئذ جملين ، والمُؤَزَّزَ (١٠) ، وتل موزن ، وغيرها من حصون شَبَخْتَانَ (١١) ،
وقصد مدينة آمد ، وحاتى (١٢) ، وحصرهما ، فلم ينل غرضا فرحل عنهما .

وفيهما سَيرَ عماد الدين عسكراً إلى عانة ففتحوها .

- (١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي عند (الفارق ،
هامش ص ١٣٧ من ابن القلانسي) : « طَنْزَى » .
- (٢) كذا في الأصل وفي ابن القلانسي وابن الأثير ، وقد رسمها ياقوت : « إِسْعِرْت »
و « سَعِرْت » وقال إنها مدينة بديار بكر قرب أرزن الروم وحيزان .
- (٣) لم يذكرها ياقوت ، وإنما أشار (الفارق ، هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسي)
إلى أنها إحدى مدن ديار بكر .
- (٤) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد قرب إِسْعِرْت من ديار بكر .
- (٥) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ٣٦) : « حصن الدوق » .
- (٦) كذا في الأصل وعند الفارق (هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسي) ، وهي في (ابن
الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « مطليس » ؛ ولم يستطع الناشر تحقيق اللفظ أو التعريف به .
- (٧) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير) : « حصن بانسية » .
- (٨) في الأصل : « ذى القرنين » ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت) و (ابن الأثير)
و (الفارق) ، وقد ذكر ياقوت أنه حصن بقرب آمد .
- (٩) في الأصل : « وملك من بلاد الفرنج » ، وما هنا صيغة ابن الأثير وهي أوضح .
- (١٠) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم .
- (١١) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، فقد قال عند تعريف « تل بسمه » إنه بلد له ذكر
من نواحي ديار ربيعة ثم ناحية شَبَخْتَانَ .
- (١٢) ذكر ياقوت أنها مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد .

ذكر فتح الرها

كان الفرنج — لعنهم الله — قد عظم (١) شرمهم بالبلاد الجزرية ، وامتدت غاراتهم إلى أقاصيها وأدانيها ، وبلغت إلى آمد ورأس عين ونصيبين والركة ، وكانت لهم الرها وسروج والبيرة وغير ذلك ، وكانت جميع هذه الأعمال لجوسلين ، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم ، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصن الرها اجتمع بها من الفرنج من يمنعه ، فيتعذر فتحها لما هي عليه من الحصانة ، فاشتغل بقصد ديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصدهم ، فاطمأنوا لذلك ، وفارق جوسلين (٢) الرها ، وعبر الفرات إلى بلاده الغربية — وكانت له تل باشرو وغيرها — وجاءت عيون (٣) الأمير عماد الدين إليه بذلك ، فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه ، وجمع الأمراء عنده ، ومُدَّ السباط ، وقال : « لا يأكل معي على مائدتى هذه إلا من يطعن معي غداً باب الرها » ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يُعرف ، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب . فقال الأمير لذلك الصبي : « ما أنت وهذا المقام ؟ » فقال [عماد الدين] : « دعه ، فإنى أرى والله وجهها لا يتخلف عنى » (٤) .

(١) كذا في الأصل ، وفي س (ص ١٩) : « عبر » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧) : « عم » .

(٢) هو جوسلين الثانى صاحب الرها في ذلك الحين ، وكان على جانب كبير من الرعونة منكبا على ملذاته الخاصة ، مما دفعه إلى إثارة الاقامة في تل باشرو وترك الرها في حماية جماعة من الأرمن والسوريان غير القادرين على حمايتها .

(٣) كان على رأس هؤلاء العميون فضل الله بن جعفر نائب عماد الدين على حران ، أنظر (حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٣٥) .

(٤) النص هنا وفيما يلى من حوادث استعادة الرها يتفق مع نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧ وما بعدها) اتفاقا يكاد يكون تاما .

وسار عماد الدين في العساكر — وذلك في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة — فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج — ومعه ذلك الصبي — ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين عرضاً ، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله ، وسلم عماد الدين ، ونازل البلد محاصراً له ثمانية وعشرين يوماً ، وزحف إليه عدة دفعات ، ونقب النقبابون سور البلد فسقطت البدنة ، وملك البلد عنوة وقهراً ، وحصر القلعة فملكها وذلك لأربع عشرة بقية (١) من جمادى الآخرة من هذه [٥٥] السنة ، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذرية ، وقتلوا الرجال .

ورأى الأمير عماد الدين البلد فأعجبه ، ورأى أنه لا يجوز في السياسة (٢) تخريب مثله ، فنودي في العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما اغتنموا من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يُفقد إلا النادر ، وعاد البلد إلى حاله ، ثم تسلم سروج (٣) وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرق الفرات ما عدا البيرة ، ثم سار إلى البيرة (٤) فحصرها ، وكان الفرنج قد أكتروا ميرتها ورجالها .

(١) في س (١٩) : « خلت » ، وعن تحقيق التاريخ انظر : (ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٩) حيث يذكر أن المدينة سقطت في السادس والعشرين من جمادى الآخرة .

(٢) في س (١٩) : « ورأى الناس يدرو في السياسة . . إلخ » .

(٣) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها بلدة قريبة من حرّان من ديارمضر .

أنظر أيضاً : (R. Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale.. Paris, 1927. P.P. 241, 480, 519, 522).

(٤) إلى هنا تنتهي ص ٩ ب من نسخة س ونهايتها ينتهي الاتفاق بين النسختين ، وبين

ص ٩ ب وص ١٠ اسقط يتضمن الحوادث التالية . والبيرة المشار إليها هنا بلد قرب ميمساط

بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة . أنظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة :

الدر المنتخب ، ص ١٥٧ ، ٢١٧) .

(١) ذكر مقتل نصير الدين جَقَر النائب بالموصل

كان الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عند عماد الدين بالموصل وهو (٢) أتابكه ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وكان عماد الدين يظهر للخلفاء والسلطين وأصحاب الأطراف أن البلاد للملك ألب أرسلان ، وهو نائبه بها ، والخطبة له في جميع بلاده ، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود ليخطب له (٣) بالسلطنة ، ويملك بغداد وسائر الممالك باسمه ، وكان نصير الدين النائب كل يوم يقصده ليقوم بخدمة إن عرضت له ، فحسّن بعض المفسدين للملك ألب أرسلان قتل نصير الدين ، وقال : « إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد » . فصَدَّقَ هذا القول ووقع في نفسه ، وواطأ على ذلك جماعة من الأجناد ، فلما دخل نصير الدين عليه للعادة وثبوا عليه فقتلوه ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا ذلك يتفرون ، ويخرج الملك ألب أرسلان ويملك البلاد .

فلما رأى أصحاب نصير الدين الرأس قاتلوا من بالدار ، واجتمع عليهم خلق كثير من أصحاب عماد الدين وأكابر دولته ، ثم دخل القاضي تاج الدين بجي ابن الشهرزورى إلى الملك وخدعه ، وقال له : « يامولانا ، لم تجرد من هذا الكلب ؟ هو وأستاذه ممالكك ، والحمد لله الذى أراحنا منه ومن صاحبه على يدك ، وما الذى يقعدك فى هذه الدار ؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح ، وتملك البلد ، وتجمع لك الجند ، وليس دون البلاد بعد الموصل مانع » . فقام معه وركب ، وصعد

(١) ما يقابل هذه الصفحة وما يليها مفقود فى س ، ولتصحح النص سنقارن بينه وبين ماورد فى ابن الأثير .

(٢) الضمير هنا يعود على عماد الدين أى أن عماد الدين كان أتابكا للملك ألب أرسلان ولكن السلطة الحقيقية كلها كانت بيد عماد الدين .

(٣) الضمير هنا يعود على الملك ألب أرسلان .

إلى القلعة ، وتقدم تاج الدين إلى النقيب بها والأجناد أن يفتحوا الباب ويسلموه ،
[٥٦] ويعتقلوه ، ففتحوا الباب ، ودخل الملك والقاضي إليهم ، ومعهما من أعان
على قتل نصير الدين ، فسُجِنوا ، واعتُقل الملك ألب أرسلان بالقلعة .

ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة

وتملك المسلمين لها

ولما بلغت الأخبار إلى عماد الدين زكي بقتل نائبه نصير الدين وهو يحاصر
قلعة البيرة وقد أشرف على أخذها ، خاف أن تختلف عليه البلاد الشرقية بعد قتل
نصير الدين ، فرحل عن البيرة ، وأرسل الأمير زين الدين على كوجك^(١) بن
بُكتِكين^(٢) إلى قلعة الموصل نائباً عنه بها موضع نصير الدين ، وأقام عماد الدين
ينتظر الخبر ، فخاف من البيرة من الفرنج أن يعود^(٣) إليهم ، وكانوا يخافونه خوفاً
شديداً ، فكاتبوا صاحب ماردين ، وسلموها إليه ، فملكها المسلمون ، ولم يبق شيء
مما هو شرقي الفرات بيد الافرنج ، ولما تولى زين الدين على كوجك الموصل عدل
في الناس وأحسن السيرة ، وسلك غير طريقة نصير الدين ، فاطمأن الناس ، وأمنوا ،
وازدادت البلاد عمارة ، وكانت بيده مدينة إربل ، فلنذكر صيرورتها إليه .

(١) في الأصل هنا وفيما يلي : « على كوجل بن بكتكين » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة
(ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨) و (أبو شامة : الروشتين ،
ج ١ ، ص ٤١) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٩) . وسيدأب الناشر على تصحيح
الاسم فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك . وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٠)
أن زين الدين كان قصيرا ، ولهذا قيل له « كچك » وهو لفظ عجمي معناه بالمرءى صغير ،
أي صغير القدر .

(٢) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، طبعة محي الدين عبد الحميد ،
ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

(٣) في الأصل : « أن يعودوا إليهم وكانوا يخافون خوفاً شديداً » ولا يستقيم المعنى
بهذا النص وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٩) .

ذكر استيلاء زين الدين على كوجك على إربل

كانت إربل وأعمالها لأبي الهيجا الكردي الهذباني ولورثته من بعده ، ثم تغلبت دولة الأتراك السلجوقية عليها وعلى غيرها من البلاد ، وتنقلت إلى أن صارت للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وهو يومئذ صاحب مراغة ، قبل أن تصير السلطنة إليه ، وله فيها نائب من قبله ، فسار إليها الأمير عماد الدين زنكي ونازلها في سنة ست وعشرين وخمسة ، وهجم البلد وامتنعت عليه القلعة ، فأقام يحاصرها ، فسار إليه السلطان مسعود من مراغة ، فرحل عنها عماد الدين ونزل الزاب ، واندفعت الأتقال إلى الموصل ، وأقام غربي الفرات ، ونوابه يحفظون الخايض ، فترددت الرسل بينهم إلى أن استقر أن يسير عماد الدين في خدمة السلطان ليجلسه في السلطنة ، ويكلف الإمام المسترشد بالله أن يخطب له في بغداد ، وفي البلاد ، ويسلم إليه إربل ، فلما تقررت القاعدة ، وجرت بينهما الأيمان سلم إليه إربل ، فقسامها الأمير عماد الدين ، وسلمها إلى الأمير زين الدين على كوجك ، [٥٧] ثم سار عماد الدين إلى بغداد غربي الماء ، وسار السلطان مسعود شرقي الماء ، وتواعدا أن يلتقيا ببغداد ، فوصل من بغداد قراجا الساقى وكبس عماد الدين ، فكسر السكر وأسر كل من فيه ، ولم ينبج سوى عماد الدين ، قطع الشط في زورق وهو مجروح ، ووصل إلى الموصل ، ولم تزل إربل في يد زين الدين على وولده بعده إلى آخر أيام الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري ^(١) بن زين الدين .

(١) ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) وهو لفظ تركي معناه الذئب الأثوزق . انظر ترجمته في نفس المرجع ، وللاستزادة من أخبار الدولة التي أنشأها زين الدين على كوجك في إربل وما حولها والتي حكمها أولاده من بعده انظر : (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « إربل ») .

ذكر منازلة عماد الدين قلعة جعبر

قد ذكرنا أن السلطان جلال الدولة ملكشاه لما تسلم حلب عوّض صاحبها عنها — سالم بن مالك بن بدران العقيلي ابن عم شرف الدولة مسلم بن قریش — قلعة جعبر ، وكان قد ملك قلعة جعبر — كما تقدم ذكره — ، فتسلم سالم بن مالك قلعة جعبر ، وبقيت في يده ويد ولده .

فلما كانت سنة إحدى وأربعين وخمسة قصد عماد الدين قلعة جعبر — وصاحبها يومئذ مالك بن سالم بن مالك بن بدر العقيلي — وحاصرها ، وسيّر جيشا إلى قلعة فنك (١) فحصرها — وصاحبها يومئذ الأمير حسام الدين الكردي البشنوي ، وكانت بيد البشنوية من مدة تزيد على ثلثائة سنة — وكان قصد عماد الدين بأن لا يترك قلعة في أعماله متوسطة في بلاده إلا ويستولى عليها مبالغة في الحزم والاحتياط ، وطالت مدة حصره لقلعة جعبر ولم يقيسر له فتحها ، فسيّر إلى صاحبها رسولا الأمير حسّان صاحب منبج لمودة كانت بينهما في معنى تسليمها ، وقال : « تضمن له الإقطاع الكبير والمال الجليل الجزيل فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا قل له : والله لأقيم عليها إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقى عليك ، ومن الذي يمنعك مني » . فصعد حسّان إلى القلعة ، وأدى رسالة عماد الدين إليه ، ووعدته القمويض عنها وأرغبه ، فامتنع من التسليم ، فقال له حسّان إلى قوله : « وهو يقول لك من يمنعك مني ؟ » ، فقال : « يمنعني منه الذي يمنعك من الأمير بك (٢) » . ويشير إلى منازلة بك

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة منيعة لا تكراد البشنوية قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من فرسخين .

(٢) هو نور الدولة بك بن بهرام بن ارتق ، وقد ضبط هكذا « Balyg » في : (Zambaur, p. Cit. Op. 230) ، ولسكنه عند (Amedroz) في (مقدمة ابن القلانسي)

ابن بهرام بن أرثق منبج بعد أن أسرَ حسانَ صاحبها ولم يبق إلا أخذها ، فجاء سهمُ غَرَبٍ^(١) فوقع في نحر بليك فأهلكه ، وخلص حسان منه ؛ وكانت واقعة عماد الدين شبيهة بواقعة بليك [٥٨] ومن تعالى^(٢) على الله تعالى أكذبه ، وقد ورد حكاية عن الله تعالى : « أنا الله ربُّ مكة لا أتمت لمقتدرٍ أمراً » .

فعاد حسانُ إلى عماد الدين وأخبره بامتناعه ، ولم يذكر له حديث بليك .

ذكر مقتل الشهيد عماد الدين أتابك زنكي

ابن آق سنقر — رحمه الله —

ولما كانت ليلة الأحد لست مضي من ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وأربعين وخمسة — دخل على أتابك عماد الدين صبي من غلمانه أفرنجي — اسمه برنقش^(٣) — وجماعة من المماليك ، فقتلوه على فراشه ، وهربوا إلى قلعة جعبر ، وأخبروا أهلها بقتله ، ففرحوا بذلك ، وصاحوا على شرافات القلعة ، وأخبروا بقتله العسكر ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، فحكى ابن الأثير — رحمه الله^(٢) — عن أبيه ، عن بعض خواص عماد الدين ، قال : « دخلت إليه في الحال وهو حي ،

(١) جاء في اللسان : « أصابه سهم غَرَبٍ وغَرَبٍ إذا كان لا يدري من رماه ، وقيل إذا أتاه من حيث لا يدري ، وقيل إذا تمعد به غيره فأصابه » .

(٢) في الأصل : « تالي » وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي ، ص ٢٨٤ و ٢٨٨) : « برنقش » ؛ وفي (أبو شامة : الروضتين ، ص ٤٦ و ٤٢) : « برنقش » ؛ أما ابن الأثير وسبط ابن الجوزي فلم ينصا على اسمه . أنظر أيضاً : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٤٠) . ويبدو أن صاحب جعبر هو الذي حرض على قتله بدليل أن قتله فروا إلى قلعة جعبر بعيد قتله مباشرة .

(٤) لهذا الداء أهمية خاصة ، فهو يحدد تاريخ البدء في تأليف هذا الكتاب ويجمعه بعد سنة ٦٣٠ هـ وهي السنة التي توفي فيها ابن الأثير المؤرخ .

فحين رآنى ظن أنى أريد قتله ، فأشار إلى بأصبعه السبابة يستعظفنى ، فوقفت (١) من هيئته ، وقلت يا مولانا : من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام ، وفاضت نفسه لوقته .

قال الأمير مؤيد الدولة بن منقز : « فكأن الشاعر — وهو المتنبي —
عناه بقوله :

وقد قابل الأقرانَ حتى قَتَلْتَهُ بأضعفِ قرْنٍ في أذلِّ مكانٍ

ذكر (٢) سيرته وصفته — رحمه الله —

كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، حسن العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان عمره قد زاد على ستين سنة ، وكان صارما حازما شجاعا شهبا مقداما ، عظيم الهمة أبي النفس ، قد خافه الملوك ، وارتاع لذكره أصحاب الأطراف ، وكان الخليفة والسلطان يجاور بلادهما بلاده ، وكان يجاوره ابن سكران صاحب خلاط ، وداود ابن سقران صاحب حصن كيفا ، وصاحب آمد ، وصاحب ماردين ، والفرنج ، وصاحب دمشق ، وقد أحاطت هذه الممالك بمملكته من سائر جهاتها ، ومع هذا مرة يقصد هذا ، ومرة يأخذ من هذا ، ومرة يصانع هذا إلى أن ملك من كل من (٣) يليه طرفا ، وكان الكل يتقونه ويدارونه ، ويخافون منه ، وكان شديد الهيبة على رعيته وعساكره ، عظيم الهيبة في صدورهم حسن السياسة ، لا يقدر القوى على ظم

(١) نص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) وهو الذى ينقل عنه هنا : « فوقت » وهى أكثر اتساقا مع المعنى .

(٢) هنا يلتقى النص مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما فى ص (١١٠٨) من تلك النسخة .

(٣) فى الأصل : « فى كل من يليه » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) .

الضعيف ، وكانت البلاد [٥٩] خراباً قبل أن يملكها فعمَّها العدل ^(١) ، وعمرت لما ملكها ، وقد ذكر أنه كان عنده في مبدأ أمره ظلم ، فسمع ليلة وهو نازل بجمة شخصاً يغنى على شط العاصي :

« اعدلوا ما دام أمركم نافذا في النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر »
فبكى وتبدلت نيته في الظلم ، وأخذ نفسه من حينئذ بالعدل .

ومما يحكى عنه : أنه دخل مرة الجزيرة في الشتاء ، ومعه أمير من أكبر أمرائه يقال له عز الدين الديبسي ^(٢) ، كان من جملة إقطاعه مدينة دَقَوْقا ^(٣) ، فنزل في دار إنسان يهودى من أهل الجزيرة ، فاستغاث [اليهودى] إلى عماد الدين ، وأنهى حاله إليه ، فنظر إلى الديبسي ، فتأخر ودخل البلد وأخرج برَّكه ^(٤) وخيامه ، قال الخاكي لهذه الحكاية « فلقد رأيت غلماناً ينصبون خيامه في الوحل ، وقد جعلوا على الأرض تبناً يقيمهم ^(٥) الطين ، وخرج قنزها » .

وكان [عماد الدين] ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، ويقول : « مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم إلى الأملاك ؟ فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية ، وتعدوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم » .

-
- (١) في س (س ١٠٨) : « فلما ملكها عمها بالعدل ، وعمرت لنا ملكها » .
(٢) في الأصل : « الديبسي » ، وهى كذلك في س (١٠٨) وإنما بدون نقط ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة مصدر هذه القصة وهو (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٢) .
(٣) هكذا ضبطها ياقوت ، ويقال لها أيضاً « دقواق » ، وهى مدينة بين إربل وبنداد .
(٤) البرك المتاع الخاص من ثياب وقاش . انظر : (Dozy : Supp Dict. Arab)
(٥) في الأصل : « يقيها » والتصحيح عن ابن الأثير .

وكان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، وكان له في دَرَكَاة^(١) السلطان من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد ، وكان يغرم على ذلك الأموال الجميلة ، وكان يصل^(٢) إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين ، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير ، وكان يقول : « إذا لم يُعرف الصغير لئمن صار كبيراً » ، وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له ، وأرسل إليه من يُسيره ، ولا يتركه يجتمع بأحد [٦٠] من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة .

وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ، فسلم يوماً خُشْكُنَانِيكَه^(٣) إلى طشت دار^(٤) له ، وقال : « إحتفظ هذه » . فبقي نحو سنة لا تفارقه الخُشْكُنَانِيكَه خوفاً أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك ، قال له : « أين الخُشْكُنَانِيكَه ؟ » فأخرجها من منديل وقدمها

(١) دَرَكَاه - والجمع دركاوت - من أصل فارسي « دَرَكَاه » وقد عرفها : Dozy : Supp. Dict. Arab. بأنها : الساحة أمام قصر السلطان أو الدهليز أو الرواق أو المدخل Cour devant un palais, vestibule, portique, porte, etc).

(٢) في س (١٠٨ ب) : « وكان ينهى إليه » .

(٣) خُشْكُنَانِيكَه أو خُشْكُنَانِيكَه من أصل فارسي ، نوع من الأطعمة عرفه : Dozy : Supp. Dict. Arab. بأنه نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ، ويكون على هيئة الهلال . أنظر أيضاً : (الجواليقي : المغرب ، ص ١٣٤) و (الجاحظ : البخلاء ، طبعة الدكتور طه الحاجري ، ص ١١٠ و ٣٣٣) .

(٤) الطشت لفظ عامي ، وصوابه الطشت ، وهو معرب عن اللفظ الفارسي « تست » والطشت دار أحد الغلمان المشرفين على الطشت خاناه ، وهي كما عرف (القلشندي : صريح الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٠ - ١١) « بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تفسل فيه الأيدي ، والطشت الذي يفسل فيه القماش السلطاني . . وفيه ما يلبسه السلطان من الكوته والأفنية وسائر الثياب ، والسيف والخف والرموزة . . الخ » أنظر أيضاً : (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) و (محيط المحيط) .

بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : « مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً بحصن » ، وأمر له بدزدارية قلعة كواشي^(١) ، فبقى فيها إلى أن قتل عماد الدين .

وكان لا يمكن أحداً^(٢) من خدمه من مفارقة بلاده ويقول : « إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطلع العدو فيها زالت الهيبة ، وتطرقت^(٣) الخصوم إليها » .

ومن جميل سيرته أنه أسكن الأمير بهاء الدين ياروق التركمان وأصحابه^(٤) بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملّكهم ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج ، فكانوا يراوون الفرنج القتال ويغادونهم ، وسدّوا ذلك الثغر^(٥) ، ولم يزالوا على ذلك إلى سنة ستمائة .

وكانت تضرب بشجاعته الأمثال ، ومما يحكى عنه : أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل — قبل أن يملك — حصار طبرية وهي للفرنج ، ووصلت طعنته إلى باب البلد وأثرت فيه ، وحمل أيضاً على قلعة عقر الحميدية^(٦) ، وهي على جبل عال ، فوصلت طعنته إلى سورها .

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة في الجبال التي في شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لراجل واحد ، وكانت قديماً تسمى « أردمشت » وكواشي اسم لها محدث .

(٢) في الأصل ، وفي س (١٠٨ ب) : « أحد » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣) .

(٣) في س : « تفرقت » ، وما هنا أصح ، وهو متفق مع ما في الروضتين .

(٤) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣) جملة توضح من هم هؤلاء الأصحاب وهي : « ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير المبارك (٩) إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب . . إلخ » .

(٥) في الأصل : « وشدّوا ذلك » وقد صحح بعد مراجعة س (١٠٩) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

(٦) ذكر ياقوت أنها قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد وهي شرق الموصل .

وكان شديد الغيرة، لا سيما على نساء الأجناد، وكان يتعرض إليهن من الذنوب التي لا تغتفر، وكان يقول: « إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقل ما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن »؛ وكان قد ولى قلعة الجزيرة دزداراً يقال له نور الدين حسن البربطي^(١)، وكان من خواصه، وكان غير مرضى السيرة، فبلغه أنه يتعرض للحرم، فأمر حاجبه صلاح الدين محمد ابن أيوب الباغيساني^(٢) — صاحب حماة — أن يسير مجتهداً، ويدخل الجزيرة بغتة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره [٦١] وقلع عينيّه، عقوبة له لنظره بهما إلى الحرم، ثم يصلبه؛ فسار صلاح الدين مجتهداً، فلم يشعر البربطي^(١) به، إلا وهو على باب البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد، وقال له: « المولى أتابك يسلم عليك، ويريد أن يعلى قدرك ويرفع منزلتك، ويسلم إليك قلعة حلب، ويوليكم جميع البلاد الشامية، لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز^(٣) وتحذّر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح بذلك، ولم يترك له من أمواله شيئاً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله، ولم يجسر أحد بعده على أفعاله القبيحة.

(١) كذا في الأصل وفي (الروضتين، ج ١، ص ٤٤) وهو في س (١١٠٩): « البوطي ».

(٢) في الأصل: « الباغيساني »، وفي س (١١٠٩): « الباغيشاني »، وفي (الروضتين، ج ١، ص ٤٤): « الباغيسالي »، وما هنا عن: (ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٧)، وهو في ذيل تلك الصفحة نقلاً عن (الفارقي): « البغيساني ». أنظر أيضاً: *Ibn Al-Qalanisi ; Traduction Francaise par : Roger Le Tourneau. PP. 20, 23, 35, 41, 129*، انظر أيضاً ما فات هنا ص ١٩، هامش ٢.

(٣) في س، وفي الروضتين: « فتجهز ». وحذر السفينة يحدرها أرسلها إلى أسفل (السان).

وكان — رحمه الله — كثير الصدقات ، وكان يتصدق في كل جمعة بمائة دينار أميرى [ظاهراً^(١)] ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به ، وركب يوماً فئرت به دابته ، فكاد يسقط عنها ، فاستدعى أميراً كان معه ، وقال له كلاماً لم يفهمه ، ولم يجسر أن يستفهمه عنه ، فعاد إلى بيته ، وودّع أهله عازماً على الهرب ، فقالت زوجته : « ما ذنبك وما حملك على الهرب ؟ » فذكر لها الحال ، فقالت له : « إن نصير الدين له بك عناية ، فاذكر له قصتك ، وافعل ما يأمر بك به » . فقال : « أخاف أن يمنعني من الهرب وأهلك » . فلم تزل به زوجته تراجمه ، وتقوى عزمه إلى أن عرّف نصير الدين حاله ، فضحك منه ، وقال له : « خذ هذه الصرة الدنانير واحماها إليه ، فهي التي أراد » . فقال : « الله ؛ الله^(٢) في دمي ونفسي » . فقال : « لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة » . فحماها إليه ، فحين رآه قال : « أمعك شيء ؟ » قال : « نعم » ، فأمره أن يتصدق [به] ، فلما فرغ من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره ، وقال : « من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ » فقال : « إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم ، يرسل إلى يأخذه من الليل ، وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض ، فأرسلك إلى ، فعلمت أنه ذكر الصدقة » .

ولقد حكى من هيئته ما هو أشد من هذا : أنه خرج يوماً من قلعة الجزيرة [٦٢] من باب السر خلوةً وملاحه نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية ، وقال له : « إقعد » . فحين رأى عماد الدين سقط إلى الأرض ، فحركه فوجدوه ميتاً .

(١) ما بين الحاصرتين إضافة عن الروضتين .

(٢) ذكر لفظ الجلالة في الأصل مرة واحدة ، ولكنه كرر في س (١٠٩ ب) ، وفي

(الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

ومن جميل أوصافه وحسنها أنه كان بطيء التلون بعيد التغير،^(١) لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قُتل [إلا] بذنب عظيم يوجب التغير^(٢) ، وأن الأمراء الذين كانوا معه أولاً [هم الذين]^(٣) بقوا معه إلى آخر وقت ، إلا من اخترمه الموت منهم ، ولهذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له ، وكان يخطب الرجال ذوى الهم العالية ، والآراء الصائبة ، ويوسع عليهم في أرزاقهم ، فيسهل عليهم فعل الجميل ، فلهذا كان إذا قدم إنسانٌ عسكرياً لم يكن غريباً : إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه ، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل^(٤) الديوان ، وإن كان عالماً قصد القضاة والفقهاء من أصحابه فيؤانسونه^(٥) ويحسنون إليه .

ذكر ما كان من الملك ألب أرسلان الخفاجي^(٦)

ولد السلطان بعد قتل عماد الدين

قد تقدم ذكرنا أن الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي — الذى كان عماد الدين أتابكة — قتل نصير الدين فى الموصل ، وطمع فى الاستيلاء على البلاد ، وأن القاضى تاج الدين بن الشهرزورى خدعه حتى صعد

(١) ما بين الرقبن ساقط من س ، وقد أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم به المعنى بمد مرجمته على : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

(٢) فى س : « أصحاب » .

(٣) فى الأصل : « فيؤانسونه » ، وما هنا عن س (١١١٠) و (الروضتين ،

ج ١ ، ص ٤٤) .

(٤) يذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٤١) تصحيحاً لهذا الاسم فيقول : « وقدوم (أى ابن الأثير) فى قوله : ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ، فالخفاجى غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية ، فانه قال : كان مع زنى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، أحدهما يسمى ألب أرسلان وهو فى معقل من معاقل سنجار ، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجى وهو بالموصل . . إلخ » .

إلى القلعة واعتقل بها ، فلما قُتل عماد الدين كان في صحبة الملك ألب أرسلان فركب واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل الوزير جمال الدين الأصفهاني إلى الأمير صلاح الدين الياغيساني^(١) يقول : « المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا — وكان بينهما مشاحنة — ونسلك طريقاً تبقى به البلاد والملك في أولاد صاحبنا ، فإن الملك ألب أرسلان قد طمع في البلاد ، واجتمعت عليه العساكر ، وإن لم تتلاف هذا الأمر في أوله ونقداركة في ابتدائه اتسع الخرق ، ولم يمكن رقعته »^(٢)

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فركب الوزير جمال الدين [٦٣] إلى الملك [ألب أرسلان]^(٣) ، وضمن له فتح البلاد ، وأطمعه فيها ومعه صلاح الدين ، وقال له : « إن [عماد الدين] أتاك كان نائباً عنك في البلاد ، وباسمك كنا نطيعه . فصدقهما ، وقربهما طمعا في أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه ، وأرسلنا إلى الأمير زين الدين على كوجك بن بكتكين صاحب إربل — وهو النائب عن عماد الدين بالموصل — يعرفانه قتل الشهيد عماد الدين ، ويأمرانه أن يرسل إلى الأمير سيف الدين غازي بن زنكي وهو ولده الأكبر — وكان بشهرزور وهي إقطاعه من أبيه — ليحضر إلى الموصل ويملكها^(٤) ، ففعل زين الدين ذلك ، وأرسل إلى سيف الدين واستقدمه ، فقدم إلى الموصل وتسلمها^(٥) .

وكان نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي لما قُتل أبوه في العسكر^(٥) أخذ خاتمه من يده ، وسار إلى حلب فملكها ، واتفق صلاح الدين الياغيساني — صاحب حماة — والوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني على حفظ دولة ولد عماد الدين ،

(١) في الأصل : « الياغيساني » ، أنظر ما فات ، س ١٠٤ ، هامش ٢

(٢) في س (١١١٠) : « رفوه » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠ ب) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) في س (١١٠ ب) : « المعسكر » .

والمكر بالملك ألب أرسلان الساجوق ، وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات ، وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان^(١)] : « إن من الرأي أن تسيّر الصلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدبر أمره » ، فأذن له [فسار^(١)] ، وبقي جمال الدين وحده مع الملك فأخذ وقصد [به^(١)] الرقة ، واشتغل فيها بشرب الخمر والخلوة بالنساء والمغنيات ، وأراد أن يعطى الأمراء شيئا ففعله خوفاً أن تميل قلوبهم إليه ، وقال^(٢) : « لهم منك الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة » .

وشرع جمال الدين يستميل العسكر^(٣) ويحلفهم لسيف الدين غازي بن عماد الدين واحداً بعد واحد ، وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك ، وأقام الملك بالرقة عدة أيام ، ثم سار إلى ماكسين ، فتركه^(٤) بها عدة أيام مشغولاً بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، ولما استقر قدم سيف الدين بالموصل قوى جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك ألب أرسلان إلى سنجار ، وأرسل إلى دزدارها وقال له : [٦٤] « لا تسلم البلد ، ولا تمكن أحداً من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : « أنا تبع الموصل ، فمضى دخالت الموصل سلمت إليك » . ففعل الدزدار ذلك .

وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان] : « المصاحبة أنا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة ، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد » ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك ،

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) ، أما نص س (١١٠ ب) فمختلف قليلاً وهو : « ... قال : فطلبوا الأمراء من الملك ألب أرسلان ماك (كذا) ، قال : وجعل يقول للأمرء : اكمل الإقطاع والنعم الوافرة » .

(٣) في س : « قلوب المساكر » .

(٤) في س (١١١) : « فنزل » .

فبقى في قلة من العسكر ، فساروا (١) إلى [مدينة (٢)] بَلَد ، وعبر الملك ألب أرسلان دجلة من هناك ، ودخل الوزير جمال الدين الموصل ، وأرسل الأمير عز الدين أتابك الديسي (٣) في عسكر إلى الملك ألب أرسلان — وهو في نفر يسير — فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به ، فذكر أنه خُفِق بوتر قوس .

واستقر المُلْكُ بالموصل لسيف الدين غازي بن زنكي ، وأقر الأمير زين الدين علي كوجك (٤) على ما كان عليه من ولاية الموصل ، ومعه جمال الدين محمد بن علي — وزيره — ، وأرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، فاستحلفوه لسيف الدين [غازي] ، فخلف له وأقرّه على البلاد ، وأرسل إليه انخلع ؛ وقد ذكرنا أنه كان في خدمته في حياة أبيه ، وكان السلطان مسعود يحبه ويأنس به ، فلم يتوقف في تقرير البلاد له والحلف له .

ذكر أخبار الأيام النورية

قد ذكرنا مقتل الأمير عماد الدين وتملك ولده سيف الدين غازي الأكبر الموصل ، وتملك ولده نور الدين محمود حلب ، وكانت بعلبك قد ملكها الشهيد ، واستناب بها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي والد الملك الناصر [صلاح الدين (٥)] ،

(١) في الأصل : « فسار » ، وقد صححت ، بعد مراجعة س (١١١) و (الروضتين ج ١ ، ص ٤٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ؛ والنص في س : « إلى بلد الموصل » وهو خطأ ، وبلد — ويقال بَلَط — مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ ؛ (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) في الأصل ، وفي س : « الديسي » ، أنظر ماقات ، ص ١٠١ ، هامش ٢

(٤) في الأصل : « كوجل » ، أنظر ماقات ، ص ٢٨ ، هامش ١

(٥) ما بين الحاصرتين عن س .

فلما بلغه وفاة الشهيد كاتبه الأمير مجير الدين آبق^(١) بن محمد بن بوري بن طفتكين — صاحب دمشق — في تسليمها ، وبذل له أموالا [كثيرة^(٢)] وقرايا من أعمال دمشق ، فسلمها إليه ، وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق ، وأقام بها ، وذلك لأربع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وأربعين [٦٥] وخمسمائة — وتسلم نور الدين من حاجب أبيه صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني^(٣) حماة ، وعوضه عنها مدينة حصص وقلعتها ، قلت : وهكذا ذكر ابن منقز ؛ وذكر ابن النديم : أن حصص كانت بيد الأمير سيف الدين غازي ، وإنما تسلمها نور الدين بعد ، على ما سنده إن شاء الله تعالى .

ذكر عصيان الرها^(٤) وعودها إلى المسلمين

وكنا قد ذكرنا افتتاح الرها ، افتتحها الأمير عماد الدين زنكي من الإفرنج ، وكانت لجوسلين بن جوسلين^(٥) ، وكانت له أيضا من غربي الفرات تل باشر ، فلما قتل الشهيد راسل جوسلين^(٥) أهل الرها ، وعامتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان على المسلمين وتسليم البلد إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدتهم^(٦)

(١) في الأصل : « آبق » وصحة الاسم « آبق Abaq » . أنظر : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨١) ، (Zambaur, Op. Cit. P. 225) وقد حكم مجير الدين آبق مدينة دمشق من سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥٤٩ حيث انتقل ملكها إلى نور الدين محمود بن زنكي وتوفى مجير الدين سنة ٥٦٤ وهو آخر من حكم دمشق من الأسرة البورية . هذا وسيصح اسمه فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل ، وفي س : « الباغيساني » ؛ أنظر ما فات ، ص ١٠٤ ، هامش ٢

(٤) في س (١١١ ب) : « أهل الرها » .

(٥) في س (١١١ ب) : « لجوسلين الفرنجي » .

(٦) في س : « وواعدوه يوما » .

يوما يصل إليهم فيه ، وسار في عساكره إلى الرها ، فلك البلد ، وعصت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، فقاتلهم ، وباع ذلك نور الدين — رحمه الله — وهو بحلب ، فسار مجدا إليها بعسكره ، فلما قاربها خرج جوساين منها هاربا إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة فتهبها وسبى أهلها^(١) ، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل ، ولما بلغ خبر الفرنج إلى سيف الدين بالموصل^(٢) جهز العساكر إلى الرها فوصلت وقد ملكها نور الدين ، فبقيت في يده ، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين .

وفي هذه السنة رحل الأمير سيف الدين إلى الشام ، وكان أخوه نور الدين قد خافه واستشعر منه ، وأخوه سيف الدين يكاتبه ويستميله ، فلما وصل سيف الدين إلى الشام استقرت القاعدة بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفي ، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فلما كان يوم الميعاد سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين عرفه ترجل له ، وقبل الأرض بين يديه ، وأمر أصحابه بالعود عنه ، فعادوا ، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : « لم امتنعت من الحجيء إليّ ، كنت تخافني على نفسك ؟ » [٦٦] والله ما خطر ببالي ما تسكره^(٣) ، فلن أريد البلاد ، ومع من أعيش ، وبمن اعتضد ، إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ ؟ » فاطمان نور الدين ،

(١) كذا في الأصل ، وفي س (١١١ ب) : « قهبا وقتل رجالها من الأرمن ، وسباناها » .

(٢) إلى هنا تنتهي (ص ١١١ ب) من نسخة س ، وبانتهائها تضطرب الصفحات مرة أخرى في تلك النسخة ، وتقطع الصلة بين (ص ١١١ ب) و (ص ١١٢) وبالتالي بين النص هنا وبينه هناك في تلك النسخة .

(٣) في الأصل : « تذكره » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨) .

وسكن روعه ، وعاد إلى حلب ، وتجمل^(١) وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين ، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده ، وقال له :

« لا غرض لى فى مقامك عندى ، وإنما غرضى أن تعلم الملوكة والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه » ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه ، وعاد كل منهما إلى بلده .

وفى سنة اثنين وأربعين وخمسة مئة دخل نور الدين بلد الفرنج ، ففتح مدينة أرتاح^(٢) وعدة حصون .

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسة مئة نازل ملك الألمان^(٣) بجموعه ، ومن انضم إليه من فرنج الساحل مدينة دمشق — وصاحبها بجير الدين آبق بن محمد ، والقيّم بأمر دولته معين الدين أنر مملوك جده طغتكين — فرحفوا إلى البلد سادس ربيع الأول ، وقتلوا أهله قتلا شديداً ، ثم نزل الفرنج على الميدان الأخضر^(٤) ، وضاق الأمر على أهل البلد ، وأيقنوا أن العدو يملكه ، وراسل الأمير معين الدين سيف الدين غازى بن زنكى صاحب الموصل يدعوه إلى نصرة المسلمين ، فسار إلى الشام ، واستصحب أخاه نور الدين محمود بن زنكى — صاحب حلب — فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل سيف الدين إلى معين الدين يقول له : « قد حضرت ومعى

(١) فى الروضتين : « فتجهز » .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقال إنها حصن منيع من أعمال حلب ، وفى (Dussand, T. H. 223-228) أنها موقع يبعد ١٥ كيلو مترا إلى الشرق من بحيرة أنطاكية أنظر أيضا : (CL.Cahen, La Syrie du Nord. PP 141-143) .

(٣) هو « كونراد الثالث Conrad III » امبراطور ألمانيا وقد اشترك معه فى قيادة الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لويس السابع ملك فرنسا . أنظر (Stevenson, Crusaders in the East.) و (حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون) .

(٤) كان هذا الميدان يقع غربى المدينة . أنظر : (Ibn El Qalanisi, Trad. Fran. :

كل من يحمل السلاح في بلادى ، فأريد أن تكون نوابى بمدينة دمشق لآحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد ، واحتمينا به ، وإن ظفرتنا فالبلد لكم لا ينازعكم فيه أحد . » وأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد وإلا أتيتهم . فكفّ الفرنج عن القتال ، وقوى أهل البلد على حفظه ، واستراحوا من الحرب .

وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغربا يقول لهم : « إن ملك الشرق قد حضر ، فإن رحلتهم وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تندمون » . [٦٧] وأرسل إلى أهل الساحل ويقول لهم : « بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا مدينة دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام بالشام » . فأجابوا بالتخلى عن ملك الألمان ، وبذل لهم حصن بانياس ، فاجتمعت الفرنج الساحلية بملك الألمان وخوفوه من استيلاء سيف الدين على دمشق ، وأنه إن ملكها لا يكون لهم به طاقة ، ولم يزالوا به حتى رحل عن دمشق ، وتسلموا بانياس ، ورجع ملك الألمان إلى بلاده ، وقد ذكرناه .

وفى هذه النوبة قتل شاهنشاه بن نجم الدين ^(١) أيوب جد جد مولانا السلطان الملك المنصور ^(٢) — صاحب حماة ، خلد الله سلطانه ^(٣) — على باب دمشق ، قتله الفرنج المحاصرون للبلد ، ودُفن بالشرف ظاهر مدينة دمشق ، وخلف ولدين ،

(١) فى الأصل : « جاك الدين » وهو خطأ واضح .

(٢) هو الملك المنصور الثانى حكم حماة من سنة ٦٤٢ إلى سنة ٦٨٣ ، وقد خدمه مؤلف هذا الكتاب وعين قاضيا لقضاة حماة فى عهده . وله ألف هذا الكتاب .

(٣) لهذا الداء أهمية خاصة فهو يمين على تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب . ومنه نستبين أن هذا الجزء من الكتاب كتب بعد سنة ٦٤٢ وهى السنة التى ولى فيها المنصور الثانى حكم حماة ؛ أنظر ما فات ص ٢ ، هامش ٢ و ص ٩٩ هامش ٤

هما : الملك المظفر تقي الدين عمر ، والملك المنصور عز الدين فروخ شاه ، وهو أبو الملك
الأمجد مجد الدين بهرام شاه — صاحب بعلبك — .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — على حصن العزيمة

لما خرج ملك الألمان إلى دمشق كان معه ولد الأدفونش ^(١) وكان جده
هو الذى فتح طرابلس الشام ، فأخذ ولد الأدفونش حصن العزيمة ، وأظهر أنه يريد
أخذ طرابلس ، فأرسل القومص إلى نور الدين محمود ومعين الدين يدعوها إلى قصد
العزيمة وأخذها ، فقصدها من دمشق ، واستمدا سيف الدين غازى ، فأمد بها بمسكر
كبير مع الأمير عز الدين الديبسى قطع جزيرة ابن عمر ، فنازلوا حصن العزيمة
وبه ابن الأدفونش وضايقوه ، وتقدم إليه النقايون فنقبوه ، وتسلموا الحصن ،
وأخذوا ابن الأدفونش وكل من بالحصن ، وأخربوه وعادوا عنه .

كسرة الفرنج بيغرى ^(٢)

وفى هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة — تجمع الفرنج بمكان
يقال له يَغْرَى ليقصدوا أعمال حلب ، فقصدهم نور الدين محمود بن زنكى ، فالتقوا
واقْتَلَوْا قتالا شديداً ، فكُسِرَ الفرنج كسرة قبيحة ، وقُتِلَ أكثرهم ، وأسر جماعة
[٦٨] من مقدميهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وأرسل من الغنيمة والأسرى

(١) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠) : « ولد الفتنش
صاحب طليطلة وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج وكان جده هو الذى أخذ طرابلس الشام
من المسلمين » ، والاسم عند ابن الأثير أقرب إلى الصحة فهو تعريب « Alfonso » .
(٢) ذكر : (Dussaud : T. II. P. 436.) أنها تقع إلى الشرق من دريساك .

إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى الخليفة الإمام المقتني لأمر الله ، وللسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه .

وفي هذه الواقعة قال أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسراني قصيدة يمدح بها نور الدين محمود — رحمه الله — .

أولها : ياليت أن الصدا مصدود !
أولاً ، فليت النوم مردود
إلى متى تعرض عن مغرم
في خذه للدع أخذود
ومنها : وكيف لا ينثني (١) على عيشنا الـ
محمود ، والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا ينثني
إلا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك (٢) موجودة
إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها
— عند ملوك الشرك — مشهود
والقوم : إما مرهق صرعة ،
أو موثق بالقيد مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيئته : عودوا

وفي سنة أربع وأربعين وخمسة قصد سيف الدين غازي بن زنكي — صاحب الموصل — دارا ، وكانت لوالده عماد الدين ، فلما قتل أخذها الأمير حسام الدين تمرناش بن إيل غازي بن أرتق — صاحب ماردين — ، ولما دخلت هذه السنة قصدها سيف الدين فملكها ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها ، ثم قصد ماردين وحصرها ، ثم راسله صاحب ماردين وزوجه ابنته ، فرحل سيف الدين عن ماردين ، وعاد إلى الموصل ، وجّهزت الخاتون ابنة حسام الدين ، وسفرت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض ، فتوفى ولم يدخل بها .

(١) في الأصل : « تنثني » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥١) ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٥) : « نثني » ، وانظر آياتاً أخرى من القصيدة في المرجعين السابقين .

(٢) في الأصل : « لم تكن » .

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن زنكي

ابن آق سنقر — رحمه الله —

لما عاد سيف الدين إلى الموصل عرض له مرض حاد ، فاستدعى له من بغداد
أوحد الزمان أبو البركات البغدادى^(١) — صاحب المعتبر في الحكمة — فحضر
عنده ، ورأى شدة مرضه ، فعالجه فلم ينجع له فيه دواء ، فتوفى آخر جمادى الآخرة
من هذه السنة [٦٩] — أعنى سنة أربع وأربعين وخمسمائة — فكانت مدة
ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ، وكان جميل الصورة ، وكان عمره نحواً
من أربع وأربعين سنة ، لأن مولده كان سنة خمسمائة ، ودُفن بالمدرسة التي بناها
بالموصل ، وخلف ولداً ذكراً رباه عمه نور الدين محمود ، وزوجه ابنة أخيه قطب الدين
مودود بن زنكي ، فتوفى ولد سيف الدين شاباً ، وانقرض عقبه .

ذكر سيرة سيف الدين — رحمه الله —

كان جواداً كريماً شجاعاً ، وهو الذي بنى المدرسة الآتابكية بالموصل ، وقفها
على الفريقين الحنفية والشافعية ، بنى رباطاً للصوفية ، وكان مقصداً للشعراء ، فقصده
شهاب الدين الحِصَّ بَيْضَ^(٢) ، وامتدحه بقصيدة أولها :

(١) هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي لأن مولده ببغداد ،
البغدادى لاقامته في بغداد ، كان يهودياً وأسلم . أنظر ترجمته في : (ابن أبي أصيبعة : طبقات
الأطباء ، ج ١ ، ص ٢٧٨ — ٢٨٠) .

(٢) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفي التميمي المعروف بحمص
بيص ، شاعر مشهور ، توفى في بغداد ليلة الأربعاء سادس شعبان سنة ٥٧٤ هـ . ويقال إنه
سمى حمص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزججة وأمر شديد ، فقال : ما للناس في حمص
بيص ؟ فبقى عليه هذا اللقب ، ومعنى هذين اللفظين الشدة والاختلاط . أنظر ترجمته في : (ابن
خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٨) .

إِلَامَ يَرَاكَ الْمَجْدُ^(١) فِي زِيٍّ شَاعِرٍ وَقَدْ نَحَلْتُ شَوْقًا فَرُوعُ الْمَنَابِرِ
فَوَصَلَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ سِوَى الْخَلْعِ .

وَكَانَ سَيْفُ الدِّينِ يَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهِ السَّنَجَقَ^(٢) ، وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَبُوهُ
وَلَا أَحَدٌ مِنَ أَصْحَابِ الْأَطْرَافِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اقْتَدَى بِهِ غَيْرُهُ ، وَأُلْزِمَ الْجَنْدُ
أَنْ لَا يَرْكَبَ أَحَدٌ إِلَّا بِالسَّيْفِ فِي وَسْطِهِ ، وَالدَّبُوسِ^(٣) تَحْتَ رِكْبِهِ .

ذِكْرُ اسْتِيلَاءِ قُطْبِ الدِّينِ مَوْدُودِ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي عَلَى الْمَوْصِلِ

لَمَّا تَوَفَّى سَيْفُ الدِّينِ غَازِي كَانَ قُطْبُ الدِّينِ مَوْدُودٌ مُقِيمًا بِالْمَوْصِلِ ، فَاتَّفَقَ الْوَزِيرُ
جَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَصْفَهَانِيُّ وَالْأَمِيرُ زَيْنُ الدِّينِ عَلِيُّ كُوجَكْ صَاحِبُ إِرْبِلَ وَالْمُقَدَّمُ
عَلَى الْجِيُوشِ عَلَى تَمْلِيكِ قُطْبِ الدِّينِ ، فَاسْتَحْلَفُوهُ وَحَلَفُوا لَهُ ، وَأَرْكَبُوهُ إِلَى دَارِ السُّلْطَنَةِ ،
وَزَيْنُ الدِّينِ مَاشٍ فِي رِكَابِهِ ، وَتَسَلَّمَ جَمِيعٌ مَا كَانَ بِيَدِ سَيْفِ الدِّينِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَتَزَوَّجَ
الْخَاتُونُ^(٤) ابْنَةَ حَسَامٍ [الدِّينِ] تَمَرْتَاشَ بْنِ إِيْلَغَازِي بْنِ أَرْتَقِ صَاحِبِ مَارْدِينِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « الدَّهْر » ، وَالتَّصْحِيحُ عَنْ : (ابْنِ الْأَثِيرِ : الْكَامِلُ ، ج ١١ ، ص ٥٢) وَ (أَبُو شَامَةَ : الرُّوْضَتَيْنِ ، ج ١ ، ص ٦٥) .

(٢) السَّنَجَقُ رَايَةٌ صَغِيرَةٌ صَفْرَاءُ ، وَقَدْ أَصْبَحَ هَذَا التَّقْلِيدُ الَّذِي اسْتَنَّهُ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي ، وَهُوَ رَفَعَ السَّنَجَقَ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ ، مِنْ رَسُومِ الْمَلِكِ فِي مَهْرٍ فِي عَهْدِي الْأَيُّوبِيِّينَ وَالْمَمَالِكِ .
أَنْظُرْ : (صَبْحُ الْأَعَشَى ، ج ٤ ، ص ٨) .

(٣) الدَّبُوسُ — وَالْجَمْعُ دَبَائِيسُ — آلَةٌ حَرِييَّةٌ ، عَرَفَهَا صَاحِبُ (مَحِيطِ الْمَحِيطِ) بِأَنَّهَا
« هَرَاوَةٌ مَدْمَلَكَةُ الرَّأْسِ ، وَكَالْأَبْرَةِ مِنَ النُّحَاسِ فِي طَرَفِهَا كَتَلَةٌ صَغِيرَةٌ » ، وَقَدْ وَصَفَهَا
«massue, casse-tête, longue (Dozy: Supp. Dict. Arab.) وَصَفَا أَقْرَبَ إِلَى الدَّقَّةِ هُوَ :
d'environ deux pieds et terminée par une tête revêtue de fer, qui a environ
trois pouces de diamètre)» .

(٤) هِيَ نَفْسُ الْخَاتُونِ الَّتِي كَانَ قَدْ خَطَبَهَا سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَتَزَوَّجَهَا
خَوْهَ قُطْبُ قُطْبِ الدِّينِ مَوْدُودُ .

فَوُلِدَ لَهُ مِنْهَا سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَعِزُّ الدِّينِ مَسْعُودٌ وَغَيْرُهُمَا ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ بِخَمْسَةِ عَشَرَ مَلَكًا مِنْ أَبَائِهَا وَأَجْدَادِهَا وَأَخَوْتِهَا وَبَنِي أَخَوْتِهَا وَأَزْوَاجِهَا وَأَوْلَادِهَا وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهَا ، وَأَشْبَهَتْ مِنَ النِّسَاءِ فِي ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ لثَلَاثَةِ عَشَرَ خَلِيفَةً مَا بَيْنَ أَبِي وَجَدٍ وَأَخٍ وَابْنِ أَخٍ وَوَلَدِ أَخٍ وَزَوْجٍ ، وَفِي زَمْنِنَا [٧٠] هَذَا رُبِيعَةُ خَاتُونُ بِنْتُ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ لَمْ تَمُتْ حَتَّى رَأَتْ مِنْ أَوْلَادِ أَخِيهَا جَمَاعَةً كَبِيرَةً كُلُّ مِنْهُمْ مَلِكٌ عَلَى طَرَفٍ مِنَ الْأَطْرَافِ .

ذِكْرُ اسْتِيْلَاءِ نَوْرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ زَنْكِي عَلَى سَنْجَارَ

لَمَّا مَلَكَ قُطْبُ الدِّينِ الْمَوْصِلَ كَانَ أَخُوهُ نَوْرُ الدِّينِ بِجَلْبٍ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ ، فَكَاتَبَهُ بَعْضُ الْأَمْرَاءِ وَطَلَبُوهُ إِلَيْهِمْ ، مِنْهُمْ الْمُقَدَّمُ وَالْدُشْمَسُ الدِّينُ بْنُ الْمُقَدَّمِ ، وَكَانَ دِزْدَارًا بِسَنْجَارَ (١) فَسَارَ نَوْرُ الدِّينِ جَرِيدَةً فِي سَبْعِينَ فَارَسًا مِنْ أَكْبَرِ دَوْلَتِهِ ، مِنْهُمْ الْأَمِيرُ أَسَدُ الدِّينِ شِيرْكُوهُ بْنُ شَاذِي ، وَمُجِدُّ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الدَّيَاةِ ، فَوَصَلَ إِلَى مَاكِسِينَ (٢) فِي سِتَّةِ أَنْفُسٍ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْمَطَرِ ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الَّذِينَ بِالْبَابِ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى الشَّحْنَةِ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّه وَصَلَ نَفَرٌ مِنَ الْأَجْنَادِ كَأَنَّهُمْ تَرْكَانٌ ، فَلَمْ يَتِمَّ الْقَاصِدُ كَلَامَهُ حَتَّى وَصَلَ نَوْرُ الدِّينِ ، فَخِينَ رَأَاهُ الشَّحْنَةُ قَبْلَ يَدِهِ وَخَرَجَ عَنِ الدَّارِ ، فَتَزَلَّهَا نَوْرُ الدِّينِ حَتَّى لَحِقَ بِهِ أَصْحَابُهُ ، فَسَارَ مُجِدًّا إِلَى سَنْجَارَ ، فَوَصَلَهَا وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا نَفَرٌ يَسِيرُ ، وَنَزَلَ ظَاهِرَ الْبَلَدِ وَأَلْقَى نَفْسَهُ عَلَى مَحْفُورَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ شِدَّةِ تَعَبِهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمُقَدَّمِ دِزْدَارَ الْقَلْعَةِ يَعْرِفُهُ بِوَصُولِهِ ، وَكَانَ الْمُقَدَّمُ قَدْ اسْتَدْعَى مِنَ الْمَوْصِلِ ، لِأَنَّ

(١) ذَكَرَ يَاقُوتُ أَنَّهَا مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ مِنْ نَوَاحِي الْجَزِيرَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كُلِّ مِنَ الْمَوْصِلِ وَنَصِيبِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَهِيَ فِي لُحْفِ جَبَلٍ طَالٍ وَفِي وَسْطِهَا نَهْرٌ جَارٌ .

(٢) بَلَدٌ بِالْحَايِ بِوَرٍ قَرِيبٌ مِنْ رَحْبَةِ مَالِكِ بْنِ طُوقٍ مِنْ دِيَارِ رُبِيعَةٍ . (يَاقُوتُ : مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ) .

مكاثبته لنور الدين كانت قد بلغتهم ، فأرسلوا إليه ، فتوقف عدة أيام فلم يصل إليه نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين محمد بسنجار ، وقال له : « أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني » ، فلما فارق سنجان وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين ، فخاف فوات الأمر ووصل القاصد الذي سيره شمس الدين ابن المقدّم إلى أبيه ، فأدركه بتلّ يَعْفَر^(١) ، فعاد إلى سنجان وسلمها إلى نور الدين ، وكتب الأمير فخر الدين قر أرسلان بن داوود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كَيْفَا^(٢) يستنجد ، وبذل له قلعة الهيم ، فسار إليه ، فلما جمع قطب الدين الخبر جمع العساكر ، وسار نحو سنجان ، ونزل بتلّ يَعْفَر .

ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين

ورد سنجان إلى قطب الدين

[٧١] ولما نزل قطب الدين بتلّ يَعْفَر راسل زين الدين على كُوجْك وجمال الدين — وزير قطب الدين — نور الدين أخاه ، وأنكروا عليه إقدامه على أخذ ما ليس له ، وتهددوه بقصده ، وأخذ البلاد من يده قهراً إن لم يرجع اختياراً ، فأجاب : « إنني أنا الأكبر وأنا أحق أن أدبر أخي منكم ، وما جئت إلا لما تتابعتم إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهتهم لولايتكم عليه ، فحفت أن يحملهم الغيظ والآنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا ، وأما تهديدكم إليّ بالقتال

(١) هكذا تسميه الخاصة ، وتسميه العامة « تلّ أعفر » ، وقيل إن أصله « التلّ الأعفر » لونه فغير بكثرة الاستعمال وطلب الحقة . وهو قلعة وريض بين سنجان والموصل في وسط واد فيه نهر جار . (باقوت : معجم البلدان) .

(٢) قال باقوت إنها بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي كانت ذات جانبين وعلى دجلتها قنطرة .

فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم» ، وكان قد هرب إليه جماعة من الأجناد فخافوا من مخامرة الأمراء عليهم إذا لقوه ، فأشار الوزير جمال الدين بالصلح ، وقال : « نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع لنور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ، ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفروا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حصص ، وله عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأى تسليم حصص إليه ، وأخذ سنجار منه » . فاتفق رأى الجماعة على ذلك ، وسار جمال الدين إلى نور الدين ، فأبرم معه الأمر ، وتسلم حصص ، وسلم سنجار إلى أخيه ، وعاد نور الدين إلى الشام ، فأخذ ما كان له بيسنجار من المال .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين على كوجك ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، وطلب نور الدين جمال الدين فامتنع ، واعتذر باحتياج قطب الدين إليه ، واستغنى نور الدين عنه برأيه ومعرفته ، فأطلق له نور الدين عشرة آلاف دينار كل سنة تحمل إليه ليصرفها في مصالحه ، فكان نائبه بالشام يقبضها كل سنة ، ويشتري له بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وكسرة الفرنج

وفي هذه السنة — سنة أربع وأربعين وخمسمائة — قصد نور الدين الدين بن زنكي — رحمه الله — حصن حارم — وهو للفرنج — فخرَّب رِبَضَه ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى إنب^(١) فحاصره ، فحشد البرنس صاحب أنطاكية^(٢) ، فلقيه نور الدين .

(١) في الأصل : « ات » وقد صححت وضبطت بعد مراجعة ابن القلائسي ، وذكر ياقوت إنها حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .
(٢) هو « ريمون دي بواتييه » .

[٧٢] واقتتلوا قتالا شديداً ، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم خلق كثير ، وأسر مثلهم ، وقتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج ، وعظيما من عظمائهم ، فملك بعده ولده ييمند (١) — وهو طفل — فتزوجت أمه (٢) برجل من الفرنج ليدير ولدها الطفل إلى أن يكبر ، ثم قصد نور الدين الفرنج مرة [أخرى] ، فجمعوا ولقوه فقتل منهم وأسر ، فكان من جملة الأسرى زوج أم ييمند ، فمدح الشعراء نور الدين ، فمن مدحه : أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسراني بقصيدة أولها :

هذى العزائمُ لا ما تدعى القُضْبُ	وذى المكارمُ لا ما قالتُ الكُتْبُ
وهذه الهممُ اللاتي إذا خُطِبَتْ	تعثرتْ خلفها الأشعارُ وأُخْطِبُ
صاَحَتْ يا بنِ عِمادِ الدين ذِرْوَتُها	براحةٍ للمساعي دونها التَّعْبُ
ما زال جِدْكَ يبنى كل شاهقةٍ	حتى بنى قبةً أوتادُها الشُّهْبُ
أُغرت (٣) سيوفُك في الأفرنج راجفةً	فؤادُ رومية الكبرى لها يَجِبُ
ضربتْ كبشَهم منها بقاصمةٍ	أودى لها الصُّلبُ وانحطتْ لها الصُّلْبُ
طهرتْ أرضَ الأعادي من دماهم	طهارةً كلُ سيفٍ عندها (٤) جُنْبُ
حتى استطار (٥) شرارَ الزُّنْدِ قادُحه	فالْحَرْبُ تُضرمُ والآجالُ تُخْطَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّركِ مكتسباً	من الملوكُ ، فنورُ الدين محتسبُ

(١) في الأصل « سمد » بدون نقط ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨) وهو بوهمند الثالث .

(٢) هي « كونستانس » وقد تزوجت فتي منافرا اسمها « رينو دي شاتيون » . أنظر : (حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٨٤) .

(٣) في الأصل : « أغرب سيوفك في الأفرنج راجمة » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩) .

(٤) في الأصل : « عنهما » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : « استطار » والتصحيح عن المرجع السابق .

ذو غُرَّةٍ ما سَمَتْ وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ إِلَّا تَمَزَّقَ عَنْ شَمْسِ الضَّحَى الْحَجَبُ
أَفْعَالُهُ كَأَسْمِهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ وَوَجْهُهُ نَائِبٌ عَنْ وَصْفِهِ الْقَبُ
ومدحه آخر (١) بقصيدة أولها:

أَقْوَى الضَّلَالُ وَأَقْفَرُ عِرْصَاتُهُ وَعَلَا الْهَدَى وَتَبَلَّجَتْ قَسَمَاتُهُ (٢)
وَانْتِشَاشَ دِينَ مُحَمَّدٍ مَحْمُودُهُ مِنْ بَعْدِ مَا غَلَبَتْ (٣) دِمَا عِبْرَاتُهُ
رَدَّتْ عَلَى الْإِسْلَامِ عَصْرَ شَبَابِهِ وَثَبَّاتُهُ مِنْ دُونِهِ ، وَثَبَّاتُهُ
[٧٣] أَرَسَى قَوَاعِدُهُ وَمَدَّ عِمَادَهُ ضَعَّدَا وَشَيَّدَ سُورَهُ سَوَارَاتُهُ
وَأَعَادَ وَجْهَ الْحَقِّ أَبْيَضَ نَاصِعًا أَصْلَاتُهُ ، وَصَلَاتُهُ ، وَصَلَاتُهُ
وفي هذه السنة توفي معين الدين أنر القيم بتدبير دولة مجير الدين آبق بن محمد
— صاحب دمشق — .

ذكر فتح أفامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة سار نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله —
إلى حصن أفامية — وهو للفرنج — فقاتل من به ، وضيق عليهم ، فاجتمع الفرنج
وساروا نحوه ليرخلوه عنه ، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحاً ورجلاً
وجميع ما يحتاج إليه ، فلما بلغه سير الفرنج رحل عنه ، وقد فرغ من أمره ،
وسار للقائم ، فحين رأوا قوة عزمه ، وأن الحصن قد مُلِكَ ، عدلوا عن طريقه ،
ودخلوا بلادهم .

(١) هو الشاعر أحمد بن منير . أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٠) .

(٢) الأصل : « نسائه » والتصحيح عن المرحوم السابق .

(٣) كذا في الأصل ، ولعلها « هملت » .

ذكر انهزام نور الدين من الفرنج

في سنة ست وأربعين وخمسمائة جمع نور الدين — رحمه الله — عساكره ، وسار إلى بلاد جوسلين بن جوسلين صاحب تل باشر وعين قاب وعزاز ، وكان جوسلين أشد الفرنج شجاعة وأقواهم بأساً وأصحهم رأياً وأعظمهم مكيدة ، فجمع جمعا كثيراً من الفرنج وسار نحو نور الدين ، فالتقوا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسرى خلق كثير ، وكان من جملة الأسرى سلاح دار^(١) نور الدين ، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين ، وسيره إلى الملك مسعود^(٢) بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قطلش السلجوقي — صاحب بلاد الروم — وقال له : « هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه » ، وبلغ ذلك نور الدين فعظم عليه .

ذكر وقوع جوسلين في أسر نور الدين — رحمه الله —

ثم شرع نور الدين في إعمال الحيلة على جوسلين ، فأرغب جماعة ممن معه من التركان ، ووعدهم الوعود الجميلة إن أتوه بجوسلين أسيراً أو عقيراً^(٣) ، فأدلوأ عليه العيون ، فاتفق أنه خرج متصيذاً فظفر به طائفة منهم فوعدهم بمال جزيل إن أطلقوه ، فأجابوه إلى الإطلاق إن حضر المال ، فأرسل في إحضاره ، فمضى بعضهم [٧٤] إلى الأمير مجد الدين بن الداية — النائب بحلب — وأعلمه الحال ، فسير عسكراً ، فكبسوا أولئك التركان ومعهم جوسلين ، فأخذوه أسيراً وأحضره إلى نور الدين .

(١) سلاح دار أي ممسك أو صاحب سلاح السلطان ، وله الاشراف على السلاح خاناه السلطانية ، ويختار عادة من بين الأشراف المقدمين . (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) .

(٢) حكم بين سنتي ٥١٠ و ٥٥١ . أنظر : (Zambaur Op. Cit. P. 143) .

(٣) « عقير » أي جريح . (اللسان) .

وذكر الأمير مؤيد الدولة بن منقّر أن أسر جوسلين إنما كان في سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وذكر أن صورة أسره أنه خرج من مدينة تل باشر ، وسار في الليل فأدركه النوم ، فتل ومعه نفر يسير من أصحابه ، وقال لباقي أصحابه : « انطلقوا فأنا ألحقكم » ونزل فنام ، فمرت به سرية من التركمان اتفاقاً ، فانهزم أصحابه ، وأخذ جوسلين أسيراً ، وهم لا يعرفونه ، فاجتازوا به من الغد على رجل أرمني ، فجاء وقبل يده ، فقالوا له التركمان : « من هذا ؟ » فقال : « هذا جوسلين صاحب تل باشر » ، فلما عرفوه احتفظوا به ، وبلغ خبره إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية — النائب بحلب — فأحضر التركمان وأعظام حتى أرضاهم ، وأخذ جوسلين وتركه عنده ، فلما وصل نور الدين إلى حلب كحل جوسلين وأهلكه .

ذكر فتح تل باشر

وكتب النواب بتل باشر في هذه السنة نور الدين — أعنى سنة ست وأربعين وخمسمائة — في أن يتسلمها ، وكان نور الدين — رحمه الله — نازلاً بدمشق ، فكتب إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية ليمضي إليها ويتسلمها ، فمضى إليها وتسلمها يوم الخميس لحس بقين من ربيع الأول من السنة ، ثم تسلم عين تاب وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لانا^(١) في مدة قريبة ، وسندكر ذلك . وفي أسر جوسلين يقول محمد بن صغير بن القيسراني من قصيدة :

كما أهدتُ الأقدارُ للقمص أسره وأسعدُ قرْنٍ من حواه لك الأسرُ

(١) هذه كلها هي القلاع والمدن والحصون المحيطة بتل باشر من أملاك جوسلين . وقد أضاف إليها (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٨) : « دلوک ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله » . وللتعريف بها جميعاً انظر : (ياقوت ، معجم البلدان) .

طغى وبغى (١) عدوا على غُلَوائِهِ فأورثه البغى العداوة والكفرُ
وَأَمَسَتْ عَزَازُ كَاسِمِهَا بِكَ عِزَّةً تَشَقُّ عَلَى النَّسْرِينِ لَوْ أَنَّهَا وَكَّرُ
كَأَنِّي بِهَذَا الْعِزْمِ لَا فُلَّ حُدَّهُ فَأَقْصَاءُ بِالْأَقْصَى وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
[٧٥] فَسِرَّ وَأَمَلَكَ (٢) الدُّنْيَا ضِيَاءً وَبَهْجَةً فَبَالَافِقِ الدَّاحِي [إِلَى (٣)] إِذَا السَّنَا قَفَرُ
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ طَاهِرًا وَلَيْسَ سِوَى جَارِي الدَّمَاءِ لَهُ طَهْرُ

ذكر كسرة الفرنج بدُلوك (٤) وفتحها

وفى سنة سبع وأربعين وخمسةائة تجمعت الفرنج وحشدت فارسهم ورجالهم
وساروا نحو نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — وهو ببلاد جوسلين لينموه
من تملكها وأخذها ، فوصلوا إليه وهو بدُلوك ، ، فوق المصاف بها ، واقتتلوا قتالا
شديداً ، وصبر الفريقان عليه ، فانكسر الفرنج ، وقتل منهم وأسر عدد كثير ،
وملك دُلوك واستولى عليها .

ذكر استيلاء محمود بن زنكى على مدينة دمشق ونخروج الملك عن بيت طُغتكين

آخر من ملك دمشق من بيت الأمير ظهير الدين أتابك طُغتكين الأمير
مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك (٥) بورى بن طغتكين ، وكان القيم

(١) الأصل : « طغاوبغا » .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعلها : « واملاً » .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٨) .

(٤) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها بليدة من نواحي حلب بالمواصم ،

(٥) فى الأصل لفظ « بن » زائدة بين « تاج الملوك » و « بورى » .

بتدبير أمره معين الدين أنر مملوك جده ، وكان الحكم له ، وليس لمجير الدين إلا مجرد الاسم ، ثم توفي معين الدين سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ولما كانت هذه السنة — وهي سنة سبع وأربعين وخمسمائة — نازل الفرنج عسقلان — وهي للمصريين — فأخذوها وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف إذ لا يمكنه الوصول إليهم ، ودفعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ، فلما ملكها العدو وقوا وطعموا في ملك دمشق ، واستضعفوا مجير الدين ، وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وأفضى الأمر بالمسلمين إلى أن جعل الفرنج على دمشق قطعة في كل سنة ، وكان رسولهم يجيئ ويجيبها من البلاد ؛ ثم اشتد البلاء حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من مائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار إليه ، وقلّت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان من أكابر أهل البلد يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي .

ولما اتصل ذلك بنور الدين لحقته الحمية ، وخاف من [٧٦] استيلاء العدو على بلاد المسلمين ، وأهمّه أهل دمشق ، وعمل الحيلة في ملكها حيث علم أنه إن قصدها ورام أخذها بالغلبة استمال صاحبها الفرنج واستعان بهم على حربه ، فاستمال نور الدين حينئذ مجير الدين صاحبها ولاطفه وأظهر مودته وواصله بالهدايا والتحف حتى وثق به ، ثم كان في بعض الأحيان يقول له : « إن فلاناً من الأمراء قد كاتبني في تسليم البلد إليّ » ، فيبعد مجير الدين ذلك الأمير ويأخذ إقطاعه ، وفعل ذلك مراراً حتى أبعد مجير الدين عنه أكثر الأمراء ، وبقي عنده أمير يقال له عطاء بن حفاظ السلمي ، وكان شهماً شجاعاً ، ففوّض إليه مجير الدين أمر دولته ؛ وكان نور الدين

لا يتمكن معه مما يريد ، فاتفق أن مجير الدين قبض عليه وقتله ، فتم غرض نور الدين إلى دولته ، وكاتب الأحداث بدمشق ووعدهم الإحسان إليهم واستألمهم إليه ، ثم سار إلى دمشق وحصرها ، فأرسل مجير الدين إلى الفرنج وبذل لهم الأموال ، ووعدهم تسليم بعلبك إليهم إن نجدوه ورحلوا نور الدين عنه ؛ فجمعوا فارسهم وراجلهم ، ولم يجتمع جمهم إلا وقد تسلّم نور الدين البلد .

وكان صورة تسلمه له أن الأحداث ناروا وفتحوا الباب الشرقي فدخله نور الدين وملك البلد ، وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله في التسليم ، وبذل له إقطاعاً من جملته حصص ، فأجاب إلى ذلك ، وسلم قلعة دمشق إلى نور الدين ، وسار إلى حصص ثم إنه راسل أهل دمشق ليسلموا إليه البلد ، وعلم نور الدين بذلك ، فأخذ منه حصص ، وسلم إليه بالس ، فلم يرضها ، وسار عنها إلى بغداد وأقام بها ، وابتنى داراً بالقرب من مدرسة النظامية ، وتوفى بها ، وصفت الممالك بالشام لنور الدين .

وذكر ابن الأثير أن فتح تل بآخر كان في هذه السنة ، وأن نور الدين بعث إلى حسّان — صاحب منبج — في أن يتسلمها فتسلمها .

وكنّا حكينا عن ابن منقّر أن تسلمها كان في سنة ست وأربعين ، وما ذكره ابن الأثير هو الأصح ، فإنه ذكر أنه لما ورد عليه رسل النواب بتل بآخر يبذلون التسليم إليه كان نور الدين نازلاً على دمشق ، ومنازلة الماء كانت في هذه السنة .

ذكر منازلة نور الدين — رحمه الله — حارم

[٧٧] وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حاصر نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — قلعة حارم وهي لببمند — صاحب أنطاكية — ؛ فجمع الفرنج وسار إلى لقاءه ، فمنعوها منه ، وكان في الحصن رجل من دهاة الأفرنج يرجعون إلى رأيه

وعقله ، فأرسل إليهم يقول لهم : « إننا نقدر على حفظ القلعة ، وليس بنا ضعف ، فلا تخاطروا باللقاء ، فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها ، والرأى مطاولته ، فأرسلوا إليه وصالحوه على أن تعطوه نصف أعمال حارم » . واصطلحوا على ذلك ورحل عنهم .

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمائة كانت الزلزلة العظيمة التي هدمت حماة وشيزر ، وهاك تحت الردم بنو منقذ^(١) الكنانيون — أصحاب شيزر — فبادر إليها نور الدين فلكها ، وأضافها إلى ممالكه ، وكانت هذه الزلزلة عظيمة جداً ، أهلكت حماة وشيزر ، وذكر بعض من أدركها أنه قال بعض معلى الكتاب : « كان عندي خلق من الصبيان هلكوا كلهم ، فما جاء أحد من أقاربهم سأل عن هلاك من هلك له » ، وهذا يدل على أنها أهلكت أقارب أولئك الصبيان كلهم ، وكانوا بنو منقذ اجتمعوا ذلك اليوم في مكان ، وعندهم قرد يلعب بين أيديهم ، فوقع البناء عليهم فأهلكهم كلهم ، ولم يسلم إلا ذلك القرد ، فإنه هرب إلى بستان هناك من شباك الدار التي كانوا فيها ، فسلم وحده ، وارتدم الحصن الذي لهم حتى كأنه لم يكن .

ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك

وفي هذه السنة — سنة اثنين وخمسين وخمسمائة — ملك نور الدين بعلبك ، وقد ذكرنا تملك عماد الدين بن زنكي لها ، ثم تسليم نائبه بها نجم الدين أيوب بن شاذي بعلبك إلى صاحب دمشق ، فاستغاب بها رجلاً يقال له ضحَّاك البقاعي^(٢) ، فلما ملك

(١) لاستيفاء أخبار شيزر وحصنها وأخبار الزلازل وأخبار بني منقذ أنظر : (ابن الأثير :

الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٢ — ٨٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥)

و (محمد حسين : أسامة بن منقذ) و (طاهر النعماني : أسامة بن منقذ) .

(٢) نسبة إلى بقاع بعلبك . (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٥) .

نور الدين دمشق امتنع ضحكاً بعلبك ، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربها من الفرنج ، وخاف إن حاصرها يسلبها ضحكاً إليهم ، فتلطف الحال معه إلى أن عوّضه عنها وتسلمها ، وفي ذى الحجة من هذه السنة توفي عز الدين الديسي صاحب جزيرة ابن عمر ، وهو من أكبر الأمراء العبادية .

[٧٨] ذكر استيلاء نور الدين على مدينتي بصرى وصرخد

كانت صرخد بيد الأمير أمين الدولة كُشْتِكِين^(١) من جهة الأمير ظهير الدين أتابك طُغْتِكِين ، وكان ببصرى التيتاش^(٢) غلام أمين الدولة ، فتوفي أمين الدولة في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسة ، فصار غلامه التيتاش إلى صرخد فملكها ، واجتمعت له بصرى وصرخد ، وأظهر المشاقة لصاحب دمشق ، وسار إلى الفرنج يستنجد بهم ، فسار الأمير معين الدين أنر مقدم الجيوش بدمشق إلى تلك الناحية ، فلما خرج الفرنج لنصرة التيتاش ، وهو معهم ، سار إليهم معين الدين فكسروهم ، وعادوا مخذولين إلى بلادهم ، ومعهم التيتاش ، ونزل الأمير معين الدين على صرخد وبصرى في ذى القعدة سنة إحدى وأربعين وخمسة ، وأقام محاصراً لها شهرين فملكها ، وانفصل التيتاش عن الفرنج ، وعاد إلى دمشق بغير أمان ، وكان في أيام ولايته قد قبض على أخيه خطلخ فكحله ، وأخرجه من عنده ، فلما وصل التيتاش إلى دمشق حاكمه أخوه خطلخ وكحله بالشرع قصاصاً ، ولما ملك الأمير معين الدين قلعتي بصرى وصرخد ، سلم صرخد إلى الأمير مجاهد الدين

(١) أمين الدولة كُشْتِكِين نائب قلعتي بصرى وصرخد ، ولاء عليهما الأتابك طُغْتِكِين ؛ أنشأ المدرسة الأمينية في دمشق للفقهاء الشافعية ، توفي سنة ٥٤١ هـ . أنظر : (النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ص ١٧٨ وما بعدها) .

(٢) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق) : « التونتاس » و « اليونياس » ؛ وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠) : « التونتاش » .

بُزَان بن يامين ^(١) الكردي ، وسلم بصرى إلى حاجبه فارس الدولة صرخيك ^(٢) ،
ثم توفى مجاهد الدين بُزَان بصَرَ خَد ليلة ثانى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فملكها
بعده ولده سيف الدين محمد بن بُزَان ، فأخذها منه نور الدين — رحمه الله —
بعد امتناع ، وعوّضه عنها حصن أبى قبليس ، وقتل فارس الدولة صرخيك صاحب
بصرى فى المحرم سنة خمسين وخمسمائة ، قتله ابن الحاجب جواه ^(٣) زوج ابنته ،
فأخذها نور الدين — رحمه الله — وولّى فيها نوابه .

ذكر خروج أمير أميران ^(٤) بن زنى على أخيه نور الدين

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض نور الدين — رحمه الله — بقلعة حلب ،
واشتد مرضه ، وأرجف الناس بموته ، فجمع أخوه الأصغر أمير أميران بن زنى
الناس ، وحصر قلعة حلب ، وكان الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى بمحمص ،
وهو مقطوعا ، فسار إلى [٧٩] دمشق ليتغلب عليها ، وبها أخوه ^(٥) نجم الدين أيوب
ابن شاذى ، فأنكر عليه نجم الدين ذلك وقال : « أهلكتنا ، والمصلحة أن تعود

(١) فى الأصل هنا وفيما يلى : « بران بن مامين » ، والتصحيح هنا عن : (النعمى :
المدارس ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، هامش ٢) حيث ذكر الناشر أن الاسم صحح بعد مراجعة
الكتابة المنقوشة على عتبة باب المدرسة المجاهدية الجوانية التى أنشأها باسمه فى دمشق . وهو
مجاهد الدين أبو الفوارس بزَان بن على بن محمد من الأكراد الجلالية وهى طائفة منهم ، بلادهم
فى العراق بنواحي دقوقا من أعمال بغداد ، وكان أحد مقدمى الجيش بالشام فى دولة نور الدين
وناب بصرخد ، وتوفى سنة ٥٥٥ هـ . أنظر ترجمته فى : (المرجع السابق) و (ابن القلانسي :
الذيل ، ص ٣٥٩) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٣) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى : (النعمى : المرجع السابق ، ص ٥٢) : « صرخك »
ولم يستطع الناشر ضبط الاسم .

(٣) كذا فى الأصل ولم يستطع الناشر ضبط الاسم .

(٤) هو نصرة الدين محمد بن زنى ، ويقال له أيضاً « أمير أميران » .

(٥) فى الأصل : « أخيه » .

إلى حلب مجدداً ، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فأننا في دمشق تفعل ما تريد من تملكها » ، فماد إلى حلب مجدداً وصعد القلعة ، وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، وكلهم فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير أميران ، فسار إلى حران فملكها ، فلما عوفى نور الدين قصد حران فهرب أخوه أمير أميران وترك أولاده بالقلعة ، فملكها نور الدين وسلمها إلى الأمير زين الدين على كوكجك بن بكتكين — صاحب إربل ونائب أخيه قطب الدين مودود ابن زنكي بالموصل — .

ثم سار نور الدين إلى الرقة ، وبها أولاد أميرك الجاندار ، وهو من أعيان الأمراء العبادية ، وكان قد توفى وبقي أولاده ، فشفع فيهم جماعة من الأمراء ، فغضب ، وقال : « هلا شفعم (١) في أولاد أخى لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلى » ، ولم يشفعهم وأخذها منهم .

ذكر وفاة المقتفي (٢) لأمر الله وسيرته

قد ذكرنا خلع السلطان مسعود للراشد بالله ، وإقامة المقتفي لأمر الله للخلافة ، ولما تولى الخلافة أحسن السيرة ولم يتعرض لمحاربة أحد ، ولا لتجنيد أجناد ، حسب ما اشترطه السلطان مسعود عليه ، ثم راسله السلطان ليتصل بأخته فاطمة بنت محمد بن ملكشاه ، فأجابه إلى ذلك ، وعقد العقد بدار الخلافة على صداق مبلغه مائة ألف دينار ، ثم تحملت الجهة من همدان إلى بغداد ، وصحبها قاضى القضاة ،

(١) في الأصل : « تشفعوا » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٥) .

(٢) انظر ترجمته في : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) و (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٢) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٠ — ٢٩٣) .

واستوزر المقتنى يحيى بن هُبَيْرَةَ ، فأقام حشمة الدولة ؛ ثم توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بباب همدان يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فاضطربت الدولة السلجوقية بموته ، وكثر الخلف بين ملوكها ، فحينئذ تفرد الخليفة المقتنى لأمر الله بأمر العراق ، وطرد عنه نواب السلجوقية ، وبنى سور بغداد ، وجنّد الجنود ، وجمع العساكر ، وقام وزيره [٨٠] عون الدين أبو المظفر يحيى بن هُبَيْرَةَ بأعباء مملكته حق القيام ، فقصد بغداد السلطان محمد شاه ابن محمود بن ملكشاه طالبا من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة ، فامتنع الخليفة من ذلك فجمع السلطان الجموع من الأطراف ، واستعان بالأمير قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى — صاحب الموصل — ، فسير إليه عسكريا مقدمهم زين الدين على كُوجَك بن بكتكين صاحب إربل ، فنازل السلطان محمد شاه بغداد من يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من هذه السنة ؛ ونصب على بغداد المنجنيقات والسلام ، فلم ينل غرضا ، وظهر من الخليفة المقتنى لأمر الله من الشجاعة والثبات وبذل العطاء مالا مزيد عليه ، ولما طال الحصار ولم ينل السلطان محمد شاه غرضا رحل عن بغداد خائبا ، واتفقت وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه — عم القوم — صاحب خراسان ، وكانت الخطبة مستمرة له ببغداد ، فقوى أمر الخليفة بالعراق ، وقامت حشمة الدولة العباسية ، ورجعت إلى أحسن ما كانت عليه ؛ وكان المقتنى لأمر الله فضلا حسن العقيدة ، وله شعر حسن من جملته :

قالت أحبك ، قلت : كاذبة ، غرّى بذا منّ ليس ينتقد
لو قلت لي : أشنأك ، قلت : أجل ، الشيخ ليس يحبه أحد

ورُوي أنه وقف يوماً على ظاهر مشهد على بن أبي طالب — رضى الله عنه — بالنجف ، وكان قد عزم على الدخول إليه لزيارته ، فمنعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرَة (١) من ذلك ، وصدفه عنه بأقوال قالها له ، فتمثل المقتفى بأبيات منجم بن نويرة ، وأشار إلى جهة القبر ، وهو واقف خارج سور المشهد :

لقد لامننى عند القبور على البكا رفيق لتذراف (٢) الدموع السوافك
وقال : أتبكي كلَّ قبرٍ رأيته لقبر نوى بين اللوى (٣) فالدَّ كادك ؟
أمن أجل ميتٍ واحدٍ أنت نائحٌ على كل قبرٍ أو على كل هالك
فقلتُ له : إن الأسمى يبعثُ الأسمى ، ذرونى ، فهذا كله قبرٌ مالك

ثم قال مشيراً بأصبعه إلى القبر : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، [٨١] اللهم أنت قلتَ وقولك الحق : « وأتوا البيوت من أبوابها » ، وهذا باب من أبوابك ، اللهم فاغفر لى به كل خطية ، واقض لى به كل حاجة ، وأكفنى ببركة كل منهم ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » ، وانصرف . وكانت وفاة المقتفى لأمر الله يوم الأحد ثانى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسةائة ، وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة ، وثلاثة أشهر ، واثنين (٤) وعشرين يوماً ، وعمره ست وستون سنة .

(١) هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة ، توفى سنة ٥٦٠ هـ ؛ انظر ترجمته فى : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٦ — ٢٧٩)

(٢) فى الأصل : « بتذراف » .

(٣) فى الأصل : « بين الثرى والدكادك » .

(٤) فى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (ابن الجوزى : المرجع السابق) :

« ستة عشر يوماً » .

ذكر بيعة المستنجد بالله

وفي هذا اليوم يبيع ببغداد للخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتدى ،
بنص من أبيه عليه ، وبإيعه عمومته وبنو عمه ، وأقرّ الوزير عون الدين أبا المظفر
يحيى بن هبيرة على وزارته ، وكان له معظماً مكرماً لأن والده أوصى إليه بذلك ، وبلغ
من تقرّيبه أن بعضهم حكى ، قال : « دخلت الدار فوجدت الخليفة المستنجد بالله ،
وبين يديه وزيره يحيى بن هبيرة ، والخليفة ينشده شعراً لنفسه يمدح به وزيره ، وهو :

صَفَتْ نُعْمَتَانِ ، خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَا ، قَدِ كَرُّهُمَا حَتَّى الْقِيَامَةِ يُذَكِّرُ : (١)
وَجُودُكَ وَالْدُنْيَا إِلَيْكَ فَقِيرَةٌ ، وَجُودُكَ وَالْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ يُشْكِرُ
فَلَوْ رَامَ يَا يَحْيَى مَقَامَكَ جَمْفَرٌ وَيَحْيَى لَكِفَا عَنْهُ يَحْيَى وَجَمْفَرٌ
وَلَمْ أَرْ مِنْ يَنْوِي لَكَ الشَّرَّ يَا أَبَاالْ مُظَفَّرٍ إِلَّا كُنْتَ أَنْتَ الْمُظَفَّرُ

ذكر حصر نور الدين مدينة حارم

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة جمع نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله —
العساكر وسار بهم إلى حارم ، فحصرها وجدّ في قتالها ، فامتنت عليه لخصائنها وكثرة
من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم ومقاتيلهم ، ولما علم الفرنج منازلة نور الدين حارم
جمعوا فارسهم ورجالهم واستعدوا وحشدوا ، وساروا نحوه ليرحلّوه عنها ، فلما قاربوه
طلب منهم المصاف ، فلم يجيبوا إليه ، وراسلوه ، وتلطفوا معه الحال ، فلما رأى عجزه
عن أخذ الحصن وأنهم (٢) لا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

(١) في (ابن الجوزي ، ج ١٠ ، ص ٢١٤) : « ينشر » .

(٢) في الأصل : « وأنه » .

ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج

وفي سنة ثمانية وخمسين وخمسمائة [٨٢] جمع نور الدين — رحمه الله —
العساكر ، فنزل بالبقية ، تحت حصن الأكراد ، عازماً على دخول بلادهم ، ومنازلة
أطرابلس ؛ فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وإذا بصليبان الفرنج وراء الجبل
الذي عليه الحصن ، فكبسوا المسلمين ، ووضعوا فيهم السيف ، وأكثروا فيهم القتل
والأسر ، وقصدوا خيمة نور الدين محمود ، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء ، فركب
فرساً^(١) هناك للنوبة ، ولسرعته ركبته وفي رجله الشبحة^(٢) ، فنزل إنسان
من الأكراد فقطعها ، فنجى نور الدين ، وقتل الكردي ، فسأل نور الدين من بعد
ذلك عن مخافيه فأحسن إليهم جزاء الفعلة .

وكان أكثر القتل في السوق ، وسار نور الدين إلى حمص ، فنزل ظاهرها ،
وأحضر ما يحتاج إليه من الخيام فنصبها على بحيرة قدس ، وكان الناس يظنون
أنه لا يقف دون حلب ، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، وأرسل إلى دمشق ،
وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وجميع ما يحتاج إليه ، وفرق ذلك
على من سلم ، ومن قتل أقر إقطاعه على أولاده ، ومن لم يكن له أولاد فعلى بعض
أهله ، فعاد العسكر^(٣) في مدة قريبة كأنه لم يفقد منه أحد ؛ فرحمه الله وقُدس
روحه ، وهكذا فلتكن الملوك .

(١) في الأصل : « فرس » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الإنسان) : « الشبحة العود » ، ولعل المقصود أن رجل
الفرس كانت لا تزال مربوطة إلى التود .

(٣) بعد هذا اللفظ في الأصل : « كأنه لم يفقد منه أحد » وقد حذفها الناشر لأنها
تكرار من النسخ يخل بالمعنى .

ولما انهزم العسكر الإسلامي عن الفرنج — لعنهم الله — ظنوا أنهم لا يقوم لهم قائمة بعدها ، وصمموا على قصد حصص وأخذها ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : « لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا » ، وأكثر نور الدين من الخروج ، فذكر أنه قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والسلاح والخيام ، وتقدم إلى الديوان أن يحصروا الجند ، ويسألوا كل واحد عن الذي أخذ منهم ، فكلما ذكر شيئاً أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين وأنبأوا إليه القضية واستأذنه في تحليفه على ما ادعاه ، فخرج الجواب : « لا تكذبوا عطاءنا ، فإنني أرجو الأجر والثواب [٨٣] على قليله وكثيره » .

ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه قال له أصحابه : « إن لك في بلادك إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت الآن بها لكان أمثل » ، فغضب وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضغائنكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ ، وأصرها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأي ، بسهام قد تخطئ وتصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيهم غيرهم ؟ » فسكتوا .

وراسلت الفرنج نور الدين في معنى المهادنة ، فامتنع ، فتفرقوا في بلادهم ، وفي هذه الواقعة يقول مذهب الدين بن أسعد الموصلي ^(١) المدرس بحمص قصيدة منها :

(١) هو أبو الفرج عبيد الله بن أسعد بن علي بن عيسى الموصلي الحمصي المعروف بابن الدهان . الفقيه الشافعي الشاعر وينعت بمذهب الدين ، توفي سنة ٥٥٩ هـ . ترجم له (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦) قال : « كان فصيحاً فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً غلب عليه الشعر واشتهر به ، وله ديوان صغير وكله جيد ، ورحل البلاد ومدح بمصر الوزير الصالح طلائع بن رزيك وغيره » ، أنظر أيضاً : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) .

ظبي^(١) المواضي وأطرافُ القنّاءِ الذُّبُلِ
وكافلُ لك كافٍ ما تحاوله
وما يعيبك ما نالوه^(٢) من سَلَبِ
وإنما أخذوا حيناً إلى خدعِ
واستيقظوا ، وأراد الله غفلتكم
قنّاً لقاً ، وقسّى غير مورة
ما يصنع الليثُ — لاذبٌ ولا ظفر —
هلا وقد ركب الأسد المصور وقد
ضوامنُ لك ما حازوه من نفلِ
عزٍّ وحزمٍ^(٣) وبأسٍ غير منتقلِ^(٤)
بالخليل ، قد تؤسر الأساد بالخليل
إذ لم يكن لهم بالجيش من قبلِ
لينفذ القدرُ المحتومُ في الأزلِ
والخليل عارية^(٥) ترعى مع الحملِ
بما حواليه : من عُفْرِ ومن وُعْلِ
سَلَوُ الظبي تحت غابات من الأسَلِ

ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ولما كانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وصل أمير الجيوش أبو^(٦) شجاع شاور
ابن مجير السعدي إلى دمشق ، وذلك لست مضين من ربيع الأول ، مستنصراً بنور
الدين علي ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور ، وكان تغلب على الوزارة وأخرج شاوراً
منها ، وقتل ولده طياً ، والخليفة يومئذ العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف
ابن أبي الميمون عبد المجيد [٨٤] الحافظ لدين الله . والحكم للوزراء ، من قهر

(١) في الأصل : « ظبا » .

(٢) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « وعزم » .

(٣) في المرجع السابق : « منتحل » .

(٤) في نفس المرجع : « ما حازوه » .

(٥) في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « عازبة » .

(٦) في الأصل : « نصر بن شجاع ، وهو خطأ واضح ، واسمه بالكامل : « أبو شجاع

شاور بن مجير ابن تزار بن عشاثر بن شاس السعدي » انظر ترجمته في : (ابن خلكان :

الوفيات ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٦٠) .

بالسيف أخذها ، والخلفاء بمصر تحت قهرهم ؛ وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله معتمد بن الظاهر .

وشرط شاور لنور الدين أنه إن سير معه العسكر ليقوى بهم على خصمه ضرغام ، وينتزع الوزارة منه ، أن يكون لنور الدين حصة من البلاد ، ويكون شاور متصرفا تحت أمره ونهيه واختياره ، فتردد نور الدين — رحمه الله — في إجابته ، فقارة يقوى عزمه على ذلك طلبا للزيادة في الملك وليقوى على عدو الدين ، فإن لم يكن له — رحمه الله — همة إلا جهادهم ؛ وتارة يثنى عزمه خوفا على العساكر من خطر الطريق بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية .

ثم إنه قوى عزمه ، وصمم على إجابة شاور إلى ملتمسه ، واستخار الله سبحانه في ذلك ، فتقدم إلى أسد الدين بالتجهيز للمضي مع شاور ، واستصحب معه العساكر ، وسار وفي صحبته شاور ، وسار معهما نور الدين إلى طرف بلاد الإسلام مما يلي بلد الأفرنج في بقية العسكر ، ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين .

وكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ، ثم فارق أسد الدين نور الدين ، وسار بمن معه إلى الديار المصرية ، وكانت الطريق إذ ذاك شرق الكرك والشوبك ، على عقبة أيلة (١) إلى صدر (٢) وسويس ، ثم إلى البركة (٣) التي على باب القاهرة .

(١) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي المعروفة اليوم باسم العقبة اختصاراً . انظر أخبارها في : (ياقوت : معجم البلدان) و (المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة خراب بين القاهرة وأيلة .

(٣) هي بركة الجب ، وقد عرفها (المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٧) بقوله : « هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها ، عرفت أولاً بحج عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم .. إلخ » .

ولما قارب أسد الدين مصر خرج إلى لقائه ناصر الدين أخو الضرغام بعساكر مصر ، فلقبهم ، فانهزم ناصر الدين وعاد إلى القاهرة مهزوما ، ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة في أواخر جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، فخرج الضرغام من القاهرة سلخ الشهر ، فأدرك وقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي — رضوان الله عليهم — ، وبقي مطروحا يومين ، ثم نُحِل ودُفِن بالقرافة ، وقتل أخوه أيضاً .

وخلع على شاور خلع الوزارة في مستهل رجب من السنة المذكورة ، وأعيد إلى الوزارة وتمكّن منها ، وأقام أسد الدين [٨٥] بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور ، ورجع عما كان وافق نور الدين عليه ، وأرسل إليه يطلب منه الرجوع إلى الشام ، فامتنع أسد الدين ، وطلب منه ما وقع الاستقرار عليه ، فلم يجبه شاور ، فلما رأى أسد الدين إصرار شاور على الغدر ، وأرسل نوابه إلى مدينة بلبليس ، فتسلموها ، وحكم على الأعمال الشرقية ، فأرسل شاور حينئذ إلى الفرنج يستمدّهم ، ويخوفهم من نور الدين إن ملك الديار المصرية ما يطيب لهم معه مقام ، وكان الفرنج لما سمعوا بتوجه عساكر نور الدين إلى الديار المصرية قد خافوا خوفا شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل ، فلما وصلتهم رسل شاور يدعوه إلى مساعدتهم سروا بذلك ، وبادروا إليه .

ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية

ومحاصرتهم أسد الدين بلبليس

فسارعوا إلى تلبية شاور ، وطعموا في الديار المصرية ، وتجهزوا — بعد وقوع الاتفاق بينهم وبين شاور — على مال كثير يحمله إليهم إن رحلوا عسكر نور الدين عن البلاد .

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — توجهُ الفرنج إلى مصر سار بالعسكر إلى طرف بلادهم ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمنهم ذلك ، لعلمهم أن الخطر في تملك أسد الدين مصر أكثر ، فتركوا في بلادهم من يحفظها من نور الدين ، وتوجه ملك القدس في بقية عساكره إلى ديار مصر ، واستعان بجمع كثير من الفرنج الذين كانوا قد وصلوا لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر قصد أسد الدين شيركوه مدينة بلبليس وأقام بها هو وعسكره ، وتحصن بها ، واجتمعت العساكر المصرية والفرنج ، ونازلوا بلبليس وحصروها ، وحماها أسد الدين وعسكره ثلاثة شهور ، مع أن سورها من طين ، وليس لها خندق يحميها ، وجدَّ في قتالهم بكرة وعشية ، فلم ينالوا منها غرضاً .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج

فبينما هم يجثون في حصار بلبليس إذ أتاهم الجند بكثرة الفرنج على حارم ، وتملك [٨٦] نور الدين لها ، ومسيره بعد ذلك إلى بانياس لأخذها ، فعظم ذلك عليهم ، وخافوا على البلاد فراسلوا أسد الدين في الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين ، ففعل ذلك ، لأن الأقوات قلت عليه ، وعلم عجزه عن مقاومة الفريقين ، فصالحهم ، وخرج من بلبليس في ذى الحجة من هذه السنة ، فذكر من شجاعته وشهامته التي لم يسمع بمثالها أن أصحابه خرجوا بين يديه ، وخرج خلفهم ويده لث (١) حديد ، وهو يحكي ساقهم ، والمسلمون من المصريين ، والفرنج ، ينظرون إليه ويتعجبون منه ، فأتاه إفرنجي من الغربا (٢) ، وقال : « أما تخاف

(١) لفظ فارسي ، وجمعه « لتوت » ، ومعناه القدوم أو الفأس الكبيرة . انظر : (محيط المحيط) و (Dozy : Supp. Dict. Arab) .
(٢) يقصد أنه إفرنجي من الوافدين من أوروبا . لا من الفرنج المستقرين في الشام .

أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنجة ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى منكم بقية . فقال أسد الدين : « ليتهم ، لو فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل ، كنت والله أضع فيهم السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل رجلا ، وحينئذ يقصدهم نور الدين وقد ضعفوا وفنيت شجعانهم ، فيملك بلادهم ، ويهلك من بقى منهم ، والله لو أطاعوني هؤلاء لخرجت إليكم أول يوم ، ولكنهم امتنعوا » ، فصَلَّبَ الفرنجي على وجهه وقال : « كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في وصفك وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم » .

ثم سار أسد الدين إلى الشام سالماً ، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رسداً ليأخذوه ، فلم بذلك ، فعاد عن تلك الطريق ، ففي ذلك يقول عمارة يمدحه من قصيدة :
أَخَذْتُمْ عَلَى الْإِفْرِنجِ كُلَّ ثَنِيَّةٍ وَقُلْتُمْ لِأَيْدِي الْخَيْلِ مُرًى عَلَى مُرًى
لَنْ نَصْبُوا فِي الْبَرِّ جِسْراً فَإِنَّكُمْ عَبَرْتُمْ بِيَحْزَنِ مِنْ حديدٍ عَلَى الْجِسْرِ (١)
ووصل أسد الدين إلى نور الدين ، وفي عود الوزارة إلى شاور بعد عزله عنها يقول عمارة بن علي اليمني ، يمدحه من قصيدة :

فَنَصْرَتْ فِي الْأَوَّلَى بِضَرْبِ (٢) زَلْزَالٍ بِالْأَقْدَامِ ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْإِقْدَامِ
وَنُصْرَتْ فِي الْآخِرَى بِضَرْبِ صَادِقٍ أَضْحَى يَطِيرُ بِهِ غُرَابُ الْهَامِ
[٨٧] أَدْرَكَتْ ثَاراً ، وَارْتَجَمَتْ وَزَارَةً نَزَعاً بِسَيْفِكَ مِنْ يَدِي ضَرْعَامِ
وفي حصار بلبيس والانتصار على أسد الدين شيركوه ، يقول عمارة من قصيدة يمدح بها العاضد ووزيره شاور أولها :

إِنَّ السَّعَادَةَ قَدْ أَظْلَمَ زَمَانُهَا وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَنَا أَلْوَانُهَا

(١) ورد هذان البيتان في : (عمارة : النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ج ١ ،

ص ٨٠) .

(٢) في (المرجع السابق ، ص ٨٩) : « برعب » . وهناك أبيات كثيرة أخرى هي بقية القصيدة .

وافاك أول عامها بمسرة
 مجدا بنى عبد المجيد فإنكم
 كم آية رؤيت ، لكم أسرارها
 وهب الخلافة شاركوكم في اسمها
 فكأنما تأويلكم أرواحها
 نظقت بآية نصركم من شيركوه (١)
 أخبرتمونا عنه قبل مجيئه
 وكأن علم الحادثات (٢) ودیمة
 تأتى الأمور وقد سطرتم ذكرها
 لا الفطر أهداها ولا رمضانها
 من دوحه نبوية أغصانها
 آل الوصي ، ولورى إعلانها
 أو ليس فرق بينكم فرقانها
 وكأنما تفسيركم أبدانها
 سير يزيد على السماع عيانها
 أخبار صدق صح عنه بيمانها
 مخزونة ، وصدوركم خزائنها
 فيكون بعد حديثكم حدثانها

ومنها (٣) في مدح شاور :

ولقد دُفعت إلى ثلاث (٤) نواب
 فعصابة غزية غادرتها
 وعصابة رومية عاشرتها
 وعصابة مصرية بك (٥) أصبحت
 خلصت كل قبيلة من ضئها
 أشبهت نوحاً مدةً وهدايةً
 كادت تشيب لهولها ولذائها
 وأجل ما ترجوه منك أمانها
 فتأدبت وتهذبت أذهانها
 فوق البرية راجعاً ميزانها
 لما التوت وتمعدت عقدانها (٦)
 في أمة متزايد طغيانها

(١) في الأصل : « في شيركو » والتصحيح عن : (ديوان عمارة ، ص ٣٦٨) .

(٢) في الديوان : « الكائنات » .

(٣) بهذا اللفظ يتقابل النص مرة أخرى مع نسخة س في أول (ص ١٢٧) .

(٤) في س (ص ١٢٧) : « تك » بدون نقط والتصحيح عن : (ديوان عمارة ،

ص ٣٦٩) .

(٥) في س (ص ١٢٧) « لك » .

(٦) في : (عمارة : النكت المصرية ، ج ١ ، ص ٨٣) : « اشطانها » .

وتداركتُ بلبيسٍ منك عواطفُ يسعُ الزمانَ وأهله غفرائها
[٨٨] أقسمتُ لولا حسنَ رأيك لا غتدى الـ ناقوس في بلبيسٍ وهو أذائها
بلدٌ لو انهدمتُ قواعدُ سورة (١) بيد النصارى لم يُعد بنيائها
ومنها في عود الوزارة إليه :

كانتُ وزارتك القديمة مشرعاً صفواً ، ولكن كُدرتْ غُدرائها
غصبتُ رجالٌ تاجه وسريه من بعد ما سجدتْ له تيجانها
أخلى لهم (٢) دسّت الوزارة علماً أن سوف ينزع بينهم شيطانها (٣)
قد كان أودع (٣) في الرقاب صنائماً كُفرتْ به ، فأبادها (٤) كُفرائها

ذكر فتح حارم وكسر الفرنج

لما قصد الفرنج ديار مصر — كما تقدم ذكره — أراد نور الدين — رحمه الله —
قصد بلاد الفرنج ليعودوا عن مصر ، فاستعد للجهاد ، وكاتب أخاه قطب الدين مودود
ابن عماد الدين زنكي — صاحب الموصل — وقرأ أرسلان (٥) بن داود بن سقمان بن
أرتق — صاحب حصن كيفا والديار الجزيرية — ، ونجم الدين ألب أرسلان بن تمر تاش
ابن إيلغازي بن أرتق — صاحب ماردين — وأصحاب الأطراف يدعهم إلى مساعدته
على الجهاد ، فجمع قطب الدين مودود عساكره وسار إلى نجدة أخيه ، وأما فخر الدين

(١) في س : « سورها » .

(٢) في س : « احلام » « وبسطانها » .

(٣) في س : « أصنع » .

(٤) في الأصل : « فأوداها به » ، والتصحيح عن : (المرجع السابق ، ص ٨٤) .
والذي رواه المؤلف هنا أبيات مختارة ، والقصيدة في (الديوان) و (النكت) أكثر أبياتاً ،
فانظرها هناك .

(٥) في الأصل : « قرأ أرسلان » ، وما هنا عن : س (ص ١٢٧)

صاحب الحصن فقال له ندمائوه وخواصه : « على أى شئ عزمت (١) ؟ » فقال : « على التعمود ؛ فإن نور الدين قد تحشف (٢) من كثرة الصوم والصلاة ، فهو كل يوم يلتقى نفسه فى وقعة ، والذاس معه فى المهالك » ؛ فوافقه أصحابه على هذا الرأى ؛ فلما كان الغد أمر أصحابه بالتجهز للغزاة ، فقال له أصحابه : « ما عدا مما (٣) بدا ؟ فارقناك بالأمس على حال ونرى منك اليوم على (٤) ضدها » ؛ فقال : « اعلموا أن نور الدين قد سلك معى طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى ، وأخرج البلاد عن يدى ، فإنه قد كاتب زهادها وعبادها يذكر لهم ما لقي المسلمون (٥) من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ، ويستمدهم الدعاء ، وطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ؛ [٨٩] وقد قعد (٦) كل واحد منهم ومعه أصحابه وأتباعه يقرأون كتب نور الدين ويبيكون ، ويلعنونى ويدعون على ، ولا بد من السير إليه » ثم إنه تجهز وسار إليه .

وأما صاحب ماردين فإنه سیر إليه عسكريا [وكذلك سار إليه كل من كاتبه] (٧) ، ولما اجتمعت العساكر عند نور الدين — رحمه الله — نازل حارم ونصب عليها المجانيق ، فاجتمع من بقى فى الساحل من الفرنج ، وجأؤا إليه فى جموعهم ، ومعهم بمنذ صاحب أنطاكية وابن جوسلين وغيرهما ، وقصدوا نور الدين — رحمه الله — فرحل عن حارم إلى أرتاح ، وطمع فى أن يتبعوه فيتمكن منهم يبعدهم عن بلادهم

(١) فى س (٢٧ ب) : « قد عولت » .

(٢) فى س : (٢٧ ب) : « نشف » .

(٣) فى س : « فيها » .

(٤) فى س : « الآن ضدها » ،

(٥) فى الأصل وفى (س) : « المسلمين » .

(٦) فى س (ص ٢٧ ب) : « مدمعه » بدون نقط .

(٧) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٢٧ ب) .

إذا لقوه ، فساروا ونزلوا على عِمٍّ^(١) ، ثم علموا عجزهم عن لقاءه ، فعادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين في عساكره ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، فحمل الفرنج على ميمنة المسلمين — وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن — فانهزموا ، وتبعهم الفرنج ، فأبعدوا عن راجلهم ، فحينئذ عطف الأمير زين الدين على كُوجَك في عساكر الموصل على راجل الإفرنج فأفناهم قتلا وأسرا ، فعادت خيالتهم الذين ساقوا وراء المهزمين خوفا على راجلهم ، فلما عادوا عاد المهزمون ، وحملوا على الإفرنج ، وأحرق المسلمون بهم من كل جانب ، واشتدت الحرب ، وقامت على ساق ، فتمت الهزيمة على الفرنج ، وأنزل الله سبحانه [وتعالى] نصره على المسلمين وأسر من الفرنج ما لا يُحصى ، ومن جملة الأسرى : صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين ، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف [فارس وراجل]^(٢) .

وسار نور الدين — رحمه الله — إلى حارم ، فتسلمها لتسع بقين من رمضان من هذه السنة ، — أعنى سنة تسع وخمسين وخمسمائة — وأشار عليه أصحابه بالمسير إلى أنطاكية ليلكمها ، فخلوها من يحميها ويدفع عنها ، فامتنع ، وقال : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية فيسلموها إليه ، وبجاورة يميند أحب إلينا من جوار ملك الروم » . ثم أطلق نور الدين يميند صاحب أنطاكية على أن يحمل أموالا كثيرة وأسرى من المسلمين أطلقهم .

(١) كذا في الأصل ، وهي في س (٢٧ ب) : « غم » ، وعم قرية من أعمال حارم وتقع في منتصف الطريق تقريبا بين حلب وأنطاكية ، انظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب ، ص ١٦٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٢٨) .

وفي هذه السنة توفي جمال الدين محمد بن [٩٠] على الأصفهاني (١) وزير قطب الدين مودود بن [عماد الدين (٢)] زنكي — صاحب الموصل — ، وكان عظيم القدر جواداً حسن السيرة ؛ ولما توفي نُحِل إلى مكة — حرمها الله تعالى — وطيف بنعشه حول الكعبة المعظمة ، ثم حُل إلى المدينة فُدِن بها في تربة بنيت له قريباً من الحجرة المقدسة — على ساكنها [أفضل (٢)] الصلاة والسلام — .

٣ ذكر فتح بانياس

كانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة — كما ذكرنا (٣) — ، ولما فتح نور الدين — رحمه الله — حارم أذن للعساكر الموصلية والديار بكرية بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يقصد طبرية ، فجعل الفرنج همهم حفظها ، فسار مُجِدّاً إلى بانياس لعلهم بقلّة المانعين لها ، فنازلها وضايقها ، ومعه أخوه الأمير نصرة الدين أمير أميران بن [عماد الدين (٤)] زنكي ، — [وكان قد عاد إلى خدمة أخيه نور الدين ، وقد رضى عنه نور الدين وأعطاه ما أراد (٤)] — فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ، فقال له نور الدين : « لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى » .

وجَدَّ — رحمه الله — في حصارها ، فحشد الفرنجُ وجمعوا لينعوه منها ، ففتحها قبل أن يتكامل جمعهم ، وملك القلعة وملاها ذخائر ورجالا ، ثم عاد إلى دمشق ، وكان في يده خاتم يسمى الجبل بفص ياقوت من أحسن الجواهر لكبره وحسنه ، فسقط من يده في شعرا بانياس ، وهي كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، فلما أبعدها

(١) انظر ترجمته في : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٥) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٢٨) .

(٣) ما بين الرقيين غير موجود في س .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .

عن المكان الذى ضاع فيه [الخاتم ^(١)] علم به [نور الدين ^(١)] ، فأعاد بعض أصحابه فى طلبه ، ودلّهم على المكان الذى كان آخر علمه وعهده به ، فعادوا فوجدوه ، فقال بعض الشعراء بمدحه من قصيدة [أولها ^(١)] :

إِنْ يَمْتَرِى الشُّكَّاكُ فَيْكَ بِأَنْتَكَ إِلا سَمَهُىْ مُطْفِئِ (٢) جَمْرَةَ الدِّجَالِ
فَلَعُودَةُ الْجَبَلِ الذِّى أَضْلَلْتَهُ بِالْأَمْسِ بَيْنَ غَيَاطِلٍ وَجِبَالِ
لَمْ يُعْطَهَا إِلا سَلِيمَانُ ، وَقَدْ نَلَتْ الْمَنَى (٣) بِمَوْشَكَ (٤) الْإِجْعَالِ
زَجَرَ جَرَى لَسْرِيرِ مَالِكٍ إِنَّهُ كَسَرِيْرَهُ عَنْ كُلِّ جَنْدَعٍ (٥) عَالِ
فَلَوْ الْبَحَارُ السَّبْعَةُ اسْتَهْوَيْتُهُ وَأَمْرَتُهُ (٦) ، قَذَفْنَاهُ فِي الْحَالِ

[قال : وفى سنة ستين وخمسمائة مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، ذكر القاضى شهاب الدين ^(٧) فى تاريخه ، قال : كان الوزير ابن هبيرة عالماً ورعاً عفيفاً محباً لاهل العلم محسناً إليهم ، وزير الخليفتين] ^(٨) .

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .

(٢) فى الأصل : « قُطِفِ » وفى س (٢٨ ب) : « وَطِفِ » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

(٣) فى الروضتين : « الرقاء » ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١١٤) : « نبت الربا بموشك الإجماع » .

(٤) فى الأصل وفى (س) : « بموسك » وما هنا عن الروضتين .

(٥) فى الأصل : « جد » وفى الروضتين : « جدر » ، وما هنا عن (س) .

(٦) فى الأصل وفى (س) : « وأمرته لقذفه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٧) القاضى شهاب الدين هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى أبو شامة ، وتاريخه هو « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » . انظر ترجمة ابن هبيرة بهذا التاريخ (ج ١ ، ص ١٤١) .

(٨) ما بين الحاصرتين زيادة أضفناها عن س (ص ٢٨ ب) ، وبها تنتهى الصفحة ويضطرب النص مرة أخرى فى تلك النسخة ، وبالتالي تنقطع الصلة بينه وبين نص النسخة الأصلية (ك) .

[٩١] ذكر فتح حصن المنيطرة

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — حصن المنيطرة ، وكان بيد الفرنج ، سار إليه جريدة ، وانتهز^(١) الفرصة فيه ، وجد في قتاله عنوة وقهراً ، وقتل من به ، وسبي^(٢) وغنم غنيمة كثيرة ، وذكر القاضي بهاء الدين بن شرار — رحمه الله — أن الواقعة كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذي

المسير الثاني إلى مصر

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة سير الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله عليهما — أسد الدين شيركوه إلى مصر ليلسكها ، وذلك لما ثبت في نفسه من غدر شاور به ورجوعه عما كان وقع من العهد والاتفاق عليه ، وسير معه جمعاً من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفي فارس ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ، وسار معه نور الدين إلى أطراف البلاد خوفاً من معرفة (كذا)^(٣) الافرنج .

(١) أمام هذا اللفظ بالهامش معناه بالغة اللاتينية : (captavit occasionem) ويبدو أن كاتبها واحد من المستشرقين الذين قرأوا هذه النسخة بمكتبة جامعة كامبردج .

(٢) في الأصل : « سبا » .

(٣) كذا في الأصل ، ولا يستقيم بها المعنى ، وصيغة (ابن الأثير) : « خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام » .

وكان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذى مع عمه أسد الدين في هذه السفارة ؛ وفي ذلك يقول عَرَقَلَة (١) الدمشقي بمدح صلاح الدين ،
وجرى بملكه الفال ، والفال موكل بالمنطق :

أقول والأتراكُ قد أزمعتُ مصر إلى حربِ الأعاريبِ
ربّاً كما ملكَها يوسفُ ١١ صديقَ من أولادِ يعقوبِ
يُملكُها في عصرنا يوسفُ ١٢ صادقُ من أولادِ أيوبِ
من لم يزل ضرابَ هامِ العدى حقاً ، وضرابَ العراقِيبِ

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى الديار المصرية (وترك بلاد الافرنج
عن يمينه فوصل الديار المصرية) (٢) ، وعبر النيل عند أطفيح (٣) بالجانب الغربي ،
ونزل بالبلاد الجيزية ، وتصرف في البلاد ، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً .

وأرسل شاور — وزير العاضد — يستنجد بالفرنج ، فأتوه على الصعب والذلول ،
وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع في تملك الديار المصرية ، والثاني الخوف
من تملك العساكر النورية لها ؛ وعلموا أنه إن ملكها نور الدين — رحمه الله —
وامتضافها إلى [٩٢] البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ،
وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم في وسط بلاده ؛ ولما وصلوا مصر اجتمعوا بالعساكر
المصرية وعبروا إلى الجانب الغربي .

(١) هو حسان بن نمير الكلابي أبو الندى الشاعر المعروف بعرقلة الدمشقي ، كان شيخاً خليعاً
أعور مطبوعاً لطيفاً ظريفاً ، اختص بالسلطان صلاح الدين وله فيه مدائحه ، توفي سنة ٥٦٧ هـ .
انظر : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٤) و (سبط بن الجوزى :
مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .

(٢) هذه الجملة كتبت في هامش الأصل وأشير إلى مكانها بالنقطة بعلامة .

(٣) أطفيح حالياً قرية من قرى مركز الصف بمديرية الجيزة ، وهي مدينة قديمة كانت
تسمى في العصر اليوناني « افروديتوبوليس » . انظر : (مصاححة المساحة : فهرس مواقع
الأمكنة) و (علي مبارك : الخطط ، ج ٨ ، ص ٧٧ — ٧٨) .

ذكر واقعة البابين

وكان أسد الدين شيركوه قد سار بالعساكر في الصعيد إلى أن بلغ إلى مكان يعرف بالباين^(١)، فسارت الفرنج والمصريون خلفه، فأدركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة؛ وكانت جواسيسه قد أخبروه بكثرة عدد الفرنج والمصريين وقوتهم؛ فجمع أصحابه واستشارهم، فكلهم أشاروا عليه بعبور بحر النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا: «إن نحن انهزمنا فإلى من نلتجئ؟ ومن نحتجى، وكل من في هذه الديار من جندي وفلاح عدو لنا». فقام أمير من ممالك نور الدين يقال له شرف الدين برغش — صاحب الشقيف — وكان شجاعاً وقال: «من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء نُعذر فيه ليأخذن أموالنا وما معنا من الإقطاع^(٢) والجامكية^(٣)، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه وإلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار». فقال أسد الدين: «هذا الرأي، وبه أعمل».

وقال ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب مثله؛ وكثر الموافقون، واجتمعت الكلمة على القتال، وأقاموا بمكانهم حتى وصل الفرنج والمصريون وهم على تعبيتهم، فجعل أسد الدين الأثقال في القلب، لا ليتكثر بها لأنه لا يمكنه تركها في مكان آخر خوفاً من أن تنهب؛ وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه: «إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، فإذا حملوا عليكم

(١) قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا.

(٢) هذا نص قيم له فائدته عند دراسة نظام الإقطاع في عهد نور الدين وعند الأتابكة عموماً.

(٣) الجامكية — والجمع جامكيات وجوامك — الراتب. انظر: (Dozy: Supp. Dict. Arab.)

فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا أنفسكم ، واندفعوا من بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجموا في أعقابهم » ؛ واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ، ويعرف [٩٣] صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنة ، فما اصطفوا للحرب ، حمل الفرنج على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا ، ثم انهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، وتبعهم الفرنج ، وحينئذ حمل أسد الدين بمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج — الفارس والراجل — فهزمهم ، ووضع السيف فيهم ، وأثنى وأكثر من القتل والأسر .

فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين ، ورأوا عسكرهم مهزوما ، والأرض منهم قفرا انهزموا أيضاً ، ونصر الله المسلمين .

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى ثغر الاسكندرية ، وجى ما في طريقه من القرى ، ووصل إلى الاسكندرية ، فسلمها أهلها إليه — ليأمنهم إلى مذهب السنة وكرهاتهم لرأى المصريين — ، فاستتاب بالاسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبا أمواله ، وأقام به حتى صام شهر رمضان .

ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية

وعاد الفرنج والمصريون بعد الوقعة إلى القاهرة ، وأصلحوا عساكرهم ، وجمعوا ثم ساروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين ، واشتد الحصار وقل الطعام بها ، فصر أهلها على ذلك ، ولما بلغ ذلك أسد الدين سار من الصعيد إليهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركان .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين

ثم راسل المصريون والفرنج أسد الدين يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار ، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن الفرنج لا يقيمون في البلاد ، ولا يتملكون منها قرية واحدة ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام .

وتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال ، وعاد أسد الدين إلى دمشق لاثنى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ، واستقر بين الفرنج والمصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها مع فرسانهم وبأيديهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ^(١) ، ثم عاد الفرنج [٩٤] إلى بلادهم ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ، ويسأله الدخول في طاعته ، وضمن عن نفسه أنه يجمع بمصر الكلمة على طاعته ، وبذل له مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فحمل إلى نور الدين مالا جزيلا .

ذكر فتح صافيثا والعزيمة

وفي هذه السنة — أعنى سنة اثنتين وستين وخمسة — سار قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي إلى أخيه الملك العادل نور الدين محمود ، وجعا العساكر

(١) أضاف (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٢) و (أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣) نصا آخر هاماً من نصوص هذه المعاهدة ، وهو : « ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار » .

ودخلا بلاد الفرنج ، فاجتازوا على حصن الأكراد (١) ، فأغاروا ونهبوا وسبوا ، ونزلوا عَرَقة ، وحاصروا حلب ، وأخذوها وخربوها ، وسارت العساكر إلى بلادهم يمينا وشمالا تُغير وتخرب ؛ وفتحوا العزيمة وصافينا ، وعادوا إلى حمص ، فصاموا بها رمضان ، ثم ساروا إلى بانياس ، وقصدوا حصن هونين ، فانهزم الفرنج عنه ، فأخربوه ، فوصل إليه نور الدين من الغد ، فهدم سورهم جميعه ، وأراد الدخول إلى بيروت ، فتجدد في العساكر خُلف أوجب التفرق ؛ وعاد قطب الدين إلى الموصل فأعطاه نور الدين الرقة .

وفي هذه السنة عصى غازي بن حسان المنبجى بمنبج (٢) ، وكانت قد صارت له بعد أبيه إقطاعا من نور الدين ، فسير إليه عسكرا فحصره ، وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ، فأعطاها ينال بن حسان ، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيها توفي فخر الدين قَرا أرسلان (٣) بن داوود بن سُقمان بن أرئق — صاحب حصن كَيْفا — وأكبر ديار بكر ، ولما اشتد مرضه أرسل إلى الملك العادل نور الدين يقول له : « بيننا صيحة في جهاد الكفار ، أريد أن ترعى بها ولدى » ؛ ثم توفي

(١) حصن منبج على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وذكر (ياقوت) أن بعض أسراء الشام كان قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج ، وأجرى لهم أرزاقاً ، فتدبروها بأها اليهم ثم خافوا على أنفسهم في غارة فجعلوا يحصنونه إلى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وهلكه الفرنج . ثم يقول : وبينه وبين حمص يوم . انظر

أيضاً : (G. Demombynes : *La Syrie a l'Epoque des Mamelouks*. P. 112)

(٢) إحدى مدن العواصم ، وذكر (ياقوت) أنها مدينة كبيرة كان عليها سور مبنى بالحجارة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ .

(٣) ولى حكم حصن كَيْفا من سنة ٥٣٩ إلى سنة ٥٦٢ هـ . انظر : (Zambaur : Op.

فلك بعده ولده نور الدين ^(١) محمود بن قرا أرسلان ، فقام الملك العادل نور الدين بنصرتة والذب عنه ، فأراد قطب الدين مودود بن زنكى — صاحب الموصل — قصده ، فأرسل إليه أخوه نور الدين ومنعه ، وقال : « إن قصدته أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً » ، فامتنع من قصده .

ذكر فراق الأمير زين الدين على كوجك قطب الدين مودود ابن زنكى صاحب الموصل

[٩٥] كان زين الدين على كوجك بن بكتكين هو النائب عن قطب الدين بالموصل والمتحكم في دولته ، وكانت بيده إربل ، وفيها بيته وأولاده وخزائنه ، وكانت أيضاً بيده شهرزور وجميع القلاع التي معها ، وجميع قلاع الهكارية ، ومنها قلعة العمادية ، وبلد الحميدية ، وتكريت ، وسنجار ، وحران ، فأصابه طرش وعى في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى إربل سلم جميع ما كان بيده من الأعمال إلى قطب الدين ، وبقي معه إربل حسب ، وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة ميمون النقيبة ، لم ينهزم في حرب قط ، وكان كريماً كثير العطاء للجند ، ولما توجه إلى إربل توفي في هذه السنة ، وصارت إربل بعده لولده زين الدين ، ثم توفي على مرج عكا وهو في خدمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، فملكها بعده أخوه مظفر الدين كوكبورى إلى سنة ثلاثين وستمائة ، فملكها الخليفة المستنصر بالله ، وصارت نوابه فيها ، وملكها المستعصم بالله ، إلى أن ملكها التتار ^(٢) الملاعين حين ملكوا البلاد .

(١) دلى الحكم في حصن كيفا من سنة ٥٦٢ — ٥٨١ . انظر المرجع السابق .

(٢) لهذا النص أهمية خاصة ، فهو يدك على أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٥٦ هـ التي استولى فيها هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ثم أرسل قائداً من قواده لمهاجمة إربل والاستيلاء عليها ، انظر : (دائرة المعارف الإسلامية — الترجمة العربية — ، مادة إربل ، وما بها من مراجع) .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جعبر

كان السبب في تملك نور الدين لها أن صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي نزل يتصيد فأخذه بنو كلب أسيراً ، فخلوه إلى نور الدين — رحمه الله — في رجب سنة ثلاث وستين وخمسة ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في المال والإقطاع ليسلم إليه القلعة ، فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهده ، فلم يفعل ، فسير إليها نور الدين الأمير فخر الدين مسعود بن علي بن الزعفراني ، فحصرها مدة ، فلم يظفر بطائل ، فأمدهم بعسكر ، وجعل على الجميع مجد الدين أبا بكر بن الداية ، فلم يحصل على غرض ، فأخذ صاحبها بطريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ عوضاً عنها ، فقبل ذلك ، وتسلمها ، وتسلم سرّوج وأعمالها ، والملاحة التي في بلد حلب ، وباب ، وبزاعة (١) ، وعشرين ألف دينار معجلة ؛ وكانت قلعة جعبر بيد هؤلاء القوم من حين سلمها إليهم جلال الدولة ملكشاه ، وقد ذكرناه في موضعه . وكان استيلاء نور الدين عليها سنة أربع وستين وخمسة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية

[٩٦] المسير الثالث

وكان السبب في ذلك أن الفرنج كانوا قد دخلوا ديار مصر مرتين ، واطلموا على عورتاتها ، وكان لهم بالقاهرة شحنة ، وأبوابها مسلة إليهم ، وبالقاهرة جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم ، فحكموا على المسلمين حكماً جائراً ، وركبهم بالاذى الشديد ، فلما رأوا تمكنهم من البلاد ، وأنه ليس بها راد ولا عن أخذها صاد كاتب

(١) جاء في (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٧٢) أن « الباب » و « بزاعة » قرينتان عظيمتان بل مدينتان صغيرتان في كل واحدة منهما منبر وخطيب ، وهما من أعمال حلب ، أما الباب فهي أكثر عمارة من بزاعة .

الفرنج الذين بالقاهرة ملكهم بالشام المعروف بمُرِّي^(١)، وكان ذا شجاعة ومكر ودهاء، يستدعونه لتملكها، وأعلموه خلوها من الممانع، وهوتوا أمرها عليه؛ وكتبه أيضاً جماعة من أعيان المصريين كانوا أعداء لشاور؛ منهم: ابن الخياط^(٢)، وابن قرجه^(٣)، فشاور الملك فرسان الفرنج وذوى الرأى منهم، فكل منهم أشار بقصدها وملكها، فقال لهم: «الرأى أنا لا نقصدها، فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا، نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسموها إلينا، ويقاثلوننا دونها، ويحماهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام». فلم يقبلوا قوله، وقالوا: «إنه لا مانع منها ولا محامى، وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة». فوافقهم على كره، وتجهز للسفر، وأظهروا أنهم يريدون قصد حمص.

وسمع نور الدين بتجهيزهم فجمع عساكره، وتجهز للقائهم وتأهب، ثم سار الفرنج من عسقلان إلى الديار المصرية.

(١) هو «أمريك الأول» Amalric I «ملك بيت المقدس، وتسميه المراجع العربية «مرِّي» أو «عمورى»، وقد ولى الملك بعد وفاة أخيه «بلدوين الثالث Baldwin III الذى لم يقب. انظر: (Ranciman: A History of the Crusades. Vol. 2. The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East. 1100-1187. PP. 362. ff).

(٢) هو يحيى بن الخياط، كان من قواد الدولة فى عهد وزارة الصالح طلائع بن رزيك، ثم أصبح من رجال شاور: بل أصبح اسفيسلار العساكر فى أول عهده، ولكنه اختلف معه فى عهد وزارته الثانية وخرج عليه فى قوص يطلب الوزارة لنفسه، فأخضع حركته الكامل بن شاور. انظر: (عمارة، النكت المصرية، ص ٣٥ و ٦٩ و ٧٨ و ٣١٩ و ٣٤٨)، (أبوشامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢٦).

(٣) ورد ذكره فى (النكت المصرية ص ٤٩٥) عند الحديث عن المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين التى اشترك فيها عمارة، قال: «وكتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والسكامة واحدة... وكان الرسول خال ابن قرجه» أنظر أيضاً: (أبوشامة: الروضتين، ج ١، ص ١٧٠).

ذكر منازلة الفرنج بلبيس وملكهم لها

فوصلوا إلى مدينة بلبيس فنازلوها وملكوها غرة صفر من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسمائة — فهبوا أهلها ، وقتلوا وسبوا وأسروا ، ثم رحلوا عنها .

ذكر منازلة الفرنج القاهرة

ونازلوا القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فامتنع أهل البلد واستحصنوا خوفاً أن تملكها [٩٧] الفرنج ، فيسيروا فيهم سيرتهم في أهل بلبيس ، فقاتلوا ، وبذلوا الجهد في الحفظ .

ذكر إحراق مصر

وأمر شاور بإحراق مصر ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، وأن ينهب البلد ، فانتقلوا ، وبقوا على الطرق ، ونهب مصر ، وافترق أهلها ، وذهبت أموالهم ونعمهم ، وذلك في تاسع صفر قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم واحد ، فبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، واشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وضاق الحصار ، وخيف البوار ، وعلم شاور عجزه وضعفه ، وأن البلاد ذاهبة لا محالة ، فسلك طريق التملح ، وأرسل إلى ملك الإفرنج مُرّياً يذكر له مودته ومحبته ، وأن هواه معه ، وتخوفه من نور الدين ، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم ، ويشير بالصلح وأخذ مال ، لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين .

ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج

فأجابه مُرّى إلى الصلح على ألف ألف دينار، يجعل البعض ويؤخر الباقي؛ ورأى الفرنج أن المصلحة في ذلك لئلا يتدارك نور الدين البلاد ويأخذها، فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وماتل بالباقي خداعاً ومكرًا، وسير الكتب إلى نور الدين مُسَوِّدَةً وفي طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة، وواصل الكتب إليه مستفزاً ومستنصراً، ويقول: «إن لم تبادر ذهبت البلاد»، وأرسلها مع نجابين — يتلو بعضهم بعضاً — وأقام منتظراً ما يرد عليه من نور الدين، وهو مع ذلك يدافع الفرنج ويماطلهم.

ووردت مكاتبة العاضد لدين الله إلى نور الدين في هذا المعنى، وبذل له — إن وصل — ثلث البلاد، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقبلاً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين.

ولما وردت الرسل إلى نور الدين بذلك كان بحلب، فأرسل إلى أسد الدين شيركوه — وكان بحمص، وهي إقطاعه — يستدعيه، فلما خرج القاصد من حلب متوجهاً إلى أسد الدين وجده قد وصل إلى حلب، لأنه كان أيضاً قد أتته كتب المصريين يحثونه على سرعة الوصول إليهم، فلحصر أسد الدين على التجهز إلى الديار المصرية سار من حمص إلى حلب، فوصلوا في ليلة واحدة، فأمره نور الدين بالتجهز [٩٨] إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختر من العسكر ألفي فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس.

ونذب الملك العادل نور الدين صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب ابن شاذي أن يمضى مع عمه إلى الديار المصرية ، فكره ذلك صلاح الدين ، فروى عنه القاضي بهاء الدين بن سرائد — قاضى حلب رحمه الله — قال : لقد قال لى السلطان — يعنى صلاح الدين — « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » ، قال : وهذا معنى قوله سبحانه « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قال عز الدين بن الأثير — رحمه الله — فى تاريخه الكامل : « أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ؛ وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه » قال : « فلقد حكى لى صلاح الدين ، قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بمحمص مع رسول إليه تأمره بالحضور ، وتحثه أنت على الإسراع ، فما يحتمل الأمر التأخير .

قال : ففعلت ، فلما فارقت حلب ، على ميل منها ، لقيناه قادماً فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز للمسير ؛ فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً وعدم ما ينفقه فى العساكر ثانياً ؛ فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت عن المسير إلى مصر ، فالصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره ؛ قال : فالتفت إلى عمى أسد الدين وقال : تجهز يا يوسف ؛ قال : فكأنما ضرب قلبى بسكين ؛ فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق بها ما لا أنساه أبداً ؛ فقال عمى لنور الدين : لا بد من مسيره معى ، فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا استقبله ؛ فانفضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر

من التركان وغيرهم ، ولم يبق [٩٩] غير المسير ، فقال لى نور الدين : ولا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوتُ إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به ، وكأنا أساق إلى الموت ؛ — وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته — ، فسرتُ معه . فلما توفى أعطاني الله من الملك ما كنت أتوقعه .

ثم سار نور الدين وأسد الدين من حلب إلى دمشق فوصلها سلخ صفر ، ثم رحلوا إلى رأس الماء ، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء ، ومنهم مملوكه عز الدين جورديك — وهو الذى لما توفى نور الدين كان نائباً عنه بقلعة حماة — ، والامير غرس الدين قلعج — والد الامير سيف الدين وعماد الدين — ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان — صاحب منبج — ، وغيرهم .
ثم (١) سار أسد الدين شيركوه من رأس الماء منتصف ربيع الأول .

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر ورحيل الفرنج عنها

ولما قرب أسد الدين — رحمه الله — من الديار المصرية رحل الفرنج عنها خائبين ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، ووصلت الأخبار بذلك إلى نور الدين — رحمه الله — ، فأمر بضرب البشائر (٢) في البلاد الإسلامية ، فإنها كانت أجل الفتوح (٣) وأعظمها ، إذ لو استولى العدو — لعنه الله — على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الإسلامية .

(١) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١١٦) من نسخة س ، وبذلك تعود المقارنة بين نصي النسختين .

(٢) في الأصل : « المشاير » وما هنا عن : س (ص ١١٦) .

(٣) في س : « الفتوحات » .

وكان وصول أسد الدين — رحمه الله — إلى القاهرة لأربع مضين من ربيع الآخرة من هذه السنة ، — أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة — ، ودخل إلى القصر ، واجتمع بالعاقد^(١) لدين الله ، وخام عليه ، وعاد إلى مخيمه بالخلعة العاضدية ، وفرح به أهل مصر ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة .

ذكر مقتل شاور^(٢)

وأقام شاور يتردد إلى أسد الدين شيركوه ، وكان قد وعده بمال في مقابلة ما خسره من النفقة ، فلم يوصل إليه شيئاً ، وقيل إنه ماطله في تقرير ما يبذل^(٣) له من المال والإقطاع [١٠٠] للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ؛ وذكر أنه كان [شاور^(٤)] قد عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ، ويقبض عليهم [فيها^(٤)] ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعزفنَّ أسد الدين » . فقال أبوه : « والله لئن لم نفعل هذا لنُقتلن جميعاً » ، قال : « صدقت ، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نُقتل وقد ملكتها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على [أسد الدين^(٤)] شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاقد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ، ويملكون الفرنج البلاد » فترك [شاور^(٤)] ما كان عزم عليه واجتمع أسد الدين وأصحابه على الفتك بشاور لأنهم علموا أن الفرنج متى وجدوا فرصة

(١) في س : « بالخليفة العلوى العاقد » .

(٢) هذا العنوان غير موجود في س .

(٣) في س (ص ١١٦) : « في الذى استقر بينهما من المال . . الخ » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س .

أخذوا البلاد ، وإن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وإن شاور يلعب بنا (١) تارة وبالفرنج أخرى ، وإنهم إن قتلوه واستولوا على البلاد حفظوها من عدو الدين ، وقيل إن صلاح الدين وعز الدين جرديك اتفقا على ذلك ، وشاورا أسد الدين في ذلك ، فنهاهما عنه ؛ وقيل إن أسد الدين سائر الفقيه ضياء الدين عيسى (٢) إلى شاور يشير عليه بالاحتباس (٣) ، وقال : « أخشى عليك ممن عندي من الناس » ؛ فركب شاور منبسطاً على عادته واسترساله ، وكان يركب على قاعدة الوزراء بالطبل والبوق والعلم ، وكان أسد الدين قد توجه لزيارة قبر الشافعي — رحمة الله عليه (٤) — بالقرافة (٥) ، فقصده شاور مخبئاً أسد الدين ليجتمع به على العادة ، فصادفه صلاح الدين يوسف ابن أيوب والامير عز الدين جرديك — رحمهم الله — ومعهم جمع من العسكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : « نمضي إليه » ، فسار — وهما

(١) في س : « بهم » .

(٢) هو الفقيه أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ، كان في مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزاجية بحلب ، ثم اتصل بالأمير أسد الدين شيركوه فعينه إماماً له ، وأتى معه إلى مصر وكانت ليدعى اليد الكبرى في إقناع أمراء الجيش النوري بمصر لتولية صلاح الدين الوزارة للمعاضد بعد موت عمه أسد الدين ، وأصبح منذ ذلك الحين واحداً من كبار الأمراء الصلاحية ، وكان عيسى فقيهاً وجندياً مجاهداً ، يلبس ذى الأجناد ويعتم بهامة الفقهاء ، وقد أسره الفرنج وبقى في الأمر إلى أن اقتداه صلاح الدين بمبلغ كبير من المال . وتوفي في ذى القعدة سنة ٥٨٥ هـ . انظر : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٣ ، ص ١٦٥ — ١٦٦) .

(٣) في س (١١٦ب) : « بالاحتراز على نفسه » .

(٤) في س : « رضى الله عنه » .

(٥) خطة من خطط الفسطاط الأولى كانت لبني غصن بن يوسف بن وائل من المعافر ، وقرافة بطن من المعافر ، نزلوها عند الفتح فسميت بهم ، قال (يا قوت) : وهي اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة وحال واسعة وسوق قاعة ومشاهد للصلحين وترب الأكارم مثل ابن طولون والهاذرائي وبها قبر الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي في مدرسة للفقهاء الشافعية . وقد أصبح هذا اللفظ علماً يطلقه المصريون إلى اليوم على كل مقبرة لدفن الموتى في أى مكان وفي أى مدينة من مدنها .

معه — قليلا، فأخذ صلاح الدين بتلايبيه (١)، وأمر العسكر أن يقبضوا على أصحابه، ففروا، ونهبهم العسكر، وألقى شاور عن فرسه، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فذهبوا به إلى خيمة مفردة، فسجنوه بها، ووكّل به من يحفظه بها، وعلم أسد الدين الحال فعاد من القرافة مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وجاء رسول العاضد لدين الله في الوقت، وهو أحد الخدم [١٠١] الخواص (٢)، ومعه (٣) توقيع يتضمن: « [أنه (٤)] لا بد من [أخذ (٤)] رأسه »، جريا على عادتهم في وزرائهم، في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه، فضرب عنقه وحمل رأسه إلى القصر، وذلك سابع ربيع الآخر.

ودخل أسد الدين القاهرة، ورأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: « إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور »، فقصدوها الناس قهيوها، وتفرقوا عنه.

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية وتقلده وزارة العاضد

تم خلع العاضد على أسد الدين خلع الوزارة، فلبسها، وسار، ودخل القصر، وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش، ولُقّبَ الملك المنصور أمير الجيوش؛

(١) كتب في هامش الأصل معنى هذه العبارة باللغة اللاتينية هكذا (Vestis quae circa Jugutu)

(٢) إلى هنا تنهى (ص ١١٦ ب) من نسخة س، وبمدها يعود الاضطراب في ترتيب الصفحات.

(٣) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٢٩) من نسخة س.

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة من س.

وقصد دار الوزارة (١) فنزلها ، واستقر في الأمر ، ولم يبق له منازع ولا مناوئ
وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله وولَّيه [عبد الله (٢)] أبي محمد الإمام
العاقد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش
ولي الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ،
أبي الحرث شيركوه — العاضدي — عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه
أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته : سلام عليك ، فإنه يحمد (٣) إليك الله
الذي لا إله إلا هو ، ويسأله (٣) أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين
[صلى الله عليه (٢)] وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين ، وسلم تسليماً
[كثيراً (٢)] . »

ثم مضمون بقية (٤) المنشور تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ،
والذب عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانتهاز عن مناهيه ،
وإلى غير ذلك من الوصايا ، أعرضنا عن ذكرها لطولها .

(١) ذكر المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠١ — ٣٠٤) أن هذه الدار أنشأها الأفضل
شاهنشاه بن بدر الجمالي ، ولهذا كان يقال لها أيضاً الدار الأفضلية ، وكانت تقوم بجوار القصر
الكبير الشرقي تجاه رجة باب العبد ، وما زال وزراء الفاطميين أرباب السيوف من عهد الأفضل
يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة فاستقر بها الملك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه
من ملوك الأيوبيين وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأوّل من انتقل عنها وسكن بالقلمة
الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلاً لضيافة الرسل .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠) .

(٣) في س (١٢٩) : « فاني أحمد » ، « نسأله » .

(٤) ورد نص هذا المنشور كاملاً في : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ — ٩٠)
فراجع هناك ، وانظر أيضاً نفس المرجع ، ص ٦ ؛ (ابن الحنبلي : شفاء القلوب ، ص
١٨ — ١١٠) .

وكتب العاضد في هذا (١) المنشور بخطه :

« هذا عهد لم يُعهد لوزير مثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها (٢) ،
والحجة عليك . عند الله ، بما (٣) أوضحه لك من مرشد سبله (٤) ، فخذ كتاب
أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزّت خدمتك إلى بنوة النبوة ،
واتخذ (٥) للفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها [١٠٢] وقد جعلتم
الله عليكم كفيلا (٦) . »

ولما انتظمت الأمور لأسد الدين بالديار المصرية أقطع البلاد للعساكر التي (٧)
قدمت معه ، وصلاح الدين — رحمه الله — ابن أخيه ، مباشر الأمور مقرر لها ،
وبيده زمام الأمر والنهي .

ومدح الشعراء أسد الدين ، فمن مدحه عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد (٨)
الاصفهانى الكاتب من قصيدة سيرها إليه من الشام ، وهو في خدمة نور الدين
— رحمه الله — :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جُنيت من دوحة التعب

(١) في س : « في طرة » وقد ورد نص هذا التوقيع في : (صبح الأعشى ج ٩ ،
ص ٤٠٦ — ٤٠٧)

(٢) النص في : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٦) هو : « وتقلد أمانة
رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله . »

(٣) في الاصل : « وبما » والتصحيح عن : (س) و (صبح الأعشى) .

(٤) في س : « سبله » .

(٥) في : (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) « واتخذ أمير المؤمنين » .

(٦) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٧) في الأصل : « الذى » .

(٨) انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٨) و (الصفدى :

الوافى بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٤٠) و (النعمى : الدرر فى تاريخ المدارس ،

ج ١ ، ص ٤٠٨ — ٤١٢) و (مقدمة خريدة القصر للهاد ، الجزء الأول من القسم الأول

— شعراء مصر — نشر أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس) .

ياشيركوه بن شاذى الملك دعوة من
جرى الملوكة ، وما جازوا بركضهم
تَمَلَّ من مُلْك مصر رتبة قصرت
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
أنت الذى هو فردٌ من بسالته ،
فى حلق ذى الشريك من عدوى سطاك شجاء ،
زارت بنى الأصفر البيض التى لقيت
وإنها نقد^(١) من خلفها أسد
لقد رفَعْنَا إلى الرحمن أيدينا
يشكو^(٢) إليك بنو الإسلام يَتَمَهَّمُ
فى كل دار من الإفرنج نادبة
من شر شاور أُنقذت العباد ، فكم
هو الذى أطمع الإفرنج فى بلد الـ
وإن ذلك عند الله محتسب
[١٠٣] أذله الملك المنصور منتصراً ،
وما غضبت لدين الله منتقماً
وأنت من وقعت فى الكفر هيبته
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا

نادى فعرف خير ابن بخير أب
من المدى فى العلى ما حُزَّت بالخبيب
عنها الملوكة فطالت سائر الرتب
ميسراً فتح بيت القدس عن كذب
فتح البلاد ، فبادر نحوها وثب
والدين من عزمه فى جحفل لجب
والقلب فى شجن ، والنفس فى شجب
خمر المنايا بها مرفوعة الحجب
أرى سلامتها من أعجب العجب^(٣)
فى شكرنا ما به الإسلام عنك^(٤) حبي
فَقُمْتَ فيهم مقام الوالد الحبيب
بما دهاهم ، فقد باتوا على نذب
وكم قضيت لحزب الله من أرب
إسلام حتى سعموا للقصد والطلب
فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب
لما دعا الشرك : هذا قد تعزز بى
إلا لنيل رضا الرحمن بالغضب
وفى ذويه وقوع النار فى الخطب
نُصرت نصراً رسول الله بالرب

(١) النقد جنس من الغنم تصار الأرجل قباح الوجوه تكون بالبحرين ، وقيل هى غنم صفار حجازية ، (اللسان) .

(٢) بهذا اللفظ تنتهى (ص ٢٩ ب) من نسخة ص ، ثم يضطرب بعد ذلك ترتيب الصفحات فى تلك النسخة وبالتالي تنقطع الصلة بين النص هناك وبين المتن هنا (نسخة ك) .

(٣) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٩) : « منك » .

(٤) نص الروضتين : « شكاً » .

يا محي الأمة الهادي بدعوته
لما سعت لوجه الله مُرتقباً
أعدت نعمة مصر نعمة ، ففدت
أركبت رأس سنان رأس ظالمها
ردّ الخلافة عباسية ، ودّع الـ
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسها ،
للرشد كل غوى منهم وغى
ثوابه ، نلت عفوا كل مرتقب
تقول لكم نكت^(١) الله في التوب
عدلا ، وكنت لوزر غير مرتكب
دعى فيها يصادف شر منقلب
فلحزم عندي : قطع الرأس والذنب .

وفي قتل شاور وتولى أسد الدين الوزارة يقول عرقلة الدمشقي الشاعر ويمسح
صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب من قصيدة :
لقد فاز بالملك العقيم خليفة له شيركوه العاضد وزير
كأن ابن شاذي والصلاح وسيفه على ، لديه شبر وشبير^(٢)
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه ، وشاور كلب للرجال عقور
بني وطني ، حتى لقد قال صحبه^(٣) على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذي — رحمه الله —

ذكر القاضي بهاء الدين بن شراذ — رحمه الله — في تاريخه أن أسد الدين
كان كثير الأكل شديد المواظبة على اللحوم الغليظة ، تتواتر عليه التخم والخوانيق ،
وينجو منها بعد معاناة شديدة عظيمة ، فأخذ مرض شديد واعتراه خانوق^(٤) عظيم

(١) كذا في الأصل ، ولعلها : كم من .

(٢) شبر وشبير اسمان للحسن والحسين ولدى علي بن أبي طالب ، فقد جاء في (اللسان) :
شبر وشبير وشبير م أولاد هارون على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومنها بالعربية : حسن
وحسين ومحسن ، وبها ممي على أولاده شبر وشبيرا ومشبيرا يعني حسنا وحسينا ومحسنا .

(٣) النص في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧) : « قائل » .

(٤) الخناق أن يحدث في المبلع ضيق ، يقال له خوانيق ، وهو مخنوق . (الخوارزمي :
مفاتيح العلوم ، ص ٩٧) .

فقتله ؛ وقيل بل توفي فجأة ، وكانت وفاته يوم السبت [١٠٤] لثمان بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسة — فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام .

ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله — على الديار المصرية ، وتقلده وزارة العاضد .

ذكر القاضى بهاء الدين أن الوصية كانت إليه من عمه أسد الدين ، وأنه لما فُوض إليه الأمر تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمّص لباس الجِد والاجتهاد ، وما عاد وما زاد إلا جِدًّا إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

قال : « ولقد سمعته — رحمه الله — يقول : لما يسّر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى » .

وذكر عن بهاء الدين أنه لما توفي أسد الدين كان بمصر جماعة من أكابر الأمراء النورية ، منهم : عين الدولة الياروقى ^(١) ، وقطب الدين خسرو بن التليل ، — وهو ابن أخى ابن أبى الهيجا الهذبانى صاحب إربل وقد ذكرناه — وسيف الدين على بن أحمد المشطوب ، — وكان جده صاحب قلاع المكارية — وشهاب الدين الحارمى — خال صلاح الدين — ، وكل منهم تطاول إلى الأمر ورام التقدم ، فأرسل العاضد من القصر يستدعى صلاح الدين ليخاع عليه ويوليه الوزارة ، وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ولا رجال كان تحت يده وحكمه ، ولا يجسر على المخالفة ؛ وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وتعود البلاد

(١) لعل النسبة هنا إلى « الياروقية » وهى محلة بظاهر حلب . أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠) .

إليه ، وعنده من المساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين ، فامتنع صلاح الدين ، وضعت نفسه عن هذا المقام ، فألزم به ، وأحضر إلى القصر ، وخلعت عليه خلع (١) الوزارة ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار الوزارة ، وهي الدار التي كان بها عمه ، فلم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء ولا خدموه ، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وما زال بسيف الدين علي بن أحمد المشطوب حتى أماله إليه ، وقال : « إن هذا الأمر لا يصل إليك مع (٢) وجود عين الدولة وشهاب الدين الحارمي وابن تيميل » ، ثم قصد به شهاب الدين وقال : « إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك ، وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى [١٠٥] في إخراجته عنه ، فلا يصل إليك » ، ولم يزل به حتى استحلفه له .

واجتمع بعد ذلك بقطب الدين وقال له : « إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي ، وعلى كل حال فالجامع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك » ، ووعدته زيادة في إقطاعه ، فأجاب وحلف .

(١) ورد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) وصف كامل لهذه الخلع التي خلعت على صلاح الدين عند توليته الوزارة ، وقد آثرنا نقله هنا لأهميته : « وكانت خلع الوزارة : عمامة بيضاء تنسب بطراز ذهب ، وثوب ديبق بطرازي ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب ، وطيلسان ديبق بطراز ديبق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلي مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر ، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهر ، وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلع عدة بقج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر » .

(٢) في الأصل : « إلا مع » وقد حذفت « إلا » ليستقيم المعنى . راجع : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧) .

ثم اجتمع بالياروقى — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا — ، فلم ينفع فيه رقاؤه ولا نفث فيه سحره ، وقال : « أنا لا أخدم يوسف أبدا » . وعاد إلى نور الدين ومعه غيره ، فأنكر عليهم فراقه له .

وذكر عماد الدين الطائب في كتابه المعروف بالبرق السامى : « أن أسد الدين لما توفى ومضت له التعزية اختلفت آراء الأمراء واختلفت آراؤهم ، ثم اجتمعت كلمتهم على عقد الأمر لصالح الدين ، وألزموا العاضد — صاحب القصر — بتوليته ، فولاه وزارته ، وكتب له منشور^(١) بالإلشاء الفاضلى ، من جملته :

« فأنت راضعُ دَرَّةٍ وناشئةُ حَجَرِهِ ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله^(٢) تجلى محاسنك . وفي أعقاب نوازة تتلى مناقبك^(٣) ، فشمر له عن ساق من الفنا ، وخض فيه بحوافر^(٤) الظبا ، واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الجبي^(٥) ، وأسِلِّ الوَهَادَ بدم العدا ، وارفع برءوسهم الرُّبَا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لا يامك ، ومشهوداً لك يوم مقامك » .

وكتب العاضد لدين الله فى طرته^(٦) بخطه :

« هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجَّتُهُ عند الله سبحانه عليك ، فأوفِّ بعهديك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين يمينك ، وبمن مضى بجدنا رسول الله

(١) هذه فقرة قصيرة من المنشور ، وقد أوردناها بمينها (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٦١) أما نص المنشور كاملاً فقد ورد فى : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩١ — ٩٨) فراجع هناك فهو وثيقة هامة . وورد فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) أن منشور الوزارة هذا كان ملفوفاً فى ثوب من الأطلس الأبيض .

(٢) فى صبح الأعشى : « مشاكاه » .

(٣) فى صبح الأعشى : « ميامنك » .

(٤) فى المرجع السابق . « بحرا من » .

(٥) فى نفس المرجع : « واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الجبي » .

(٦) ورد نص ما كتبه العاضد فى الطرة فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ — ١٦٢)

و (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) .

— صلى الله عليه وسلم — [أحسن] (١) أسوة ، [ولمن بقى بقربنا سلوة] (١) وَتِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٢) .

وهذا آخر منشور كتب عنهم ، وانقرض أمرهم ، وانقضت عرى دولتهم .

وفي هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية في الوهن
والضعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين على ما سندكره
— إن شاء الله تعالى —

ورثي عماد الدين الكاتب أسد الدين — رحمه الله — بقصيدة عزى بها أخاه
نجم الدين [١٠٦] أيوب وولده الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وهنأها بملك
الملك الناصر صلاح الدين الديار المصرية :

ما بعد يَوْمِكَ للمعنى المَدْنَف	غيرُ العويلِ وحسرةِ المُتَأَسِّفِ
ما أجراً الحَدَثَانِ ! كيف عدا (٣) على الآ	سد الخوف سَطَا ، ولم يتوقَّفِ
مَنْ ثَابِتٌ دُونَ الكَمَاةِ سِوَاهُ ؟ إِنْ	زَلَّتْ بِهِمْ أَقْدَامُهُمْ فِي المَوْقِفِ
مَنْ ذَا رَأَى الأسدَّ المَهْصُورَ فَرِيصَةً	أَمْ أَبْصَرَ الصَّبِيحَ المُنِيرَ وَقَدْ خَفِيَ ؟
مَا كَانَ أَسْنَى البَدْرِ لَوْ لَمْ يَسْتَرِ !	مَا كَانَ أَبْهَى الشَّمْسِ لَوْ لَمْ تُكْشَفِ !
أَيَّامُ عَمْرِكَ لَمْ تَزَلْ مَقْسُومَةً	لِللَّهِ : بَيْنَ تَعَبْدٍ وَتَعَرُّفِ
مَتَهَجِّدًا لِعِبَادَةٍ ، أَوْ تَالِيًا	مِنْ آيَةٍ ، أَوْ نَاطِرًا فِي المُصْحَفِ
نَجْعُ النَّدَا والبَاسُ مِنْكَ بِحَاتِمِ	وَبِحَيِّدِرٍ ، وَالْعِلْمُ مِنْكَ بِأَحْنَفِ
بِالْمَلِكِ قُزْتُ ، وَخُزَّتْهُ عَنْ قُدْرَةٍ ،	وَمَضِيَتْ عَنْهُ بِسِيرَةِ المُتَعَقِّفِ
وَوُصِفْتَ يَا أَسَدًا لِدِينِ مُحَمَّدٍ	مَدْحًا بِمَا مَلِكٌ بِهِ لَمْ يُوصَفِ

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة المراجعين السابقين .

(٢) السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٨٣ ك .

(٣) في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٢) « سطا » .

وَقَفَوْتَ آثَارَ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا ، وَقَدْ اهْتَدَى مِنَ الشَّرِيعَةِ يَقْتَفِي
أَأْنِفْتَ مِنْ دُنْيَاكَ حِينَ عَرَفْتَهَا ؟ فَلَوَيْتَ وَجْهَ الْعَارِفِ الْمُسْتَكْفِ (١)
يَا نَاصِرَ الدِّينِ اعْتَمِدْ بِتَصَبُّرٍ مُدْنٍ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّ مَزَلَفٍ
وَتَغَرَّ نَجْمَ الدِّينِ عَنْهُ مُهْنًا أَبَدَ الزَّمَانِ بِمُلْكٍ مَصْرَ ، وَيُوسُفَ
لَا نَسْتَطِيعُ سِوَى الدَّعَاءِ ، فَكَلَّمَا — إِلَّا بِمَا فِي الْوُسْعِ — غَيْرُ مُكَلَّفٍ

ولما ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمهما الله — مصر
كتب إلى بعض أصدقائه وأودائه بالشام كتابا أوله :

« أَيُّهَا الْغَائِبُونَ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ سَمَّ لِقَابِي بِذِكْرِكُمْ جِيرَانَا
إِنِّي مَذْفُودٌ فَقَدْتُمْ لَأَرَاكُمْ بَعِيُونَ الضَّمِيرَ عِنْدِي عَيَانًا »

فأجابه ، والشعر والترسل لعماد الدين الأصفهاني :

[١٠٧] « أَيُّهَا الظَّاعِنُونَ عَنَّا (٢) وَقَلْبِي مَعَهُمْ (٣) مَا يَفَارِقُ الْأَشْجَانَا (٤)
مَلِكُوا مَصْرَ مِثْلَ قَلْبِي ، وَفِي هَذَا ، وَفِي تِلْكَ (٥) أَصْبَحُوا سُكَّانَا
فَاعْدِلُوا فِيهِمَا ، فَإِنَّكُمْ الْيَوْمَ مَلِكْتُمْ عَلَيْهِمَا سُطْرَانَا
لَا تَرَوْعُوا بِالْهَجْرِ قَلْبَ حُبِّ أَوْرَثْتُهُ أَوْصَابَهُ (٦) أَخْلَقْنَا
حَبْدًا مَعَهُدٌ قَضِينَا بِهِ الْعَيْشَ شَ ، وَكُنَّا بِرَّيْعِهِ جِيرَانَا (٧) »

(١) فِي الرُّوسَتَيْنِ : « الْمُسْتَكْفِ » .

(٢) فِي الرُّوسَتَيْنِ : « عَنِّي » .

(٣) فِي الرُّوسَتَيْنِ : « لَا » .

(٤) فِي الرُّوسَتَيْنِ « الْأَشْجَانَا » .

(٥) فِي الرُّوسَتَيْنِ « وَهَاتِيكَ » .

(٦) فِي الرُّوسَتَيْنِ : « رَوْعَاتِهِ » .

(٧) هَذِهِ الْمَقْطُوعَةُ يَنْقُصُهَا بَيْتَانِ يَلِيَانِ هَذَا الْبَيْتَ الْآخِرَ ، أَوْرَدَهَا صَاحِبُ الرُّوسَتَيْنِ

(ج ١ ، ص ١٦٢) ، وَهَذَا :

إِذَا وَجَدْنَا مِنَ الْحَوَادِثِ أَمَانًا وَأَخَذْنَا مِنَ الْخَطُوبِ أَمَانًا
وَرَتَمْنَا مِنَ الْغَيِّ فِي رِيَاضٍ وَسَكَنَّا مِنَ الْمَغَايِ جَنَانًا

وبعد : فإن وفود الهناء ، وأمداد الدماء ، متواصلة على الولاء ، صادرة عن محض الولاء ، إلى على جنابه المأنوس ، ومنيع كنفه المحروس ، فليهنه الظفران بالملك وبالعدو ، وفرع هضاب المجد والعلو ، وكيف لا يكون النصر مساوقاً لدين هو صلاحه ، والتأييد موافقاً لعزم هو (١) نجاحه وفلاحه .

فالشامُ يَغِيْبُطُ مصرًا مُدَّ حَلَّتَ بها كما الفراتُ عليكم يحسدُ النيلُ
نلتُم من المُلْكِ عفوًا ما الملوْكُ به عُنُوا قديما وراموه فما نِيلا «

وثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين في الملك ورسخ ملكه ، واخطبة مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين ؛ فالملك في الظاهر له ، ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره ، والمكاتبة ترد عليه من نور الدين : « بالأمير الاسفہسلار (٢) » ، ويكتب نور الدين اسمه قبل علامته (٣) تعظيما لنفسه ، ولا يُفردده بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الاسفہسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » .

(١) الأصل : « موافقا به نجاحه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) انظر ما فات هناس ٢ ، هامش ١ .

(٣) العلامة مصطلح خاص يكتبه الخليفة أو السلطان بيده على الرسائل أو الأوامر أو السجلات الصادرة عنه ، ولا تصدر هذه الوثائق على اختلافها إلا بعد كتابة هذه العلامة ، وكان كل خليفة أو سلطان أو ملك يتخذ لنفسه مصطلحاً خاصاً ليكون علامته ، وقد يكون توقيعاً باسمه أو آية قرآنية أو قولاً مأثوراً إلخ . . وهذه العلامة هي التي تطورت في أواخر العصر المملوكي وفي العصر العثماني فأصبحت تعرف « بالظفر » . أنظر : (المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨) حيث يشير إلى « الظفرا » و « العلامة » بقوله : « وكان في الدولة السلجوقية يسمى ديوان الانشاء بديوان الظفرا ، وإليه ينسب مؤيد الدين الظفرائى . والظفرا هي طرة الكتوب ، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ ألقاب الملك ، وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتيب ويستغنى بها عن علامة السلطان ، وهي لفظة فارسية » .

أنظر أيضا : (C. Cahen : la Tughrā Seljukide. Journal Asiatique, 1945 ; La : Correspondance de Diyā ad- Din Ibn al-Athir. B. S. O. S. V. XIV. Part 1.)

(و) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، هامش ١ .

ثم شرع صلاح الدين فى استمالة قلوب الناس إليه ، ويبدل من الأموال ما كان
أشد الدين جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به ، فلم يمكنه منعه ، فقال الناس
إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف
أمر العاضد .

ثم بلغ نور الدين أن الفرنج قد اجتمعت لتسير إلى مصر ، فأمد نور الدين
صلاح^(١) الدين بعسكر فيهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب
— وهو أكبر من صلاح الدين — وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه :
« إن كنت تسير إلى مصر [١٠٨] وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم
فى خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر ك حينئذ وأعاقبك
بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه
بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه ، واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصده » ؛
فقال : « أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى » ،
فكان كما قال .

ذكر وقعة السودان بالقاهرة

وكان بالقاهرة خصى^٢ يقال له مؤتمن الخلافة^(٢) ، وكان متحكما فى القصر ،
ولما ثقلت وطأة الملك الناصر على أهل القصر ، وعلموا أن دولتهم زائلة بسببه ،
أحبوا الراحة منه ، فأجمعوا على مكتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد ، فإذا خرج
صلاح الدين إلى لقاءهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، واجتمعوا هم والفرنج

(١) فى الأصل : « لصلاح » .

(٢) اسمه الكامل : « مؤتمن الخلافة جوهر » وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر .

انظر : (المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) .

على حربه وحرب أصحابه واستئصالهم ، ويكون بعد ذلك البلاد بينهم وبين الفرنج يقتسمونها ، فسير مؤتمن الخلافة رجلا وحمله (١) كتابا إلى الفرنج ، فخرز عليه نعله ، وظنوا أن ذلك يخفى عن صلاح الدين والمسلمين (٢) ، « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣) » .

فاتفق أن ذلك القاصد لما عبر بالبئر البيضاء (٤) رآه رجل تركماني وعلى القاصد خلقتان ، وفي يده النعلان اللذان (٥) أخفيت فيهما المكاتب ، وليس فيهما أثر شيء ، فأنكرهما التركماني ، فأخذهما ، وأحضرهما إلى صلاح الدين ، ففتقهما فوجد مكاتب الفرنج فيهما من أهل القصر ، فأخذ صلاح الدين الكتاب ، وقال : « دلوني على كاتب هذا الخط » ، فدلوه على رجل يهودي ، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه ويقابلوه ، نطق بالشهادتين واعتصم بهما ، واعترف أنه كاتب الكتاب عن أهل القصر ، فأخفى صلاح الدين الحال ، واستشعر مؤتمن الخلافة ، وخاف على نفسه ، ولأزم القصر لا يخرج منه ، فإذا خرج لم يُبعد ، وصلاح الدين مُعرض عن ذكره البتة ، مفض عنه ، لا يأمر فيه ببسط ولا قبض ، فاسترسل حينئذ وظن أنه لا يقدم عليه ، وكان له قصر

(١) في الأصل : « وأصحابه » ولا يستقيم المعنى بها ، وقد صححت بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) .
(٢) بين كلمة « المسادين » والآية القرآنية لفظ « دبابا » ولا معنى لها فحذفت .

(٣) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٣٢ (م) .

(٤) ذكر (المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) أنها قرية من بلبس ، وهذا ويستفاد مما ورد في (صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٦) عند الكلام عن مراكز البريد وعن الطريق بين القاهرة وغزة أن هذه البئر كانت واقعة بين بلدتى الخانكة وبلبس ، وقد حقق المرحوم محمد رمزي بك موقعها ، قال في : (الاجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤٤ ، هامش ٢) : « وبالبحث عن موقعها تبين لى أن مكانها اليوم عزبة أبى حبيب الواقعة فى حوض البيضاء بأراضى ناحية الزوامل بمركز بلبس ، ولا يزال اسم البيضاء والمنسوب إليه هذه البئر يطلق على الحوض المذكور » .

(٥) في الأصل : « اللذين » .

بقرية على شاطئ النيل بقرب قليوب تعرف [١٠٩] بالخرقانية^(١) ، ذات مقبره وبساتين ، فخرج إليها للقتله ، فلما علم صلاح الدين أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه من مأمنه ، وقتلوه وأتوا برأسه ، وذلك يوم الأربعاء لحس بقين من ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة — .

فلما قُتل غار السودان^(٢) عبيد القصر وثاروا ، وكانوا يزيدون على خمسين ألفا ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه ؛ فلما ثاروا أنهض^(٣) إليهم الملك الناصر صلاح الدين أبا الهيجاء السمين ، ووقعت الحرب بين الفريقين — بين القصرين بالقاهرة — واشتد القتال بين الفريقين ، واستمر ذلك يومين ، وصاروا كلما لجأوا إلى محلة أحرقت عليهم ، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة ، تعرف بالمنصورة ،^(٤) ، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم وحریمهم ، فلما أتاها الخبر بذلك ولوا منهزمين ، وركبهم السيوف ، وأخذت عليهم

(١) ذكر (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٩٧) أنها قرية صغيرة من مديرية القليوبية من قسم قليوب واقعة على الشط الشرق قليل في الشمال الغربى لقرية أبى النيط بنحو نصف ساعة ، ومنها إلى القناطر الخيرية نحو ثلث ساعة ، وأبنيتها ريفية وبها جامع بمنارة ؛ وذكر أنها كانت تسمى في العصر الفاطمى « الخاقانية » .

(٢) أشار (المقريزى فى الخطط ، ج ٣ ، ص ٣) إلى بعض الفرق السودانية التى شاركت فى هذه الوقعة ، وهى : « الطائفة الريحانية » والطائفة الجيوشية ، والطائفة الفرحية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم إليهم بين القصرين .

(٣) فى الأصل « نهض » ولا يستقيم بها المعنى ، وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، فالنص هناك فقلا عن العماد : « ثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ، ومقدمهم الأمير أبو الهيجا » .

(٤) ذكر هذه المحلة (المقريزى فى الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) باسم « الحارة المنصورة » ، قال : « هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جداً ، فيها عدة مساكن للسودان ، فلما كانت واقعهم فى ذى القعدة سنة ٦٤٤ أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتغيب أثرها ، فخر بها خطبها بن موسى الملقب صارم الدين ، وصلىها بستانا » . ثم حدد مكانها فى (ص ٣٠) قال : « وكان موضع المنصورة على يمين من ملك فى الشارع خارج باب زويلة . وهى إلى جانب الباب الحديد الذى يعرف اليوم بالقوس عند رأس المنتجبية فيما بينها وبين الهالاية » .

أفواه السكك ، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل ، فأجيبوا إلى ذلك ؛ وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، فمضوا إلى الجيزة ، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — أخو السلطان — في طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف ، فلم يبق منهم إلا الشريد ، وضعف أمر العاصد بالكلية وتلاشى أمره ؛ وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان ، وأعفى أثرها ، فخرّبها بعض الأمراء واتخذها بستانا ؛ وأصبح أمر السودان كأن لم يكن قط (١) ؛ ففي ذلك يقول عماد الدين الكاتب يمدح صلاح الدين ، وسيرها إليه من الشام :

بالمكِ الناصر استنارتْ	— في عصرنا — أوجه الفضائل
على من حقه فروضٌ	شُكراً لما جاد من نوازل
يوسف مصرَ الذي إليه	تَشُدُّ آمالنا الرواحل
أجريتَ نيلين في زراها :	نيل نجيع ، ونيل نائل
وما نفيتَ السودانَ حتى	حكمتَ البيضَ في المقاتل
[١١٦] صيرتَ رَحْبَ الفضاء ضيقاً	عليهم كفه بجائل (٢)
وكلُّ رأى منهم كراءٍ	وأرضُ مصر كلام واصل
وقد خلّتْ منهم المغاني	وأقفرّتْ منهم المنازل

(١) أورد المقرئ في كتابه (الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) نصاً هاماً يشير إلى مكانة السودانيين في الجيش الفاطمي ومبلغ ما كان لهم من نفوذ ، وكيف تتبعهم صلاح الدين في الصعيد بعد هذه الواقعة إلى أن قضى على نفوذهم نهائياً ، قال : « وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة ، فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أقتام بعد أن كان لهم بديار مصر في كل قرية ومحلة وضيمة مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره ، احتراماً لهم ، وقد كانوا يزيدون على خمسين ألفاً ، وإذا ثاروا على وزير قتلوه ، وكان الضرر بهم عظيماً لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم ، فلما كثر بينهم وزاد تمديهم أهلهم الله بذنوبهم . . الخ » .

(٢) الأصل : « كفة لحابل » ، وما هنا عن : (الروصتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، وقد وردت هذه القصيدة أيضاً في : (المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩ — ٣٠) ، وهي هناك أكثر آياتاً فانظرها

وما أُصِيبُوا إِلَّا بِطَلٍّ فَكَيْفَ لَوْ أَمْطَرُوا بِوَابِلٍ !
 وَالسُّودُ بِالْبَيْضِ قَدْ أُبِيحُوا (١) فَهِيَ بِوَادِيهِمْ نَوَازِلُ
 مُؤْتَمِنُ الْقَوْمِ خَانَ حَتَّى غَالَتْهُ مِنْ شَرِّهِ غَوَائِلُ
 عَامِلَكُمْ بِأَلْحَنَّا فَأَخْبَى وَرَأْسُهُ فَوْقَ رَأْسِ عَامِلِ
 يَأْخُجَلُ الْبَحْرِ بِالْأَيْدَى قَدْ آتَى أَنْ تَفْتَحَ السَّوَاهِلُ
 فَقَدِّسْ الْقَدْسَ مِنْ خِبَاثِ أَرْجَاسِ كَفَرِ عُثْمِ أَرَاذِلُ

وذكر عماد الدين أنه وصل في هذه المدة كتاب من الملك الناصر صلاح الدين إلى بعض أصحابه بدمشق ، وضمنه هذا البيت :

وانثر دُرَّ الدَّمْعِ مِنْ قَبْلِ أُبَيْضَا وَقَدْ حَالَ مَذْغَبُ يَاقُوتَا
 فَنَظَّمْتُ فِي الْجَوَابِ أَيْيَاتَا مِنْهَا :

هَنِيئًا لِمِصْرَ كَوْنِ يَوْسُفَ مَلِكُهَا بِأَمْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتَا
 وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلُ يَوْسُفَ شَاوِرَا يَمَانِلُ إِلَّا قَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَا
 وَقَلْتُ لِقَلْبِي أَبْشُرِ الْيَوْمَ بِالْمَنَى فَقَدْ نَلْتِ مَا أَمَلْتُ ، بَلْ حَزَتْ مَا شِئْنَا
 وَلَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ تَلَا شَيْءَ أَمْرِ الْعَاضِدِ خَلِيفَةِ مِصْرَ ، إِلَّا أَنَّ الْخُطْبَةَ بَاقِيَةً لَهُ ،
 وَبَعْدَهُ لِنُورِ الدِّينِ ، فَحَكِيَ لِي الْأَمِيرُ حَسَامُ (٢) الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ قَالَ :

« كَانَ جَدِي فِي خِدْمَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ ، فَحَكِيَ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ شَرَعَ صَلَاحُ الدِّينِ كُلَّ يَوْمٍ يَطْلُبُ مِنَ الْعَاضِدِ شَيْئًا مِنَ الْخَلِيلِ وَالرَّقِيقِ

(١) الْأَصْلُ : « الْجَوَا » وَمَا هُنَا عَنِ الرُّوضَتَيْنِ ، وَفِي الْخَطِّطِ : « تَنْحُوا » .

(٢) كَانَ الْأَمِيرُ حَسَامُ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ قَائِدًا مِنْ كِبَارِ قَوَادِ الدَّوْلَةِ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ وَنَائِبِ السُّلْطَانَةِ فِي عَهْدِهِ ، كَمَا كَانَ صَدِيقًا حَمِيمًا لِلنَّوَّالِ بْنِ وَاصِلَ ، وَسَيُنْقَلُ عَنْهُ فِيمَا يَلِي الْكَثِيرَ مِنْ أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ وَأَسْرَارِهَا وَخَاصَّةً فِي عَهْدِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ ، وَهَذَا أَوَّلُ حَدِيثٍ يُنْقَلُ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي يَنْفَرِدُ ابْنُ وَاصِلَ بِإِرَادِهَا ، وَقَدْ نَقَلَهُ عَنْهُ (أَبُو الْحَاسَنِ : النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ ، ج ٥ ، ص ٣٣٩) .

والأموال ، ليقوى بذلك ضعفه ، قال : فسيرّنى يوما إليه أطلب منه فرساً ، ولم يبق عنده إلا فرس واحد ، فأتيت [١١١] إليه وهو راكب فى بستانه المعروف بالكافورى^(١) ، الذى يلى القصر الغربى^(٢) ، فقلت : صلاح الدين يسلم عليك ، ويطلب منك فرسا ، فقال : ما عندى إلا الفرس الذى أنا راكبه ، ونزل عنه ، وشقّ خنّيه ، ورمى بهما ، وسلم إلىّ الفرس ، فأتيت به صلاح الدين ؛ ولزم العاضد بيته ، ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان .

ذكر منازل الفرنج دمياط وعودتهم عنها خائبين

ولما ملك صلاح الدين — رحمه الله — الديار المصرية ، واستقرت قدمه بها ، واستقرت بها العساكر النورية ، أيقن الفرنج بالهلاك ، وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يقداركوا الأمر وإلا ذهبت البلاد

(١) ذكر هذا البستان (المقرى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٩) عند كلامه عن « خط الكافورى » ، قال : « هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر ، أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طنج الاخشيد ، وكان بجانبه ميدان فيه الخيول وله أبواب من حديد ، فلما قدم جوهر القائد إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة وعرف ببستان كافور ، وقبل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافورى ، ثم اختط مساكن بعد ذلك . وقد حقق المرحوم محمد رضى بك مكان هذا البستان فى القاهرة الحالية فى تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة (ج ٤ ، ص ٤٨ ، هامش ٢) فقال إنه كان بستانا كبيرا واقعاً قبل إنشاء القاهرة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع أمير الجيوش الجوانى ، ومن الغرب بشارع الخليج المصرى ، ومن الجنوب بشارع السكة الجديدة ، ومن الشرق بشارع الخردجية وبين القصرين والنحاسين . ولما خرب هذا البستان وبى فى مكانه الدور والمساكن وغيرها أصبح خط الكافورى قاصرا فيما بعد على المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع أمير الجيوش الجوانى ، ومن الغرب بشارع الشعراى البرانى ، ومن الجنوب بشارع الخرنفش ، ومن الشرق بحارة برجوان .

(٢) كان موضعه حيث البيارستان المنصورى (ومستشفى قلاوون لرمد يشغل جزءاً منه الآن) وكل المساكن التى تجاوره إلى الخليج . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، هامش ١) .

من أيديهم ، فكتبوا افرنج صقلية [والاندلس] ^(١) وغيرهم ، واستمدوهم واستنصروهم
لدين النصرانية ، وأمدهم بالأموال والرجال والسلاح ، واعتدوا للنزول على دمياط ،
فوصل إلى دمياط الفرنج والروم من داخل البحر ، واستصحبوا معهم المنجنوقات ^(٢)
والدبابات ^(٣) وآلات الحصار وغير ذلك ، واشتد أمر الفرنج بالشام لما قدم فرنج

(١) ما بين الحاصرتين عن الكامل لابن الأثير ، والروضتين . والمعروف أن أموري عندما
أدرك خطورة استيلاء نور الدين على مصر أرسل يستجد بمسيحي أوروبا جميعاً . ولكنهم تقاعسوا
عن نجده لأسباب مختلفة . فلجأ إلى مانويل امبراطور الدولة البيزنطية ، فابى دعوته ،
ولهذا كانت الحملة على دمياط تتكون من جيش أموري الصليبي وأسطول بزنطى ضخيم . لمعرفة
أخبار هذه الاتصالات وموقف البيزنطيين في الحملة انظر : (حسن حنبى : نور الدين
والصليبيون ، ص ١٣٤ — ١٤٠) .

(٢) المنجنيق — بفتح الميم وكسر ها — أو المنجنوق ، أو المنجميق ، والجمع : مجانيق
ومجانيق ومنجنوقات ، لفظ أعجمي معرب فهو في اللاتينية (Mangonellus) ، وفي الفرنسية
(Mangonneau) وفي الإنجليزية (Mangonel) ، وهو آلة من آلات الحصار في العصور
الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالى ، وإن كانت قذائفه من الحجارة ، وقد وصفه صاحب صبح
الأعشى (ج ٢ ، ص ١٤٤) بأنه « آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه
ثقل وذنبه خفيف ، تحمل كفة المنجنيق التى يحمل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى
أعلى ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فإصاب شيئاً إلا أهلكه . وقد
ذكر (مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى) في مخطوطته « تبصرة أبواب الألباب في كيفية النجاة
في الحروب من الأسواء .. الخ » التى ألفها خصيصاً لسلطان صلاح الدين الأيوبنى أن المنجنوقات
على عهده كانت ثلاثة أنواع : « منها العربى وهو أيقن مصنوطاتها ، وأوثق معمولاتها ، ومنها
التركى وهو أقلها كفة وأحصها مؤونة ، ومنها الفرنجى » ثم وصف هذه الأنواع جميعاً وصفاً
دقيقاً مشفوعاً بالرسوم . وقد نشر مقتطفات من هذه المخطوطة مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمه
الأستاذ كلود كاهن . انظر : (Claude Cahen: *Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin. Extrait du Bulletin d'Études Orientales, Damas, Tome XII. 1947-1948.*)
هذا ويوجد أيضاً في : (الحسن بن عبد الله : آثار الأوك ، ص ١٩١ — ١٩٣) وصف
ممتع للمنجنيق وطرق استعماله . انظر كذلك : (الجوالقى : العرب ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧)
و (نهارى ثابت : الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٩٠ — ١٩٣) و (المقرئى : اتعاظ
الحفا ، نشر الشياخ ، ص ١١٩ ، هامش ٣) .

(٣) جاء في (اللسان) أن « الدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجاك ويقربونها
من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، سميت بذلك لأنها تدفع فتدب ،
وقد قرئ (مرضى بن على) بينها وبين الأبراج والستائر ، ووصفها جميعاً وطرق صنعها في كتابه =

الغرب إلى دمياط ، فسر قوا حصن عكار من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يقال له خطلخ (١) الجدار ، وكان وصول الفرنج إلى دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسة .

وكان سبق إلى دمياط الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي السلطان ، وكذا شهاب الدين خاله ، فدخلا دمياط ، وتابع إليهما صلاح الدين الأمداد والنجد في البحر ، وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر ، واتصل على دمياط حصار الفرنج وضايقوها ، وتابع صلاح الدين رسله إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصار الفرنج أمامه والمصريون خلفه ، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسلها ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فسارت إليه يتلو بعضها بعضها .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج ، [١١٢] قتها وأغار عليها واستباحها ، لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويستغلوا عن دمياط ، وذكر أنه بلغ من اهتمام نور الدين بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ

= السالف الذكر . انظر : (C. Cahen: Op. Cit. P.18-19) كذلك وصفها (الحسن عبدالله : آثار الأول ، ص ١٩٢) بقوله : « هي آلة سائرة تتخذ من الحشب النخين المتلرز ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستديرة ، وتحرك فتتجر ، وربما جعلت برجا من الحشب ، ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر » وقد وصف (المعاد الأصفهاى : الفتح القسى) بأحدى دبابات الفرنج بأنها « كانت دبابة عظيمة هائلة ولها أربع طباق ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس » . انظر المراجع المذكورة في الحاشية السابقة ؛ (المقريزى في السلوك ، ج ١ ، ص ٩٦ ، حاشية ٨) و (Dozy: Supp. Diet. Arab.) هذا وقد كتب قارىء في هامش الأصل معنى هذا اللفظ باللاتينية وهو (muftculos machinas bellicas) .

(١) في الأصل : « خطلخ » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (الروستين ، ج ١ ص ١٨٠) وهو يسميه هناك « العامدار » لا « الجدار » .

بين يديه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاءه في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم ليتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : « إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنجة » .

وذكر أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحل الفرنج عن دمياط في منامه النبي — صلى الله عليه وسلم — وقال له : « أعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة » ، قال : فقلت : « يارسول الله لا يصدقني ، فاذكري علامة يعرفها » ، [قال] : فقل له « بعلامة ما سجدت على تل حارم ، وقلت : يارب انصر دينك (١) ، ولا تنصر محموداً ؛ مَنْ محمود الكلب حتى ينصر ؟ ! » قال : « فانتبهت ، ونزلت إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح » ، قال : « فتعرضت له ، فسألني عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة كلها ، إلا أنني لم أذكر لفظ الكلب » ؛ فقال نور الدين : « اذكر العلامة كلها » وألح عليّ ، فقلت لها ، فبكي ، وصدّق الرؤيا . وأرخت تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة » .

ولما رأى الافرنج تتابع الأمداد إلى دمياط من القاهرة والشام ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ومنهبها وإخراؤها (٢) رجعوا خائبين ؛ وكان مدة مقامهم

(١) في الأصل : « دينك » وهو خطأ واضح ، لم يكن تصحيحه يحتاج إلى الإشارة إليه في الهامش ، لولا أن القارئ الفرنجي الذي اعتاد أن يسجل بعض شروحه باللاتينية على هوامش المخطوطة لم يفتن للقراءة الصحيحة لفظ ، وفهمه على أنه « دين » ، وشرحه باللاتينية هكذا : (Caula gregis, maudre) ؛ وفي (اللسان) : الدين حظيرة من قصب تعمل للغنم ، فإن كانت من خشب فهي زُرب . فتأمل ! !

(٢) في الأصل : « وخرها » والتصحيح عن الروضتين .

على دمياط خمسين يوما ، وكان رحيلهم لتسع بقين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسة .

وأنفق صلاح الدين في هذه النوبة أموالا عظيمة ، وذُكر عنه أنه قال : « ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » ، وسُيِّرت الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الفرنج ، فكتب نور الدين إلى العاضد صاحب مصر يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان قد ورد عليه كتاب [١١٣] من العاضد يستقيل فيه من الأتراك خوفا منهم ، ويطلب الاقتصار على صلاح الدين وخواصه وأزواجه ، فكتب إليه (١) نور الدين يمدح (١) الأتراك ، ويملأه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلهم بأن قنطاريات (٢) الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية ، ولعل الله سبحانه وتعالى يُيسر بهم فتح بيت المقدس .

ومما مَدَح به الملك الناصر صلاح الدين بعد رحيل الفرنج ما كتب إليه به عماد الدين الكاتب — رحمه الله — من قصيدة (٣) مخلصها :

كَأَنَّ قَلْبِي وَحُبَّ مَالِكُهُ مِصْرٌ وَفِيهَا الْمَلِكُ يُوسُفُهَا

(١) في الأصل : « إلى » و « مدح » ، والتصحيح عن : (الروضتين ج ١ ، ص ١٨١) .
(٢) القنطارية نوع من الرمح ، وهي لفظ من أصل يوناني (κοντάριον = Kontarion) وسميت هكذا لأنها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية . وقد وصفها (مرضى بن علي) وصفا دقيقا في كتابه السالف الذكر ، قال : « وبنو الأصفر ومن جانبهم من الروم يمتدون رمحا من الخشب الزان والشوح وما شاكله ويسمونهم القنطاريات ، وليست بالطويلة ، ويطعنون بها ، ومن فرسانهم من تقرئس بها ، وهو أن يجعل طرفها في قريوس سرجه ويطعن ، وأستنها قصار عراض كهنة البلطية وما جرى مجراها » . أنظر : (C. Cahen : Un Traité : D'Armurerie Composé pour Saladin P.P 11, 155) : (Dozy. Supp. Dict. Arab)

(٣) وردت هذه الأبيات في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢) ، أما القصيدة كاملة فوجودة في : (العباد الأصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٩ — ١١) وقد استعنا بهذين المرجعين لتصحيح الأبيات وضبطها وشرحها .

هذا بسلبِ الفؤاد يظلمني ، وهو بقتل الأعداء يُنصفُها
 الملكُ الناصرُ الذي أبدًا بعزٍّ سلطانه يُشرفُها
 قام بأحوالها ، فدبرها حسنا ، وأثقالها يُخففها
 ببدله والصَّلاحِ يَمُرُّها ، وبالندى والجميلِ يكنفها
 من دَنَسِ الغادرين يَرَحِّضُها ، ومن خُبَاثِ العدى يَنْظِفُها
 وإنَّهُ في السَّلاحِ حاتمها ، وإنَّهُ في الوقارِ أحنفها
 يوسفُ مصرَ التي (١) ملاحمها جاءتْ بأوصافِهِ تُعرِّفُها
 كُتِبَ التواريخ لا يُزَيِّنُها — إلا بأوصافِهِ — مُصنِّفُها
 وحُطَّتْ (٢) دمياط إذ أحاط بها من برجوم (٣) البلاء يَقْدِفُها
 لاقتْ غواةَ الفرنج خيبتها فزادَ — من حَسرةٍ — تأسفُها
 أوردتْ قُلبَ (٤) القلوبِ أُرْشِيَّةٍ من القنا للدماء تَنزِفُها (٥)
 وليَّتْها سَفَكها فَعامِلُها عامِلُها (٦) والسَّنانُ مُشْرِفُها (٧)
 يُنْضِي لك اللهُ في قتالهم عزيمةً للجِهادِ تُرهِقُها

(١) في الأصل : « الذي » .

(٢) في الأصل : « وحط » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) في الأصل : « من رجوم » والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) القلب جمع قلب وهو البئر ؛ والأرشيَّة الجباك ، وهي جمع رشاء .

(٥) في الأصل : « تصرفها » ، وما هنا عن المرجعين السابقين .

(٦) حامل الرمح صدره ؛ والعامل الوالى .

(٧) مشرف الشيء ما يعلوه ؛ والمشرف كذلك القائم على الأمر .

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى

والد السلطان إلى مصر

[١١٤] ثم أرسل السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب ، فجهزه نور الدين ومسير معه عسكرياً ، واجتمع معهم من التجار خلق كثير ، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة ، ثم خف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار إلى الكرك في عسكرة ، فحصره وضيّق عليه ، ونصب عليه المجانيق ليشغل الفرنج عنهم ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وحشدوا وساروا إليه ، فسار نور الدين نحوهم ، فرجعوا عنه القهقري ، وسلك نور الدين وسط بلادهم يحرق وينهب ما على طريقه من القرى ؛ إلى أن وصل إلى عَشْرًا (١) ، فخيّم بها وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا مكانهم ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة العظيمة التي وقعت في هذه السنة ، فرحل .

وهذه الزلزلة (٢) هي المعروفة بزلزلة حلب التي هدت أ كثر منازلها ، وكانت عظيمة جداً ، وكان تأثيرها في حلب وبلادها نظير تأثير الزلزلة التي كانت بحماة سنة اثنين وخمسين وخمسمائة — التي قدمنا ذكرها —

ووصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة — أعني سنة خمس وستين وخمسمائة — ، وخرج العاضد — صاحب القصر — لاستقباله ، وبالغ في احترامه والإقبال عليه .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها موضع بحوران من أعمال دة شق .

(٢) حدثت هذه الزلزلة في ثانی عشر شوال . انظر أخبارها بالتفصيل في : (ابن الاثير :

الكامل ج ٢ ، ص ١١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٤) .

واتفق لآيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيهه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف — عليهما السلام — حين قدم على ولده ، ووجده متملكا للديار المصرية ، وقال : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ (١) » . وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه ، واجتمعا به قرأ بعض المقرئين : « وَرَفَعَ أَبُوبَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ (٢) » — الآية —

ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وقوض إليه الأمر كله ، فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : « يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة » [١١٥] فحكّمه في الخزان بأسرها ، وأنزله التلوة (٣) المطلة على خليج القاهرة ، فأنشده يوما ابن أبي حصينة (٤) وغضّ من خلفاء مصر :

(١) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٩٩ ك .

(٢) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ١٠٠ ك .

(٣) الألوثة منظر من مناظر الفاطميين كانت تعرف بقصر الألوثة ، ويشرف من شرقيه على البستان الكافوري ، ومن غربيه على الخليج ؛ وصفه (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ إلى ٣٥٠) بأنه كان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، أنشأ هذه المنطرة العزيز بالله ثم هدمها الحاكم ثم جدها الظاهر ؛ ومكانها اليوم تبعا لتحقيقات محمد رمزي (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، هامش ٢) مدرسة الفرير التي بشارع الشعراوى البرانى على رأس شارع الخرنفش بقسم الجالية . أنظر أيضاً : (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٤) هو يحيى بن سالم بن أبى حصينة الأندلسي ، ترجم له (المواد الأصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ٢ ، ص ١٥٧) فقال إنه من أهل مصر ، وجده من أهل المعرة بالشام ، من نسب الشاعر المعروف ، ثم أورد له بعض شعره ، وقد ذكر ناشر الخريدة أن لهذا الشاعر ترجمة في (ابن سعيد : المغرب ، الجزء الثاني ، الورقة ١٧٣) و (ابن حجر : التجريد ، الورقة ٢٥٧) . وقد ترجم صاحب الخريدة لأبيه سالم بن مفرج بن أبى حصينة في (نفس المرجع ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أنظر أيضاً : (عمارة : النكت المصرية ، ص ٢٩٢) وفي (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥) ترجمة لشاعر آخر من نفس الأسرة ، فقد قال في وفيات سنة ٤٥٦ هـ : « توفي الحسن بن عبد الله بن أحمد أبو الفتح الحلبي الشاعر المعروف بابن أبى حصينة ، كان فاضلا شجاعا فصيحاً يخاطب بالأمير » .

يا مَالِكَ الارضِ لا أَرْضِيْ لَه طَرَفًا
قد عَجَّلَ اللهُ هَذِي الدارَ تَسْكُنُهَا ،
تَشَرَّفَتْ بِكَ عَمَّنْ كان يَسْكُنُهَا
كانوا بِهَا صَدَقًا ، والدارُ لَوَلُوَّةُ ،
منها ، وما كان فيها لم يكن طَرَفًا
وقد أَعَدَّ لَكَ الْجَنَّتِ وَالْعُرْفَا
فَالْبَسْ بِهَا الْعِزَّ ، وَلَتَلْبَسْ بِكَ الشَّرَفَا
وأنت لَوَلُوَّةُ صارت لها صَدَقًا

نرد عليه عمارة (١) بن علي اليمني الشاعر ، وكان يتعصب لخلفاء مصر ،
لاصطناعهم إياه وإحسانهم إليه ، فقال :

أُثِمَّتْ (٢) يا من هجا الساداتِ وأُخْلِفَا
جعلتهم صَدَقًا حَلُّوا بِلَوَلُوَّةِ
وإنما هي دارٌ ، حلَّ جوهرُهم
فقال : لَوَلُوَّةُ ! عَجِبًا بيهجتها ،
فهي بُسْكَنْهَا (٦) الآياتُ إذ سكنوا
والجوهرُ الفردُ نورٌ ، ليس يمرفه
لولا تجسُّمُه فيهم (٧) لكان على
فالكَلْبُ - ياكلُ - أَسْنَى منك مَكْرَمَةً ، (٨) لأنَّ فيه حِفَاطًا دائِمًا وَوَفَا
وقلتَ ما قلتَه في ثَلَبِهم سَخَفًا
والعُرفُ : ما زال سُكْنَى (٣) اللَوَلُوَّةُ الصَّدَقَا
فيها ، (٤) وشَفَّ فأسناها الذي وَصَفَا
وكونِها حَوَّتِ (٥) الأشرافَ والشَّرَفَا
فيها ، ومن قبلها قد أُسْكِنُوا الصُّحُفَا
— من البريَّةِ — إلا كلُّ من عرفا
ضعفَ البصائرُ للأبصارِ مَخْطِطًا
فالكَلْبُ - ياكلُ - أَسْنَى منك مَكْرَمَةً ، (٨) لأنَّ فيه حِفَاطًا دائِمًا وَوَفَا

(١) أشير إلى اسم الشاعر — في الأصل — بعلامة ، وكتبت أمامه في الهامش هذه الجملة اللاتينية : (Vide plura de hoc poeta infra pag. 128.) ويشير كاتب هذه الجملة من الفرنج إلى قصيدة أخرى لهارة وردت في ص ١٢٨ من المخطوطة وهي القصيدة التي رثى بها عمارة الفاطميين .
(٢) في الأصل : « ألت » والتصحيح عن : (عمارة : النكت المصرية ، ص ٢٩٢)
و (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

(٣) في الأصل : « كن » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٤) في الأصل : « بها » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٥) في الأصل : « حلت » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٦) في الأصل : « فهم يسكنها » ؛ وفي الخطط « فهم يسكنام » ؛ وما هنا صيغة « النكت » .
(٧) كذا في الأصل وفي (النكت) ؛ وفي (الخطط) : « فيه » .
(٨) كذا في الأصل وفي (الخطط) ؛ وفي (النكت) : « معروفة » .

وفي هذه السنة — أعني سنة خمس وستين وخمسةائة — سار الأمير شهاب الدين محمد بن إلياس ابن إيلغازي بن أرْثُق — وكانت له البيرة — في عسكره ، — وهم مائتا (١) فارس — إلى خدمة الملك العادل نور الدين محمود — رحمه الله — ، وهو نازل بعُشْتَرَا ، فلما وصل إلى اللبوة من أعمال بلبلك ، وكان قد ركب متصيّداً ، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام ، فوقع بعضهم على بعض ، واقتتلوا ، وصبر الفريقان ، وكثر القتل فيهم ، فانهزم الفرنج ، واستولى عليهم القتل والأسر ، فلم يسلم منهم من يُعتد به ؛ ثم سار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو وعسكره إلى لقاءه ، واستعرض الأسرى ورؤوس [١١٦] القتلى ، فرأى فيها رأس مقدّم الاسبتارية (٢) ، صاحب حصن الأكراد ، وكان معظماً عند الفرنج .

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي

صاحب الموصل

وفي ذى الحجة من هذه السنة توفي قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر — صاحب الموصل — وكان مرضه حاداً ، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود ، فلم يتم أمره ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

(١) في الاصل : « مايتي » .

(٢) هذه هي التسمية العربية لطائفة الفرسان المستباليين ، وهو تحريف ظاهر للفظ الانجليزي (Hospitallers) أو الفرنسي (Hospitalliers) ، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين ، وقد أسس هذه الطائفة (Blessed Gerard) في سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكانت الدار التي يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) موجودة قبل ذلك في بيت المقدس وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، وتشبه هذه الطائفة في كثير طائفة فرسان المعبد (Templiers) التي عرفها العرب باسم « الداوية » ، وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً في الحروب الصليبية انظر : (king: Knights Hospitallers) (pp. 1-33) و (محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ١٠٤ ، هامش ١) .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال الرعية ، محسناً إليهم ، كثير الإيثار عليهم ، محبباً عند الصغير والكبير منهم ، وكان سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر ، جم المناقب ، قليل المعائب ، وجرت واقعة عجيبة ينبغي أن نتعظ بها ، هرب الشيخ عز الدين بن الأثير عن والده ، قال : « كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم ، فلما كان قبل موته بيسير ، أتاني كتاب من الديوان ^(١) بالموصل ، يأمرني بمساحة جميع بساتين العقيمة ، وهي قرية تحاذي الجزيرة وبينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، بعضها يُسمح فيؤخذ منه عن كل جريب ^(٢) شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ، وبعضها مطلق من الجميع ، وكان لي فيها ملك » ، فكتبت أقول : « إن المصلحة أن لا يُغَيَّر على الناس شيء ، وما أقول لأجل ملكي ، فإنني أنا أُمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس لهذه الدولة » ، فجاءني كتاب النائب يقول : « لا بد من المساحة » ، قال : فأظهرت الأمر ، وكان بها قوم صالحون ، لي بهم أنس ، وبيننا وبينهم مودة ، فجاءني الناس كلهم ، وأولئك معهم ؛ يطلبون المراجعة ، فأعلمتهم أنني راجعت ، وما أجبت إلى ذلك ؛ فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما ، وطلبا مني معاودة المخاطبة ثانية ؛ ففعلت ،

(١) كان لفظ « الديوان » يطلق أحياناً في ذلك العصر على موظف أو موظفي الديوان كما يتضح من النص هنا .

(٢) الجريب هنا مقياس للأرض ، ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات ، على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان ؛ والجريب في الأصل مكبال ، وسعته ما يكفي من الحب لبذر مساحة معينة ، ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . انظر : (الماردي : الأحكام السلطانية) و (المقرئ ، إغاثة الأئمة ، ص ٥١ و ٦٣) و (Enc. Isl. Art: Djarib) وما بها من مراجع .

فأصروا على المساحة ، فعرقتهما الحال ، قال : « فمضى إلا عدة أيام وإذا قد جاءني الرجلان ، فلما رأيتهما ظننت أنهما يطلبان المعاودة ، فعجبت منهما ، وأخذت أعتذر إليهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا ، وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قد قضيت » ؛ قال : « فظننت أنهما قد أرسلنا إلى المحصل من يشفع لهما » ؛ قلت : « من الذي خاطب في هذا [١١٧] بالموصل ؟ » فقالا : « إن حاجتنا قد قضيت من السماء ، ولكافة أهل العقيمة » ، فظننت أن هذا مما حدثنا به نفوسهما ، ثم قاما عني ، فلم يمض غير عشرة أيام ، وإذا قد جاء كتاب من الموصل ، يأمرون فيه بإطلاق الحبسين والمساحة والمكوس ، ويأمرون بالصدقة . ويقال إن قطب الدين — يعني السلطان — مريض على حال شديدة ، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته ، فعجبت من قولها ، واعتقدته كرامة لهما ، قال : فصار والدي بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما ويزورها .

ذكر استيلاء سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

على الموصل

كان النائب بالموصل والقيّم بأموار الدولة بعد زين الدين على كوكجك فخر الدين عبد المسيح ، وكان خادما لقطب الدين ، وكان يكره عماد الدين لأنه ^(١) كان طوع عمه ^(١) نور الدين ، لكثرة مقامه عنده ، ولأنه كان زوج ابنته ؛ وكان نور الدين يُبغض فخر الدين عبد المسيح ؛ واتفق فخر الدين والخاتون ^(٢) ابنة حسام الدين تَمْرُتاش [بن] إيلغازي — والدة سيف الدين — على صرف الملك عن عماد الدين

(١) الضمير هنا يمود على قطب الدين .

(٢) هي صفية خاتون وكانت زوجة لقطب الدين مودود ، انظر عنها وعن أبيها :

(Zambaur Op. Cit. PP. 33, 186. 227).

إليه ، فأجلس في الملك سيف الدين بن غازي بن قطب الدين مودود ، ورحل عماد الدين زنكي بن مودود إلى عمه نور الدين مستنصراً به ، وكان عمر قطب الدين لما توفي قريباً من أربعين سنة ، ومدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً .

وفي هذه السنة توفي الأمير محمد الدين بن الداية ، وهو رضيع نور الدين ، وكان أعظم الأمراء منزلة عنده ، وكان له من الإقطاع حارم ، وقلعة جعبر ، فردّ ما كان إليه إلى أخيه شمس الدين بن الداية .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله —

على الموصل ، وإقرار ابن أخيه سيف الدين عليها

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — وفاة أخيه قطب الدين بالموصل ، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور أنف من ذلك وعظم عليه ، وكان شديد البغض لعبد المسيح — كما ذكرنا — فقصده الرقة ، في سنة ست وستين وخمسة ، فتسلمها على عوض أعطاه النائب بها .

وهي عماد الدين الطائب — رحمه الله — قال : « استدعاني نور الدين — ونحن بظاهر الرقة — ، وقال لي : قد أنست بك ، وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، لكن المهم [١١٨] الذي عرّض لا يبلغ الغرض فيه غيرك ، فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة ، وتنتهي إليه أني قصدت بيتي وبيت والدي ، فأنا كبيره ووارثه ، وتأخذ لي منه إذناً في ذلك ، وأنا ممثّل لما يرد عليّ منه ؛ وأمر الأمير فاصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال من عنده ،

وسرت منها إلى البرية غربى الفرات بخفير من بنى خفاجة ، فوصلت ، وقضيت الحاجة ، ورجعت من عند الخليفة المستنجد بالله — وهو يحاصر سنجان — .

ولما ملك نور الدين الرقة سار إلى الخابور فملكه جميعه ، ثم ملك نصيبين ، وأقام بها بجميع العساكر ، فأتاه نور الدين محمود بن قرا أرسلان الأرتقى — صاحب الحصن — ، واجتمعت عليه العساكر ، ثم سار إلى سنجان فحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ، وأشاروا بترك سنجان ، فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجان وسلمها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود ، ثم سار إلى الموصل فأتى إلى بلد ، وعبر دجلة من مخاضة عندها إلى الجانب الشرقى ، ثم سار حتى وصل شرق الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل ، وبوصله — أعنى وصول نور الدين — سقط من سور الموصل بدنة كبيرة .

وكان فخر الدين عبد المسيح قد سيّره عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود إلى أتابك إيلدكز — صاحب بلاد الجبل وأذربيجان — ، وأراد يستنجدوه ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن قصد الموصل ، ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ، ولا سبيل لك عليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ، وكان بسنجان ، فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : « قل لصاحبك أنا أرفق بيني وأخى منك ، فلا تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام ، وأهمدت الثغور ، حتى غلب الكرج^(١) عليها ،

(١) الكرج أمة من المسيحيين ، كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ، ولم يزالوا متمسكين لها إلى أن أغار عليهم جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١ هـ واسترد تفليس منهم . انظر : *Allen: History of the Georgian People PP. 85-112.*

وبُلِّيتُ أنا بأشجع الناس — الفرنج — ، وأخذتُ بلادهم ، وأسرتُ ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا الحفظ لما أهملت من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم [١١٩] عن المسلمين . وعاد الرسول بهذا الجواب .

ثم إن الأمراء الذين بالموصل كاتبوا نور الدين وأعلموه عزمهم على الوثوب بعبد المسيح وتسليم البلد إليه ، ولما علم عبد المسيح بذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : « لا سبيل إلى لقاءك بالموصل ؛ بل تكون عندى بالشام ، فإنى لم آت لأخذ البلاد من أولادى . وإنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادى » ؛ واستقرت القاعدة على ذلك ؛ وتسلم نور الدين الموصل ، ودخلها لثلاث عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ست وستين وخمسمائة — ، ونزل فى القلعة ، وولى بالقلعة سعد الدين كُشْتِكِينَ ، وأبقى بالموصل سيف الدين غازى بن مودود ، واسم الملك له ، وقسم تركة قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله (١)

أبى المظفر يوسف بن المقتنى وسيرته

كنا ذكرنا وفاة المقتنى لأمر الله فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ومصير الخلافة إلى ولده المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، وأنه أقام بوزارته عون الدين

(١) أنظر ترجمته فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٤ و ٢٣٦) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٤ — ١٣٥) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٩ — ٢٨٢) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤) و (ابن دحية : النبراس ، ص ١٥٨ — ١٥٩) .

أبا (١) المظفر يحيى بن هبيرة (٢) — وزير والده — ، وكان عنده معظماً كما كان عند والده ، ثم بعد ذلك جرت مشاحنة بين الوزير عون الدين وأستاذ الدار عضد الدين محمد بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ، واشتد الأمر بينهما (٣) ، وكان عضد الدين هذا متمكناً عند الخليفة المستنجد بالله ، فبقى عون الدين مدارياً له مستوحشاً منه [وطلب الإقالة من الخليفة فأقاله ، ولزم بيته (٤)] ، إلى أن توفي الوزير عون الدين ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة .

وكان من أعيان الوزراء ، وكان إقطاعه في ديوان الخلافة (٥) في كل سنة ما يقارب مائة ألف دينار ، ومات وعليه ديون جمة ، ولم يدخر مائلاً ولا ديناراً ولا درهماً ، وكان اتباع داراً من (٦) صدقة بباب العامة ، فقيل له : باسم من تكتبه ؟ فقال : باسم الوكلاء — أجاهم الله تعالى — يعني وكلاء الخليفة ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إن كنت في الوزارة فهذه الدار لي وغيرها ، وإذا عزلت عنها فأرجو أن أمكن من الإقامة ببعض المساجد » .

وكانت مدة وزارته للخليفين المقتفي والمستنجد ، ست (٧) عشرة سنة (٨) .

(١) في الأصل : « أبو » .

(٢) أنظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٤ — ٢١٧)

و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ — ٢٨٧) .

(٣) بهذا اللفظ تبدأ ص (١٣٠) من نسخة س . وبذلك نعود للمقارنة بين نصي النسختين : (ك ، س) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ١٣٠) .

(٥) في س : « الخليفة » .

(٦) في س : « دارين صدقة » .

(٧) في س (١٣٠) : « سبع » .

(٨) يوجد في س (ص ١٣٠) بعد هذا اللفظ الجملة الآتية : « وقد ذكرناه في تاريخ

القاضي شهاب الدين على غير هذه الصورة » .

ثم توفي الخليفة المستنجد [١٢٠] بالله يوم الجمعة سابع ربيع الآخر من هذه السنة — أعني سنة ست وستين وخمسمائة — فكانت خلافته إحدى عشرة سنة ، وشهراً ، وأحد عشر يوماً ، وكان يقظاً ^(١) شهماً عادلاً حسن السيرة ، وله شعر حسن ، ذكرنا بعضه ، ومما أنشده وزيره عون الدين بن هبيرة له [من قصيدة يقول ^(٢)] :

كُنْ عدوّاً مبرزاً صفحتَه أو فسالني إذا لم تَكُ قِرْني
في اشتباه الناس ود بينهم ومناوأة إليها سوء ضغن
كم عدوٍ زلّ ^(٣) من ظهر أبي وصديق أمّه ما ولدتنى

ذكر البيعة بالخلافة للمستضيء بنور الله

ابن المستنجد بالله

ولما توفي المستنجد بالله ببيع بالخلافة ولده الإمام المستضيء بنور الله أبو محمد الحسن بن المستنجد [بالله ^(٤)] بن المقتفي [لأمر الله ^(٤)] بن المستظهر في عصر اليوم الذي توفي فيه أبوه — وهو يوم الجمعة سابع ربيع الآخر — البيعة الخاصة ، وعمره إذ ذاك تسع ^(٥) وعشرون سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام ، لأن مولده في ثالث عشر شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ؛ وببيع يوم السبت غد هذا اليوم البيعة العامة ،

(١) مكان هذا اللفظ في س : « شجاعا » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) س (س ١٣٠) : « نازل » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

(٥) في س (س ٣٠ ب) : « سبع » ، وما هنا هو الصحيح ، فقد ولد المستضيء

سنة ٥٣٦ هـ ، أنظر : المتن هنا و (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

وأخذ له البيعة على الناس وزيره (١) عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وأقطعه (٢) المستضىء ما كان يجرى في إقطاع ابن هبيرة ، وأقطع قايمار — مملوك والده (٢) — الخلة وأعمالها ، (٢) وأقطع تماش وأخاه أردن — نسيب قايمار (٣) — واسطا وقوشان ؛ وطوق (٤) قايمار ولقبه ملك العرب ، وسوره (٤) ؛ ولم يكتف لهم بذلك حتى حمل إليهم من الأموال ما زاد على أمانهم وأمالهم (٢) .

وبعث إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي خلعة — وكان بظاهر الموصل — فلبسها ، ثم بعد دخوله الموصل خلعها على ابن أخيه سيف الدين .

وأطلق نور الدين المكوس بالموصل كلها ، وكذلك فعل في سائر ما فتحه من البلاد ؛ وأمر بإنشاء الجامع النورى بالموصل ؛ وأقطع جزيرة ابن عمر لابن أخيه سيف الدين غازى ، وكان مدة مقام نور الدين بالموصل سبعة عشر يوما ، ثم رحل إلى الشام ، وفي صحبته فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه نور الدين ، وسماه عبد الله .

ووصل [١٢١] [نور الدين] إلى حلب في شعبان ، وزوج سيف الدين غازى ابنته ، وفوض القضاء بسنجار ونصيبين والخابور إلى الشيخ شرف الدين عبد الله ابن أبي عصرون ، فولى بها نوابه ؛ ثم رحل نور الدين إلى دمشق وصام بها شهر رمضان من هذه السنة ؛ ثم خرج بعد العيد إلى الحميم ثم سار إلى عسثرا .

(١) فى الأصل : « وأخذ له البيعة على الناس كما كان وزيره ووزير أبيه بعده ابن هبيرة عضد الدين إلخ » ، وفى س (ص ٣٠ ب) : « وأخذ له البيعة على الناس ووزيره ووزير أبيه عضد الدين إلخ » وهو نص مضطرب المعنى فى كليهما ، وقد حذفنا بعض الألفاظ ليستقيم المعنى ، أنظر ترجمة هذا الوزير فى : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢) ، واصله بالكامل : « عضد الدين أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء » .

(٢) ما بين الرقن غير موجود فى س .

(٣) أنظر أخبار قايمار وأقاربه فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥) .

(٤) أى ألبسه الطوق والسوار .

وقد ذكر عمار الدين [الطائِب] في البرق أن السرية (١) التي خرجت (٢) لصاحب البيرة باللوبة كانت في هذه السنة بعد نزول نور الدين عَشْرًا ، وروى ابن الأثير أنها كانت في السنة الماضية ، وكان هذا هو الأقرب . والله أعلم بالصواب .

ذكر الأحداث الكائنة بمصر في هذه السنة

— أعني سنة ست وستين وخمسمائة —

وفي هذه السنة حرر (٣) صلاح الدين داراً كانت للمعونة (٤) بمصر مدرسة للشافعية ، ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة ، لأن الدولة كانت إسماعيلية ،

- (١) في س (ص ٣٠ ب) : « السيرة » ، وما هنا هو الصحيح .
(٢) في الأصل : « جرت » ، وما هنا عن س ، أنظر أخبار هذه السرية بالتفصيل في : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٣٢) .
(٣) في س (٣٠ ب) : « خرب صلاح الدين داراً كانت للمعونة وبنّاها مدرسة للشافعية » .

(٤) أشار المقرئ في عند كلامه عن السجون إلى حبسين كان كل منهما يسمى « حبس المعونة » أو « دار المعونة » ، الأول كان بالقسطاط : (الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٠٤) ، والثاني كان بالقاهرة : (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٢) ، والأول هو المقصود هنا ، وقد سميت هذه الدار بالمعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولاتهم ، ثم عرفت بدار الفلفل ، وكان مكانها قبلي جامع عمرو بن العاص بالقسطاط ، ثم جعلت داراً للشرطة واستمرت كذلك إلى أن حولها يانس العزيز — صاحب الشرطة في عهد العزيز — إلى حبس عرف بالمعونة وذلك في سنة ٣٨١ هـ . ثم حوله صلاح الدين أول توليته على مصر إلى مدرسة للشافعية ، وقد عرفت هذه المدرسة أول إنشائها « بالمدرسة الناصرية » نسبة إلى الناصر صلاح الدين ، ثم عرفت باسم « مدرسة ابن زين التجار » وهو أول فقيه تولى التدريس بها ، ثم عرفت بعد ذلك « بالمدرسة الشريفة » نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الأرموي قاضي العسكر ، أحد من تولوا التدريس بها . انظر أخبار هذه المدرسة بالتفصيل في : (المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣) و (ابن دقان : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٣) ، وقال محمد رمزي في تحقيقاته في (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ، هامش ١) ان هذه المدرسة زالت ، ومحلها اليوم أرض فضاء في الجنوب الشرق من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة مشغولة بأقنان الجير والقواخير .

ولم يكن لهم ميل إلى شيء من هذه المذاهب ؛ ثم بنى — رحمه الله — دار الغزل (١) مدرسة للمالكية .

وفوّض القضاء بالديار المصرية إلى قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني (٢) الشافعى ، فجعل صدر الدين القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، فاشتهر مذهب الشافعية (٣) وافتدرس مذهب الإسماعيلية بالكلية ، وانمحي أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به .

خروج الملك الناصر صلاح الدين إلى الغزاة

ثم خرج صلاح الدين إلى جهاد الفرنج ، وأغار على الرملة وعسقلان ، وهجم رَبعُ غزة ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها (٣) وخاف عليهم من الفرنج ، فخرج فى النصف من ربيع الأول ، [فالتقى بالقافلة ، وخفرهم إلى مصر بما معهم سالمين ، ثم رد على عقبه (٤)] .

(١) ذكر (المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٤) أن موضع هذه المدرسة يعرف بدار الغزل لأنه كان قيسارية يباع فيها الغزل ، ثم هدمها صلاح الدين وبنى مكانها مدرسة للفقهاء المالكية وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة أهمها ضيعة بالقيوم ، كان يجمع منها قح كثير يوزع على فقهاء المدرسة ، ولهذا عرفت بعد ذلك « بالمدرسة القمحية » . انظر عنها أيضا : (ابن دقاق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٥) . وقال محمد رمزى فى تحقيقاته (المرجع السابق) إن هذه المدرسة زالت ، ومكانها اليوم أرض فضاء فى الجهة الشرقية من جامع عمرو بن العاص بعصر القديمة بجوار أقنان الجير والفواخير .

(٢) هذه النسبة تدل على أن هذا القاضى كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التى ينتمى إليها ، وتحويل القضاء فى مصر إلى المذهب الشافعى وتعيين قاضى قضاة كردى — والخليفة الفاطمى — لازال حيا — إجراء له دلالة السياسية الواضحة .

(٣) فى س : « عليهم » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٣١) .

ذكر فتح قلعة أيلة

وكانت بأيلة^(١) قلعة في البحر قد حصنها الكفار من الفرنج ، فعمّر لها مراكب ، وحملها إلى ساحل أيلة على الجمال ، وركبها الصنائع هناك ، وشحنها بالمقاتلة ، وزحف إلى القلعة ، ففتحت في العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها قتلاً وأسراً ، وملأها^(٢) بالعَدَد والعُدَد واجتمع^(٣) بأهله عليها ، ثم سار بهم إلى القاهرة^(٤) فدخلها في السادس والعشرين من جمادى الأولى .

ثم سار في [١٢٢] الثالث والعشرين من شعبان إلى الإسكندرية^(٥) ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها .

وفي النصف من شعبان في هذه السنة اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه^(٥) بن أيوب بن أخي صلاح الدين منازل العز^(٦) وجعلها مدرسة للشافعية ، ووقف عليها وقفاً جليلاً .

(١) في س (١٣١) : « أيلة » .

(٢) في س : « وملأها من العدد والسلاح » .

(٣) مقابل هذا النص في س : « ثم رجع إلى القاهرة » .

(٤) عن الاسكندرية في عصر صلاح الدين انظر : (جمال الدين الشيبان : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٢١ — ٢٢٦) .

(٥) في الأصل : « شاهان شاه » .

(٦) ذكر (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٦) أن منازل العز بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله ، ولم يكن بمصر أحسن منها ، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها شيء عن نظره ، وما زال الخلفاء من بعد المعز يتداولونها وكانت معدة لنزهتهم . ثم قال عند كلامه عن « مدرسة منازل العز » في : (الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٤ — ١٩٥) أن تقي الدين عمر سكن منازل العز مدة ثم اشتراها من بيت المال في شعبان سنة ٥٦٦ ، وبناها مدرسة للشافعية . وقال محمد رضى في تحقيقاته : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ، هامش ١) إن مكانها اليوم بمجموعة المباني التي تحده من الغرب بشارع مصر القديمة ، ومن الجنوب مدخل شارع المرحومى ، وحارة الشراقة وعطقة زاهر ، ومن الشرق جنيانة الجمعوى وعطقة الأسرلى ، ومن الشمال شارع القبوة ، وأما المدرسة نفسها فتعرف اليوم باسم جامع شهاب الدين أحمد المرحومى الذى يتوسط هذه المنطقة بشارع المرحومى بمصر القديمة .

ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر

وانقراض الدولة العلوية بها

كان الملك العادل نور الدين — رحمه الله — لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بنى العباس ، فاعتذر ^(١) صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلوية ^(٢) ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه ؛ ثم اتفق مرض العاضد ، فاستشار صلاح الدين الأمراء في قطع الخطبة له ، وكيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف من الإقدام على ذلك ؛ إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال [أمر ^(٣)] نور الدين ؛ وكان قد رحل إلى ديار مصر رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم ^(٤) ، فلما رأى ما بهم من الإحجام ، قال : « أنا أبتدى بها » .

- (١) الصيغة في س (٣١ ب) تختلف قليلاً عنها هنا ، ونصها هناك : « فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر عليه ، وامتناعهم من ذلك لميلهم إلى العلويين » .
- (٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .
- (٣) ذكر (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٨) أن هذا الرجل هو أول من خطب للمستضيء وذكر أنه رآه بنفسه بعد ذلك في الموصل . أنظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) ولكن (ابن الديني : تاريخه باختصار الذهبي ، ونشر الدكتور مصطفى جواد ، ج ١ ، ص ١٤٢) ذكر أن أول من خطب للعباسيين رجل آخر اسمه « محمد بن المحسن بن الحسين ابن أبي المضاء البعلبيكي أبو عبد الله » المتوفى سنة ٥٧٢ هـ . فقد قال في ترجمته له : « وحاد إلى مصر ، واتصل بصلاح الدين سلطان مصر ، وهو الذي خطب للإمام المستضيء بمصر ، ونفذه صلاح الدين رسولاً إلى بغداد ، ثم رجع إلى دمشق فأت بها » . أنظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥) حيث أورد نص رسالة بقلم القاضي الفاضل ، رسالة من صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء ، ينبئ فيها بأقامة الخطبة له بمصر وأن من قام بالخطبة هو حامل الرسالة الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء . انظر أيضاً : (اللجوج الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣) و (المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠) .

فلما كان يوم الجمعة (١) من المحرم سنة سبع وستين وخمسة صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة الإمام المستضى بنور الله ، فلم ينكر [ذلك (٢)] أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة للمستضى بنور الله ، ففعلوا ذلك ، فلم يتحرك مخالف لذلك ولا منكر له ، وانتظم الأمر ، وكتب الخطباء في ذلك في سائر الإقليم فخطبوا ؛ وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : « إن سلم فهو يعلم ، فلا ينبغي أن ننص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله (٣) » .

ذكر وفاة العاضد

ثم توفي العاضد [١٢٣] في يوم عاشوراء من السنة ، وهو آخر خلفاء مصر ، وانقضت مدتهم ، ولكل شيء آخر ، فسبحان المتفرد بالأزلية والأبدية .

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يرض إليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخافه عنه .

(١) في س (٣١ ب) : « أول جمعة » . وكذلك في الروضتين .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٣) اختلفت الآراء في أسباب موت العاضد ، وهل مات قبل أن تقطع الخطبة باسمه أم بعد ذلك وقد أورد (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٦) — نقلا عن ابن أبي طي — موجزا لهذه الآراء ، قال : « . . . وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة ، قال : لمن خطب ؟ قيل له : لم يخطب لأحد مسمى ، قال : في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه افكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات . وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فمثر وسقط ، فأقام متعللا خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتص فص خاتمه وكان تحتته سم فأت . ولما اتصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة ، فحكى أن القاضي الفاضل قال للسلطان : لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يموت ، أشار إلى أن العاضد قتل نفسه . . . » .

وأما مؤلف كتاب الروضتين (١) فإنه حكى في كتابه أنه اجتمع بالأمير أبي الفتوح ابن العاضد وهو محبوس مقيّد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فأخبره أبو الفتوح أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر ، قال : « وأحضرنا — يعني أولاده — ونحن صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا » ، ولما توفى العاضد جلس الملك الناصر للعزاء وأظهر البكاء والحزن عليه . ومشى في جنازته إلى قبره ، ثم تسلّم القصر بما فيه من الخزائن [والذخائر (٢)] ، والدفاتر والدواوين .

وكان لما جرى لمؤتمن الخلافة ما جرى وقتل ، وكلّ صلاح الدين بالقصر الأمير بهاء الدين قراقوش (٣) الأسدي ، وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة فترتب في القصر فما كان يدخل إلى القصر شيء ولا يخرج منه شيء إلا يمرأى منه ومسمع ، فضاق خناق (٤) أهل القصر بسببه ، فلما مات العاضد احتيط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر في مكان أفرد لهم (٥) ، وقرّر لهم شيئاً برسم الكسوة والنفقة .

(١) انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ص (١٣٢) .

(٣) قراقوش كلمة تركية معناها الطائر الأسود ، وإن كان ابن خلكان قد ذكر أن معناها « المقاب » ، أنظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥) و (ابن أبي الوفاء : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) ، (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧٦ — ١٧٨) . و (الدكتور عبد اللطيف حمزة : كتاب حكم قراقوش) و (المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢ — ٤) .

(٤) كتب كاتب أمام هذا اللفظ بالهامش من الأصل معناه باللاتينية هكذا « خناق

• « funis

(٥) روى صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٤) عن الأمير أبي الفتوح ابن العاضد أن قراقوش « جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة ، وهي دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيباً ، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها » .

وما يحتاجون إليه ، وجمع الباقين من عمومهم وعِترتهم^(١) في القصر في إيوان ، واحترز عليهم في ذلك المكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا ، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدد والآلات والذخائر النفيسة ، فأطلق من ثبتت حريته ، ووهب الباقي من الرقيق ، وأخلى الدور ، وأغلق القصور ، وأخذ ما صلح له ولأهله ولأمرائه وخواص مماليكه وأصحابه من نفائس الذخائر والملابس ؛ ومن جملة ذلك : الدُرَّةُ اليتيمة ، والياقوتة الغالية القيمة ، والمصنوعات العنبرية ، والأواني الفضية ، والصواني الصينية ، والمنسوجات المغربية^(٢) ، [١٢٤] والممزوجات^(٣) الذهبية ، وغير ذلك مما لا يقع عليه الاحصاء ؛ وأسرف في العطاء والبذل ، وأطلق البيع بعد ذلك فيما دون ذلك ، واستمر البيع مدة عشر سنين .

وكانت خزانة الكتب^(٤) لهم تزيد على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة ، وفيها النفائس من الكتب التي لا يكاد يوجد مثلها ، ومنها ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التي لا توجد في خزانة أحد من الملوك ، فحُمِلَ من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وترك الباقي فبيع بعضه ، وأطلق البعض لمن يختص به .

وتعلَّك صلاح الدين الأملاك التي لهم ، وضربت الألواح على رباعهم ودورهم ،

(١) كتب أمام هذا اللفظ بهامش الأصل معناه باللاتينية هكذا : « عِترتهم » .
progenies familia

(٢) في س (٣٢ ب) : « المغربية » .

(٣) في الأصل : « المهورجات » وما هنا عن : « الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤ » .
والممزج نوع من القماش الثمين المنسوج بالذهب . هكذا عرفه (Dozy : Supp. Dict. Arab.)
بأنه : « nom d'une étoffe precieuse, brocarat d'or » .

(٤) لاستيفاء الكلام عن هذه المكتبة وقيمتها انظر : (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥) و (ابوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) و (الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص ١٤٠ — ١٤١) .

ثم ملك بعضها خاصته وأمرأوه ، وبعضها أذن يبيعه ، وتفت آثارهم بالكلمية ،
إن في ذلك لموعظة وذكرى لأولى الألباب ، [كما قال بعضهم ^(١)] :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوِّ في ثيابِ صديقٍ

وكان جميع من ولى الخلافة منهم بمصر أحد عشر خليفة ^(٢) ، وولى منهم بالمغرب
ثلاثة ، فكانت عدتهم أربعة عشر خليفة ^(٢) ، عدة خلفاء بني أمية بالشرق .

وقد تكلم الناس في أنسابهم فأكثرُوا وأطالوا ، فمن مصحح ومبطل ،
والله أعلم بغيبه ؛ وقد ذكرت ما قيل في ذلك في التاريخ الكبير ^(٣) ، إلا أن الذى
اعتقده وحققته من تواريخ كثيرة أن القوم أذعياء لاحظ لهم في النسب الهاشمي ،
فمن المؤرخين من قال إن جدهم يهودى ^(٤) ، ومنهم من قال إنه من الفرس ؛ والنسابون

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٣٢ ب) .

(٢) في الأصل : « رجلا » ، وما هنا عن س .

(٣) المعروف أن ابن واصل ألف في التاريخ كتابين اثنين : أحدهما مفرج الكروب هذا ،
والثاني ألفه للعالم الصالح نجم الدين أيوب ، وهما « التاريخ الصالحى » لأنه كان ينوى تقديمه
إليه ، والمرجح أن هذه الإشارة إلى التاريخ الكبير يقصد بها التاريخ الصالحى . وهو تاريخ
عام مختصر أرخ فيه ابن واصل للعالم الإسلامى منذ عهد الرسول إلى سنة ٦٣٧ هـ . وهى السنة
التي تولى فيها الصالح عرش مصر . انظر : (الدكتور جاك الدين الشياك : جاك الدين بن واصل
وكتابه مفرج الكروب) . وهو بحث لم ينشر بعد . و (C. Cahen : La Syrie du nord

à l'Époque de Croisades. p. 70—71)

(٤) تردد القول بانتساب الفاطميين إلى أصل يهودى في كثير من المصادر التاريخية القديمة
وناقش هذا القول كثيرون من المؤرخين المحدثين ، أنظر مثلا : (ابن مالك الحمادى البنى :
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، ص ١٧ — ٢٠) و (الجندى أخبار القرامطة —
ضمن تاريخ اليمن لمهارة — ص ١٤٠) و (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ،
ص ٧٥) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣) و (المقرئى : اتماظ الحنفا ، نشر جاك الدين
الشياك ، ص ٥٥ — ٥٦) و (O'Leary : The Fatimid Caliphate. p. 33—34)
و (B. Lewis : The Origins of Ismailism. p. 68.)

من الفاطميين قد أطنبوا في ذلك وذ كروه في كتبهم ، وكتب الشريف المرتضى (١) الموسوى نقيب العلويين وأخوه الرضى (٢) خطهما بالقدح في نسبهم ، وأنهم ليسوا من ولد على بن أبي طالب — رضوان الله عليهم — ، وشهد بذلك أيضاً جماعة من أكابر العلويين (٣) ، ومما يشهد بذلك أن القوم كانوا لا يوصلون نسبهم ، بل ينسبون أنفسهم إلى عبيد الله المهدي ، ثم يقولون : « ابن الأئمة المستورين » ؛ ولو كان نسبهم صحيحاً لصرحوا كما صرح بنو العباس بنسبهم ، وأى حاجة بهم إلى التعممة ؛ وغاية ما يقولون إن الثلاثة المستورين كانوا يسترون أنفسهم خوفاً من بنى العباس ، فهم لما ملكوا وقهروا وزال عنهم الخوف كان ينبغي [١٢٥] أن يصرحوا بأسماء أولئك ولا يكتفونهم ، إذ قد زالت العلة المقتضية للكتم ، ولقد حُكي أن رجلاً رمى ورقة إلى بعض خلائفهم (٤) وهرب فلم يعرف ، وكان في الورقة :

(١) أبو القاسم على الشريف المرتضى ، ولد سنة ٣٥٥ وتوفي سنة ٤٣٦ ، تولى نقابة الطالبين نيابة عن أبيه — مدة حياته — ثم وليها وحده سنة ٤٠٦ بعد وفاة أخيه الشريف الرضى ، كان شاعراً مجيداً كأخيه ، وله ديوان ومؤلفات في المذهب الشيعي ، انظر : (ابن خلكان ؛ الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣ — ٦) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥٣) وانظر بيان مؤلفاته المطبوعة في : (معجم سر كيس) .

(٢) أبو الحسن محمد الشريف الرضى ، ولد سنة ٣٥٩ وتوفي سنة ٤٠٦ ببغداد . كان شاعراً ممتازاً ، وطبع ديوانه مرتين . انظر ترجمته بالتفصيل في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٤٤ — ٤٨) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣ — ٤) و (المقرئى : اتماظ الحنفا ، ص ٣٨ ، هامش ١) .

(٣) انظر أسماء الذين وقعوا على هذا المحضر العباسي بالقدح في نسب الفاطميين في : (المقرئى : اتماظ الحنفا ، نشر الشيبان ، ص ٤٥ — ٤٦) .

(٤) حدث هذا في عهد الخليفة العزيز بالله ، أول ولاية على مصر . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٦) .

[إِنَّا سَمِعْنَا نَسْبًا مُنْكَرًا يُتْلَى عَلَى الْمُنْبَرِ فِي الْجَامِعِ] (١)

إِنْ كُنْتَ فِيمَا تَدْعَى صَادِقًا فَاكْشِفْ لَنَا عَنْ جَدِّكَ السَّابِعِ (٢)

[وَأِنْ تُرَدِّدْ تَحْقِيقَ مَا قُلْتَهُ فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ] (٣)

أَوْ قَدَّرِ (٤) الْأَنْسَابَ مُسْتَوْرَةً وَادْخُلْ بِنَا فِي النَّسَبِ الْوَاسِعِ

فَإِنَّ أَنْسَابَ بَنِي هَاشِمٍ يَقُلُّ (٥) فِيهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

ولقد صدق كاتب هذه الورقة ، فإننا نجد الأشراف من بني هاشم والعباس (٥) يصلون أنسابهم ويصرحون بها ، وهؤلاء يكتُمونها ، فللسكرتار علة لا محالة ، وما أظن إلا أن غرضهم أنهم متى صرَّحوا بالنسب بَانَ زَيْفُهُمْ عند النقاد ، فهذا ما يتعلق بنسبهم .

و[أما (٦)] مذاهبهم ، فدعوتهم باطنية إسماعيلية ، وعندهم انتشردعاة الملاحدة الباطنية في الآفاق ، وهذه المقالة معروفة في كتب المقالات والاصول ، فلا معنى لإيداعها كتب التاريخ .

ورأى القوم في الإمامة بعد النبي — صلى الله عليه وسلم — لعلى بن أبي طالب — رضوان الله عليه — ثم للحسن بن علي ، ثم للحسين ، ثم لعلى — بن الحسين —

(١) أضفنا هذين البيتين عن : (ابن خلكان : وفیات الأعيان) و (النجوم ، نفس الجزء والصفحة) وإضافتهما ضرورية إذ بهما يتضح المعنى المقصود من الآيات مكتملة .

(٢) كذا في الأصل ، والمقصود « بالسابع » هنا : الأئمة الثلاثة المستورين والأئمة الأربعة الذين حكموا في المغرب . وصيغة المرجعين السالفين : « فاذكر أبا بعد الأب الرابع » وهذه الصيغة فيما أرى أصح لأن آباء العزيز إلى الأب الرابع وهو المهدي معروفون . وقصد الشاعر أن يسأله عن الأئمة المستورين المجهولة أسماؤهم .

(٣) في النجوم : « فدع » .

(٤) في النجوم : « يقصر عنها » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود في س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٣) ، وهو ضروري لايضاح المعنى .

زين العابدين ، ثم لابنه محمد الباقر ، — وفارقوا في ذلك الزيدية ، الذاهبين إلى إمامة زيد — ، ثم لابن محمد جعفر الصادق بن محمد ، ثم لابنه إسماعيل بن جعفر — ، وفارقوا بذلك الإمامية الاثني عشرية القائلين بإمامة موسى بن جعفر ، وغيرهم من أصناف الإمامية — ، ثم لابن إسماعيل محمد بن إسماعيل ، ثم أنهم اعتقدوا أن الإمامة صارت بعد محمد بن إسماعيل في ثلاثة يسمونهم أئمة ستر ، ولا يبوحن بأسمائهم ، ولا ينطقون بذكرهم ، والثلاثة من ولد محمد بن إسماعيل ، وقد اختلف في أسمائهم اختلافاً كثيراً ثم إنهم قالوا : صارت بعد ذلك للمهدي عبيد الله (١) الظاهر بسجلماسة (٢) من بلاد إفريقية ، وقالوا إن بينه وبين محمد بن إسماعيل ثلاثة أباءهم أئمة الستر ، لم يظهروا أمرهم خوفاً من أعدائهم بني العباس ، ثم قالوا : إن الإمامة صارت بعد ذلك لابنه القائم بأمر الله [١٢٦] أبي القسم محمد ، ثم لابن القائم المنصور بالله إسماعيل ، وتوفي المهدي وهذان بالمغرب ، ثم صارت لابن المنصور المعز لدين الله أبي تميم مَعَدَّ (٣) ، وهو أول من ملك الديار المصرية منهم ، دخلها غلامه جوهر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وشرع في بناء القاهرة وقصور الخلافة بها .

ثم قدم المعز من الغرب واستقر بقصره في القاهرة في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ثم صارت بعده لابنه العزيز بالله أبي المنصور نزار بن مَعَدَّ ، ثم لابنه الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور ، ثم لابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ، ثم لابنه المستنصر بالله أبي تميم مَعَدَّ بن الظاهر بن الحاكم ، وطالت مدة خلافته حتى بلغت ستين سنة ، ولم يل الخلافة أحد هذه المدة ، وهؤلاء كلهم على عمود النسب

(١) في س (٣٣ ب) : « ابن عبد الله » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أن سجلماسة مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان ، بينها وبين فاس عشرة أيام .

(٣) في س : « بمصر » وما هنا هو الصحيح .

ثم اختلفت الباطنية من هنا وافترقوا ، ^(١) وسبب افتراقهم ^(٢) . أن أحد الدعاة المسمى الحسن الصباح ^(٣) قدم على المستنصر بالله بمصر ، وطالب أن يكون داعياً له ببلاد العجم ، فأجابه إلى ذلك ، فسأله عن الإمام بعده ، فذكر أنه قال : إنه ولده نزار ؛ ولم يكن للمستعلي ^(٤) إذ ذاك ولد ، ففضى الحسن الصباح ^(٥) إلى بلاد العجم فدعا للمستنصر وبعده لولده نزار ، وبث دعوة الباطنية هناك ، فلما توفى المستنصر كانت الدعوة ببلاد العجم لنزار بن المستنصر وتسمى هذه الفرقة من الباطنية « النزارية » ، ودعوتهم ببلاد الآلوت ^(٦) بالعجم ، وببلاد الشام بمصياف ^(٧) .

(١) ما بين الرقین غیر موجود فی س .

(٢) فی الأصل : « الحسن بن الصباح » . أنظر : (الدكتور طه شرف : دولة النزارية أجداد أفاخان كما أسسها الحسن الصباح ، القاهرة ، ١٩٥٠) و (محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ، شرقية وأندلسية ، ص ٤٢ — ٦٠) و (Von Hammer : Geschichte der Assassinen) فقها جميعاً صورة واضحة لحسن الصباح ودعوته وملكه وجهاده في سبيل نشر الدعوة وإقامة الملك .

(٣) كذا في الأصل ، وهو غير واضح المعنى . إذ أن الحسن الصباح وصل إلى مصر سنة ٤٦٩ هـ وغادرها في أوائل سنة ٤٧٢ هـ . وكان عمر المستعلي وقتذاك ستين أو ثلاث (فقد ولد سنة ٤٦٧ هـ) فكيف يكون له ولد أولاً يكون له في ذلك الحين . وإذا قرئ النص على أنه « ولم يكن المستعلي إذ ذاك ولد » فإن المعنى يظل غامضاً كذلك .

(٤) آلوت قلعة جبلية في الشمال الشرقي من بحر قزوين ، ومعنى آلوت عش النسر . وكانت هذه القلعة مقر الاسماعيلية النزارية إلى أن قضى عليهم المغول هناك سنة ٦٥٤ هـ . انظر (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « آلوت ») .

(٥) هي عند (ياقوت : معجم البلدان) : « مصياب » ثم يقول : « وبعضهم يقول : مصياف » ويعرفها بأنها حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس . ولكن (R. Dussaud : Topographie Historique de la Syrie ... etc. p. 143 et suiv) يذكر أن الرسم « مصياب » الوارد في (ياقوت) وحده خطأ . إذ لم يشاركه فيه غيره ؛ ولكنه اعتماداً على المراجع الجغرافية الأخرى وعلى النصوص والوثائق التاريخية يذكر أنها تنطق غالباً « مصياد masyad » ولكنها تكتب في أشكال مختلفة : « مصياث masyath » و « مصيات masyat » .

وقلاعها لنزار بن المستنصر^(١) وولده ، وإمامهم الذى يمتقدون إمامته يقولون إنه من ولد نزار بن المستنصر^(١) ، والله أعلم بذلك .

ولم يزل هؤلاء الذين ينتسبون إلى نزار ببلاد العجم إلى أن انتهى الأمر إلى آخرهم ، وهو ركن الدين خورشاه^(٢) بن علاء الدين محمد بن الحسن ، فحاصره هلاوا^(٣) ملك التتار^(١) — خذلهم الله تعالى — سنة خمس وخمسين وستائة ، ثم ظفر به هلاوا^(١) فقتله ، وقتل من معه من الباطنية الملاحدة ، وبقيت لهم حصون بالشام ، ففتحها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ملك الإسلام والمسلمين ، وطهر البلاد منهم كما طهرها من سائر الشرك ، وكان نزار [١٢٧] الذى تنسب إليه النزارية ظهر بعد أبيه بالاسكندرية ، فقبض عليه وقتل .

وأما الباطنية المصريون فخالفوا هؤلاء فى الإمام بعد المستنصر ، فقالوا : صارت الإمامة بعده للمستعلى بالله أبى القاسم محمد ، ثم لابن المستعلى الأمر بأحكام الله أبى على المنصور ، ثم لابن عمه الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم أحمد بن المستنصر ، ثم لابن الحافظ الظافر بالله إسماعيل ، ثم لابن الظافر الفاضل بنصر الله عيسى ، ثم لابن عمه العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ .

(١) ما بين الرقين غير موجود فى س .

(٢) فى الأصل : « خسرو » وقد صحح بعد مراجعة : (دائرة المعارف الإسلامية : مادة « الإسماعيلية ») ، وركن الدين خورشاه هو ابن علاء الدين محمد الثالث بن جلال الدين حسن الثالث . وقد ولى الحكم فى آلوت من ذى القعدة سنة ٦٥١ هـ إلى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) حيث استولى المغول — أثناء تقدمهم نحو الخلافة العباسية — على ملكه ، وقبضوا عليه وقتلوه فى نفس السنة : انظر أيضاً : (الدكتور مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية على أيدي المغول ، ص ١٠٨ ، ١١٦) ، (ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٣١٢ — ٣١٤) .

(٣) كذا فى الأصل ، والمقصود به « هولاكو » ويرسم هذا الاسم فى بعض الكتب العربية الأخرى هكذا : « هلاون » .

ثم لما توفى العاضد وزالت دولتهم قالت دعائهم : إن الإمامة بعده لابنه داوود ابن العاضد ، ولقبوه « الحامد لله ^(١) » ، ثم توفى داوود هذا في أيام الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب في الحبس ، ثم قالوا إنها صارت بعده لابنه سليمان ^(٢) ابن داوود بن العاضد ، وكان هذا سليمان قد أدخلت أمه إلى داوود في الحبس سرّاً فوطئها داوود فحبلت بسليمان ، ثم حُملت الجارية إلى الصعيد فولدت سليمان ، وترعرع ^(٣) وخفى أمره من الدولة الأيوبية عند بعض الدعاة ، فأعلم السلطان به ، وأظنه ^(٤) الملك الكامل بن الملك العادل ، فظفر به وحبسه بقلعة الجبل ^(٥) ، وسافرت إلى مصر سنة إحدى وأربعين وستائة ، وكان سليمان هذا حياً ، وسمعت أن دعوة الإسماعيلية المصريين له ، ولهم فيه اعتقاد عظيم ، ورأيت من اجتمع به ^(٦) وتحدث معه ، فسألته عنه ، فأخبر ^(٧) أنه في غاية الجهل والغباوة ، ثم توفى هذا سليمان بن داوود ابن العاضد بقلعة الجبل في شهر شوال سنة خمس وأربعين وستائة في أيام السلطان الملك الصالح بن الكامل — رحمه الله — ولم يخلف ولداً ذكرّاً فيما نعلمه ، وسمعت

(١) لم تنته الأسرة الفاطمية بموت العاضد ، بل بقي منها أفراد لبثوا زمناً في أسر الأيوبيين ولم يعتقدوا بأحقّيتهم في الخلافة ، وللتعرف على هؤلاء الأفراد وعلى الجهود الفاشلة التي بذلت في سبيل إعادتهم للحكم في بعض الأحيان انظر :

(Casanova : *Les Derniers Fatimides. Mémoires de La Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 1893. P. P. 415-145*) ;

(S. M. Stern : *The Succession of the Fatimid Imam Al-Āmir, The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, And the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4, no. 2, P P. 193 ff.*)

(٢) في الأصل : « ونزع » ، وما هنا عن س (١٣٤)

(٣) في س (٣٤ ب) : « وتطلبه » .

(٤) في س (٣٤ ب) قبل هذا اللفظ الجملة الآتية : « قال صاحب الكتاب جمال الدين

ابن واصل قاضي القضاة بحجة المحروسة » .

(٥) ما بين الرقنين يقابله في س : « وتحدثت معه فسألته عنه فأخبرت . . إلخ » وما هنا

هو الصحيح إذ به يستقيم المعنى ولاحظ ما لهذه الجملة من أهمية ، فهي تنص على وجود المؤلف في القاهرة في سنة ٦٤١ هـ ، وزيارته لقلعة أثناء مقامه بها .

بعض من ينتمى إلى مذهبهم يدعى أن له ولداً ذكراً قد أخفى أمره حسب ما كان يخفى سليمان والده ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وبقى منهم رجلان محبوبان بقلعة الجبل بالقاهرة المحروسة ، شيخان ، جدهما (١) العاضد ، [١٢٨] وكان أحدهما واسمه القاسم قد بلغه أنى صنفت تاريخاً (٢) للسلطان الملك الصالح ، وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم وما قاله النسابة فيهم ، وأن بعضهم قال إن أصلهم من اليهود ، فطاعت يوماً إلى القلعة المحروسة ، ودخلت على باب الحبس والقاسم بن ابن العاضد هذا قاعد على بابه ، فسأل عنى ، فعرف بي ، فاستدعانى ، فأتيته ، فقال : « أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ » فحجبت منه ، وما أمكننى له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على أقوال المؤرخين [فسكت (٣)] .

وبالجملة فذهاب القوم رديئة مخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وما كان عليه السلف الصالح ، واعتقادهم فى الإلهيات ينزع إلى رأى المتفلسفة ، وإنما سموا باطنية ، لأنهم ينزلون القرآن على معانٍ موافقة لأربابهم ، ويصرفونه عن ظاهره ، ولهم فى هذا الباب حديث كثير وخطب طويل ، وقد انتدب جماعة من أعيان العلماء للرد عليهم ، منهم : الشيخ أبو حامد الغزالى — رحمه الله —

(١) فى الأصل وفى س (٣٤ ب) : « أحدهما » ، وقد صححت كما بالمتن ليستقيم المعنى . وهذا نس نادر هام انفرد ابن واصل فيه بذكر بعض الحقائق عن بقايا الأسرة الفاطمية بعد زوال الدولة ، وفى (الروضتين) و (الخطط للمقريزى) نصوص أخرى تتصل بالموضوع ، وقد أفاد من هذه النصوص جميعاً (Casanova) فى بحثه السالف الذكر ،

(٢) يشير إلى (التاريخ الصالحى) وهو الكتاب التاريخى الثانى للمؤلف .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (٣٤ ب) .

فإنه رد عليهم في كتاب له سماه : « المستظهرى ^(١) » ، حكى فيه صورة مذهبهم ، وبالغ في الرد عليهم والنقض لا قوايلهم .

وكان عمارة بن على البيني شديد التعصب لهم ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخولوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان — كما قيل — صنعة الإحسان ، ولم يكن على مذهبهم ، وإنما كان شافعيًا سنيًا ، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن ^(٢) الشعر ، وذبح عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذب عنهم باليد ؛ ثم لما تحرك جماعة في عود الأمر إليهم ، كان من جملة المساعدين على ذلك ، شكرًا لهم على إحسانهم إليه ، فأدى به ذلك إلى أن شُنق — على ما سند كره إن شاء الله تعالى — ، فمن جملة قوله فيهم يرثيهم بقصيدة ^(٣) ، ذكرتها بجملة ما لفرط حسنها وهي :

رَمِيتَ يَا ذَهْرُ كَنْتَ الْمَجْدِ بِالشَّلَلِ وَجِيْدُهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحُلَى بِالْعَطَلِ
سَمِعْتَ فِي مَنَهْجِ الرَّأْيِ الْعُتُورِ فَإِنْ قَدَرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ ^(٤) فَاسْتَقِلْ

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، أصله من غزاة ، قرية من أعمال طوس ، وكان والده يفتل الصوف ويبيع . توفي سنة ٥٠٥ هـ . وله مؤلفات كثيرة ، منها هذا الكتاب المشار إليه هنا واسمه : (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) أو (المستظهرى) ، أهداه إلى الخليفة المستظهر العباسي ، وقد نشر الأستاذ كولديزير قطعة كبيرة منه ومعه مقدمة طويلة في المذهب الباطني باللغة الألمانية . - *Goldziher: Streitschrift des Gazali Gegen die Batinija-Sekte. Leiden. 1916*).

وانظر أيضاً ترجمة الغزالي في : (ابن خلكان : الوفيات) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٠١ وما بعدها) و (الدكتور زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي) و (مركيس : معجم المطبوعات العربية) .

(٢) في س : « بالشعر » .

(٣) لتصحيح هذه القصيدة رجعنا إلى الكتب التاريخية المختلفة التي أوردتها ، وخاصة :

(ديوان عمارة) و (الروضتين لأبي شامة) و (صبح الأعشى للقلقشندي ، ج ٣ ، ص ٥٢٦ وما بعدها) .

(٤) في (الروضتين) : « البنى » .

جَدَعْتَ مَارِنَكَ الْأَقْنَى ، فَأَنْفَكَ لَا
 [١٢٩] هَدَمْتَ قَاعَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ مَجَلٍ
 لَهْنِي وَلَهْفَ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً
 قَدِمْتُ مَصْرَ فَأَوْلَتْنِي خَلَائِفُهَا
 قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الْأُلُوفِ ، وَمِنْ
 وَكُنْتُ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ تَمَّ (٥)
 وَنِلْتُ مِنْ عُظَمَاءِ الْجَلِيشِ تَكْرِمَةً
 يَا عَاذِلِي فِي هَوَى أُنْبَاءِ فَاطِمَةَ
 بِاللَّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرِينِ وَابْكِ مَعِي
 وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا : وَاللَّهِ مَا التَّحَمْتُ
 مَاذَا تُرَى كَانَتْ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةً
 [هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرَ قِسْمَةٍ مَا

يَنْفَكَ مَا بَيْنَ أَمْرِ (١) الشَّيْنِ وَالْجَلِ
 مُقِيَّتٌ مُهَلًّا (٢) ، أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلٍ ؟
 عَلَى جَمِيعَتِهَا (٣) فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
 مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أُرْبَى عَلَى أَمَلِي (٤)
 كَمَا لَهَا أَنُهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسَلْ
 رَأْسُ الْحِصَانِ يَهَادِيهِ عَلَى الْكَفْلِ
 وَخَلَّةٌ حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ
 لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصُرَتْ فِي عَدَلِي
 عَلَيْهِمَا (٦) ، لَا عَلَى صِفَتَيْنِ وَالْجَمَلِ
 فِيكُمْ جُرُوحِي ، وَلَا قَرَحِي بِمُنْدَمِلِ
 فِي نَسْلِ [آل] (٧) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ؟
 مَلَكَتُمُو يَنْ حُكْمِ السَّبِي وَالنَّفْلِ (٨) ؟

- (١) فِي (الرُّوسْتَيْنِ) : « نَقَصَ » .
 (٢) الْمَهْلُ مَا ذَابَ مِنْ صَفَرٍ أَوْ حَدِيدٍ ، وَهَكَذَا فُسِّرَ فِي النَّزِيلِ . (الْلسَانُ) ؛ وَفِي (صَبِيحِ الْأَعْنَى) : « شَقِيَّتٌ » مُهَلًّا . . . الخ « وَهُوَ اجْتِهَادٌ غَيْرُ مُوْفَقٍ فِي قِرَاءَةِ النَّصِّ » .
 (٣) فِي (الرُّوسْتَيْنِ) : « جَمِيعَتُهَا » .
 (٤) فِي (الرُّوسْتَيْنِ) : « عَلَى الْأَمَلِ » .
 (٥) فِي س (١٣٥) : « أَشَأْ » .
 (٦) فِي الْأَصْلِ : « وَنَحْ عَلَيْهِمَا » وَلَا يَسْتَقِيمُ بِهَا الْوِزْنُ ؛ وَمَا هُنَا عَنْ : (الرُّوسْتَيْنِ) وَ (صَبِيحِ الْأَعْنَى) .
 (٧) مَا بَيْنَ الْحَاصِرَيْنِ عَنْ س (٣٥ ب) ، وَ (الرُّوسْتَيْنِ) ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
 وَ (صَبِيحِ الْأَعْنَى) .
 (٨) هَذَا الْبَيْتُ غَيْرُ وَارِدٍ فِي الْأَصْلِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ فِي (الدِّيَوَانِ) وَفِي (الرُّوسْتَيْنِ) وَ (صَبِيحِ الْأَعْنَى) .

وقد حصَلْتُمْ عليها واسمُ جدِّكم
مررتُ بالقصرِ ، والأركانُ خاليةٌ
فَمِلْتُ عنها بِوَجْهِ (٢) ، خَوْفَ مُنْتَقِدٍ
أُسْبِلْتُ من أَسْنَى دَمْعِي غَدَاةَ خَلَّتْ
أُبْكِي على مَا تُرَاتِ (٣) من مَكَارِمِكُمْ ،
دارُ الضِّياقَةِ كانتْ أنْسَ وإفْدِرْكُمْ
وَفِطْرَةُ الصُّومِ إِن أَصْغَتْ (٤) مَكَارِمَكُمْ
وَكُسُوَةُ النَّاسِ فِي الْفَضْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ (٥) ،
وَمَوْسِمٌ كَانَ فِي يَوْمِ (٧) الْخَلِيجِ لَكُمْ
وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَيْنِ (٨) كَمْ لَكُمْ
وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي يَوْمِ الْفَدِيرِ كَمَا (٩)
[١٣٠] وَالْخَمِيلُ تُعَرِّضُ فِي وَشْيٍ وَفِي شَيْءٍ (١٠)

محمدٌ ، وأبوكم خَيْرُ مُنْتَقِلِ (١)
من الوفودِ ، وكانتْ قِبْلَةُ الْقُبَلِ
من الأعادي ، ووجهُ الْوَدِّ لم يَلِ
رِحَابِكُمْ ، وَغَدَتْ مَهْجُورَةَ الشُّبُلِ
حَالَ الزَّمانُ عليها ، وَهِيَ لم تَحُلِ
وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ من رَسْمٍ ومن طَلَلِ
تَشْكُو من الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرَ مُحْتَمَلِ
وَرَثَ منها جَدِيدٌ عَنْهُمْ (٦) وَبَلِي
يَأْتِي تَجَمُّلَكُمْ فِيهِ على الْجَمَلِ
فِيهِنَّ من وَبَلِ جُودٍ ليس بِالْوَشَلِ
بَهْتَرُ مَا يَبْنَى قَصْرِيكُمْ من الْأَسَلِ
مَثَلُ الْعَرَائِسِ فِي حَلِي وَفِي حُلَلِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَفِي (صَبَحَ الْأَعْيَى) ؛ وَفِي (الدِّيوان) وَ (الروضتين) :
« غير منتقل » .

(٢) فِي « الروضتين » : « بوجهي » .

(٣) فِي الْأَصْلِ وَفِي « الروضتين » وَ « الدِّيوان » : « ما تراءت » ، وما هنا عن :
« صَبَحَ الْأَعْيَى » .

(٤) فِي « الصَّبْح » : « إِذَا اضْهَتْ » .

(٥) فِي س : « دَنَسَتْ » .

(٦) فِي « الصَّبْح » : « عِنْدَم » .

(٧) فِي « الروضتين » : « كَسَر » .

(٨) فِي « الروضتين » : « وَالْعِيدَانِ كَانَ لَكُمْ » .

(٩) فِي « الروضتين » : « عِيدُ الْفَدِيرِ بِمَا » .

(١٠) فِي « الروضتين » : « من وَشْيٍ وَفِي شَيْءٍ » .

وما حملتم^(١) قري الأضياف من سعة الـ
وما خضتم^(٢) بئر أهل ملتكم^(٣)
كانت روايتكم للوافدين ، وللضيـ
ثم الطراز ببتيس الذي عظمت^(٤)
وللجوامع من أحباكم^(٥) نعم
وربما عادت الدنيا ، فمقلها^(٦)
والله لا فاز يوم الحشر مبنضكم ،
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ
[ولا رأى جنة الله التي خلقت
أتمنى ، وهدي ، والذخيرة لى ،
تالله لم أوفهم^(٨) فى المدح حقهم
ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
باب النجاة فهم ، دنيا وآخرة

أطباق إلا على الأكتاف والعجل
حتى عمتم به الأقصى من الملل
فى المقيم ، ولطارى من الرسل
منه الصلات لأهل الأرض والدول
لمن تصدر فى علم وفى عمل
منكم ، وأنصحت بكم مخلوثة العقل
ولا نجا من عذاب النار غير ولى
من كف خير البرايا خاتم الرسل
من خان عهد الإمام العاصد بن على^(٧)
إذا ارتهنت بما قدمت من عمل
لأن فضلهم كالوايل الهطل
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل^(٩)
وحبهم فهو أصل الدين والعمل

(١) فى (الروضتين) : « ولا حملتم » .

(٢) فى (صبح الأعشى) : « أهل مملكة » .

(٣) فى (الروضتين) : « لذمتين » .

(٤) فى الأصل : « التى عظمت من » ، وفى س (٣٥ ب) : « ببليس الذى » .

وما هنا عن (الديوان) و (صبح الأعشى) .

(٥) فى (الديوان) : « إحسانكم » ، وفى (الصباح) : « إخصامكم » .

(٦) كذا فى الأصل وفى (الصباح) ، وفى (الديوان) : « لمقلها » .

(٧) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .

(٨) فى (الصباح) : « والله لم نوفهم » .

(٩) فى س (١٣٦) : « كالخجل » .

نور الهدى ، ومصابيح الدجى ومح
 أئمة خلّقوا نوراً ، فنورهم
 من نور خالص نور الله لم يقل
 والله لا زلت عن حبي لهم أبداً
 ما آخر الله لى فى مدّة الأجل
 [عمارة قلما المسكين وهو على
 خوف من القتل ، لا خوف من الزلزال (١)]

ولما وردت البشائر على الملك العادل نور الدين — رحمه الله — بالخطبة بمصر
 للإمام المستضىء بنور الله أمير المؤمنين سرّاً بذلك ، وكتب إلى سائر الأطراف
 بالبشارة ، وندب القاضي شهاب الدين أبا المعالى المظفر بن الشيخ شرف الدين
 ابن أبى عصرون بهذه البشارة إلى الديوان العزيز ، وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهانى
 بإنشاء بشارة تُقرأ فى سائر البلاد الإسلامية ، وبشارة أخرى خاصة [١٣١] تُقرأ
 بحضرة الإمام فى مدينة السلام .

ونظم عماد الدين قصيدة مشتملة على ذكر الخطبة للدولة العباسية ، ويمدح فيها
 الإمام المستضىء بنور الله :

قد خطبنا للمستضىء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
 وخذلنا لنصرة الضد العاصد (٢) والقاصر الذى بالقصر
 واتبعنا بها شعار بني العبد ، فاستبشرت وجوه النصر
 وتركننا الدعى يدعو (٣) ثبوراً وهو بالذل تحت حجر وحصر (٤)
 وتباهت مناير الدين بالخطبة للهاشمي في أرض مصر

(١) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .

(٢) فى س (١٣٦) : « العاضل والقاصر بالقصر » .

(٣) فى الأصل وفى س (١٣٦) : « يدعى » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ،

ص ١٩٨) .

(٤) فى الأصل « وخسر » ، وما هنا عن : (الروضتين) .

وَلَدَيْنَا تَضَاعَفَتْ نِعْمُ اللَّهِ
 وَاعْتَدَى الدِّينُ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِي مَفْزَعٍ
 وَاسْتَنَارَتْ عَزَائِمُ الْمَلِكِ الْعَالِ
 فَبَنَوْا الْأَصْفَرَ الْقَوَائِمُ (١) مِنْهُ
 عَرَفَ الْحَقُّ أَهْلَ مِصْرَ ، وَكَانُوا
 هُوَ فَتَحَ بَكْرَهُ ، وَدُونَ الْبَرَائِيَا
 وَحَصَلْنَا بِالْحَمْدِ وَالْأَجْرِ وَالنَّفْعِ
 وَنَشَرْنَا أَعْلَامَنَا السُّودَ ، قَهْرًا
 وَاسْتَعَدْنَا مِنْ أَدْعِيَاءِ حَقُوقًا
 وَالَّذِي يَدْعِي الْإِمَامَةَ بِالْقَا
 خَانَهُ الدَّهْرُ فِي مَنَاهُ ، وَلَا يَطُ
 مَا يَقَامُ الْإِمَامُ إِلَّا بِحَقِّ
 خُلَفَاءِ الْهَدَى ، سَرَاةُ بَنِي الْعَبْدِ
 بِهِمُ الدِّينُ ظَافِرٌ مُسْتَقِيمٌ
 [١٣٢] كَشْمُوسِ الضَّحَى ، كَمِثْلِ بُدُورِ
 قَدْ بَلَغْنَا بِالصَّبْرِ كُلَّ مُرَادٍ ،
 لَيْسَ مُثْرَى الرِّجَالِ مِنْ يَمْلِكُ الْمَا
 ١ ، وَجَلَّتْ عَنْ كُلِّ عَدٍّ وَخَضِرٍ
 رَاحُوا حَوَاطِ الْجَمَى ، مَصُونِ النَّفَرِ
 دَلِ نُورِ الدِّينِ الْكَرِيمِ الْأَخْرِ
 فِي وَجْهِهِ — مِنَ الْخَافَةِ — صَفَرٍ
 قَبْلَهُ بَيْنَ مُنْكَرٍ وَمُقَرَّرٍ
 خَصَّنَا اللَّهُ بِافْتِتَاحِ الْبِكْرِ
 رَاحُوا وَطِيبِ الشَّنَاءِ وَحُسْنِ الذِّكْرِ
 لِلْعَدَى الزُّرْقِ ، بِالْمَنَآيَا الْحَمْرِ
 تَدْعَى بَيْنَهُمْ لَزِيدٍ وَعَمْرٍو
 هَرَّةٌ انْحَطَّ فِي حَضِيضِ الْقَهْرِ
 مَعَ ذُو اللَّبِ فِي وَفَاءِ الدَّهْرِ
 مَا تُحَازُ (٢) الْحُسْنَاءِ إِلَّا بِمَهْرٍ
 لَسِ ، وَالطَّيِّبُونَ أَهْلُ الظَّهِيرِ
 ظَاهِرٌ قُوَّةً ، قَوِيٌّ الظَّهِيرِ
 سَمٌّ ، كَالشَّجْبِ ، كَالنَّجُومِ الزُّهْرِ
 وَبُلُوغُ الْمُرَادِ عُقْبَى الصَّبْرِ
 لَ ، وَلَكِنَّمَا أَخُو اللَّبِّ مُثْرَى

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ فِي الرُّوسْتَيْنِ ؛ وَهِيَ فِي س (٣٦ ب) : « الْفَوَاجِر » .

(٢) فِي الْأَصْلِ وَفِي س : « نَخَار » ، وَمَا هُنَا عَنْ : (الرُّوسْتَيْنِ ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

ولهذا لم يَنْتَقِعْ صَاحِبُ الْقَصْرِ وقد شَارَفَ الدُّوْرَ بدُفْرِ
دَامَ نَصْرُ الْهُدَى بِمَلِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى يَقُومَ يَوْمَ الْخَشْرِ

ولما وصلت البشارة إلى الديوان العزيز النبوى قوبلت بالإكرام والإعظام
والإنعام التام ؛ وكان وصول البشارة بذلك يوم السبت لثمان بقين من المحرم من هذه
السنة — أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة — ، فجلس الوزير عضد الدولة ابن رئيس
الرؤساء فى الديوان ، واستحضر أرباب المناصب والدولة والخواص والأمراء وأشار
إلى كاتب الإنشاء أبى الفرج ابن الأنبارى (١) ، بقراءة مكتوب الملك العادل
نور الدين ، ثم تلى بمكتوب بَرَزَ بخط الخليفة المستضىء بنور الله ، يتضمن الشكر لله
على ما أباحه من عودة الحق إلى مستقره .

وكان مبدأ انقطاع الخطبة العباسية بها سنة ثمان وخسين وثلاثمائة ، وعادت
الخطبة العباسية بها سنة سبع وستين وخمسمائة ، فكان مدة انقطاع الخطبة العباسية
بمصر نحو من مائتى سنة وتسع (٢) سنين .

ووصل إلى الشام جواب البشارة مع عماد الدين صندل (٣) المقتفوى ، وهو إذ
ذاك أستاذ الدار العزيزة ، ولم يرد من بغداد رسول مثله فى جلالته وعظمه قدره ؛
وورد صحبته التشريف الشريف لنور الدين مكلاً بالأهبة (٤) السود والحلل الموشية ،
والطوق الذهب الثقيل ، واللواء (٥) الجليل ؛ وحضر الرسول عند نور الدين ،
وحضر أكابر الدولة والخواص ، وكان يوماً مشهوداً ؛ وقرأ موفق الدين خالد

(١) انظر ما فات هنا ، ص ٥٨ ، هامش ٣

(٢) فى س : « سبع » ، وهو خطأ .

(٣) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩) : « عماد الدين بن صندل » .

(٤) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أهب . (اللسان) .

(٥) فى س (١٣٧) : « الأوْلُو » وما هنا هو الصحيح ، انظر : الروضتين ، ج ١ ،

ابن محمد بن صغير القيسراني (١) كتاب الديوان ، ثم لبس نور الدين الفرّجية (٢) ، وتقلد بالسيفين (٣) ، ووُضع في عنقه الطوق (٤) ، وخرج راكباً من داخل القلعة واللواء الأسود منشور على رأسه ، وقُدِّم له مركوبان ، أحدهما ركبه ، والآخر كان جنياً [١٣٣] بين يديه ، محلى بحليته ، وجمع له بين تقليدي السيفين الإشتعار بتقليده الاقليمين : الشام والديار المصرية ، وخرج إلى ظاهر دمشق ، ونثر عليه الذهب ، وانتهى في تسميره إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد إلى القلعة .

وكان صحبة الرسول تشریفٌ للملك الناصر صلاح الدين جليل كثير ، لكنه دون تشریف نور الدين ؛ فسيره نور الدين — رحمه الله — إليه ، وسير أيضاً خلعاً من عنده برسم الأمراء من أصحابه .

(١) القيسراني نسبة إلى قيسارية بليدة بالشام على ساحل البحر ، وقد ذكر صاحب الروضتين — نقلاً عن البرق الشامى للمهاد — أن خالداً هذا كان بمثابة الوزير لنور الدين ، ولم أعثر له على ترجمة وإنما ترجم (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٨٢ — ٨٥) لأبيه محمد ابن نصر بن صغير القيسراني ، وكان شاعراً مشهوراً ، وتوفي سنة ٥٤٨ هـ .

(٢) عرفها : (Dozy : Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements. p. p. 327—334 ; Supp. Dict. Arab.) بأنها « نوع من القباء المسترسل ، ويصنع غالباً اليوم من الجوخ وله أكمام واسعة طويلة تتمدى أطراف الأصابع ، وهي غير مفتوحة او مشقوقة ، est une robe flottante, faite ordinairement aujourd'hui de drap, à manches amples et longues qui dépassent un peu l'extrémité des doigts, et qui ne sont point fendues » .

(٣) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلاً عن البرق الشامى للمهاد الكاتب — أن معنى إرسال الخليفة سيفين لنور الدين إنما هو رمز لتقليده ولاية مصر والشام مما فقد كان المهاد حاضراً الحفل الذى قدمت فيه هذه الخلع والتشارييف إلى نور الدين ، قال — فيما رواه عنه صاحب الروضتين — : « وسألت عن معنى تقليده السيفين ، ف قيل لى : هما للشام ومصر ، ولجميع بين البلادين » وهو ما يؤكد المتن هنا بعد سطور قليلة .

(٤) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلاً عن البرق الشامى للمهاد — أن وزن هذا الطوق مع أكرته كان ألف دينار من الذهب الأحمر ، هذا وتشابه النص هنا وفي الروضتين يدل دلالة واضحة على أن مصدرهما الذى ينقلان عنه واحد ، وهو البرق الشامى للمهاد الأصفهانى ، وقد اعترف أبو شامة صراحة بالنقل عنه ، أما ابن واصل فقد نقل دون النص على مرجمه .

ولما وصل التشریف الخلیفی إلى مصر لبسه الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — وركب به ، وذلك فی الحادی والعشرين من رجب من السنة المذكورة ، وهی أول خلعة عباسیة دخلت مصر بعد انقراض دولة العلویة ؛ ووصل أيضاً إلى مصر أعلام ورايات سود ، وأهَب عباسیة للخطباء بسائر الأعمال المصریة ، ففرقها صلاح الدين على الجوامع والمساجد والقضاة والعلماء ، واستقر قدم بنی آیوب بمصر ، واستثبت الملك لهم ، فی ذلك یقول عرقلة الدمشقی :

أَصْبَحَ الْمَلِكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِي
وَعَدَا الشَّرْقُ يَحْسِدُ الْغَرْبَ لِلْقَوِّ مِ ، وَمِصْرُ تَزْهُوْ عَلَى بَغْدَادِ
مَا حَوَّوْهَا إِلَّا بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ وَصَلِيلِ الْفُولَادِ فِي الْفُولَادِ
لَا كِفْرَعُونَ وَالْعَزِيزِ ، وَمَنْ كَا نَ بِهَا كَالْخَطِيبِ وَالْأُسْتَاذِ

وفی هذه السنة — أعنی سنة سبع وستین وخمسمائة — خرجت من مصر مراكب ، إلى الشام فأخذ الفرنج فی اللاذقیة منها مركبتین مملوءتین من الأمتعة (١) والتجار ، وغدروا بالمسلمین ، وكانوا قد هادنوا نور الدين — رحمه الله — ونكثوا ، ولما بلغ ذلك نور الدين راسلهم فی إعادة المركبتین فغالطوه ، واحتجوا بأن المركبتین كان قد دخلهما ماء البحر (٢) لكسر فیهما (٢) ، وكانت العادة جاریة بأخذ كل مركب یدخله الماء ، وكذبوا فی ذلك ، فلم یقبل مغالطتهم ، وجمع العسكر من الشام والموصل والجزیره ؛ ووصل ابن أخیه سیف الدين غازى بن مودود إلى خدمته ، ثم بثَّ السرايا نحو أنطاکیة وطرابلس ، وحصر هو [١٣٤] حصن عرقا ، وأخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافیتا وعزیمة ، فأخذوها

(١) فی الأصل : « اامتعة التجارة » ، وفی س (٣٧ ب) : « الأمتعة والتجار » وما هنا عن : (ابن الأثیر ، ج ١١ ، ص ١٤٠) .
(٢) هذان اللفطان غیر موجودین فی س .

عنوة ، [وقتل كل من فيها وسبي ^(١)] ، وخرب ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وعادوا إليه وهو بعرقه .

وسار [نور الدين] بالعساكر نحو طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا له إعادة ^(٢) ما أخذوه من المركبين ، وطلبوا تجديد الهدنة ، فأجابهم إلى ذلك ، [وردت المركبان بما فيها إليه ولم ينفذ منها شيء ^(٣)] .

ذكر ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —

وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمصير بها إلى بلاد الفرنج ، والنزول بها على الكرك ومحاصرتة ، ويجتمعان هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم من [هذه ^(٣)] السنة ، وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر ، وكان نور الدين قد جمع العساكر وتجهز ^(٤) ، فأقام ينتظر ورود ^(٥) الخبر من صلاح الدين ورحيله ليروح هو ؛ فلما أتاه ^(٥) الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال أحوال البلاد ^(٦) ، وأنه يخاف عليها من البعد عنها ، فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره ورجع .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٨) ، ومكان هذه الجملة في الأصل : « وكذلك غيرها » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (١٣٨) .

(٤) في س : « وتجهزوا » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من س .

(٦) في س (١٣٨) : « باختلال البلاد وأحوالها » .

قلت : هكزا ذكر بعضه المؤرخين ، ولم يذكر غيره أن نور الدين نازل السكرك في هذه السنة ، بل كلهم ذكر أن نور الدين كاتب صلاح الدين بالمسير إلى السكرك ، فخرج متوجهاً إليها ، ثم عاد ، وكان السبب في عود صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوَّفوه من الاجتماع بنور الدين (١) .

ولما لم يمثل صلاح الدين أمر نور الدين عظم ذلك عليه ، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم بما قد عزم عليه نور الدين في قصده وأخذ مصر منه ، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه [١٣٥] بن نجم الدين أيوب ، وقال : « إذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد » ، ووافقه غيره من أهله ، فستهم نجم الدين أيوب ، وأنكر ذلك عليهم غاية الإنكار ، وقال لصلاح الدين : « أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك ، أظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزك عزك (٢) ، وأى حاجة له إلى الحجى ؟ يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولى بلاده من يريد » ، وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا فنحن

(١) صيغة س يختلف قليلا ، وهي : « بنور الدين فساد إلى مصر ولم يمثل أمر نور الدين ، فلما بلغ نور الدين ذلك عظم عليه . . . إلخ » .

(٢) في س (٣٨ ب) : « فان أراد عزك فأى حاجة . . . إلخ » .

ممالك نور الدين وعبيد: يفعل بنا ما يريد » ، وتفرقوا على هذا الحال ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر ، ولما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له : « أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم ترمك من هذا العسكر أحداً ، وكانوا يسمونك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولي ، فتكتب إليه وترسل في هذا المعنى ، وتقول : « أى حاجة إلى قصدي ؟ نجاب يأخذني بجبل يضعه (١) في عنقي » ، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك (٢) واشتغل بما هو أهم عنده ، والآيام تدرج ، والله كل يوم في شأن » ؛ فلم صلاح الدين صحة ما أشار به والده [ففعل ما أمره به (٣)] ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده ، واندرجت الآيام — كما قال نجم الدين (٤) — وكان ما مسند كره إن شاء الله تعالى .

(١) في س : « يصوره » .

(٢) في س : « قصده اليك » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٣٩) .

(٤) المصدر الأصلي لهذه القصة هو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٩) وقد نقلها عنه مع تغييرات طفيفة (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) ، ونص ابن واصل هنا متفق مع نص أبي شامة . وللاستاذ محمد فريد أبو حديد رأى مخالف في هذا الموضوع . أنظر كتابه : (صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ٧٣ — ٨١) . والذي نراه أن ابن الأثير يتلمس المناسبات أحياناً لفهم صلاح الدين ونقده وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين ، وقد يكون لنشأته في الموصل — موطن نور الدين والبيت الأتابكي عموماً — أثر في هذا . أنظر رأى الأستاذ جب في هذا الموضوع في : (H.A.H, Gibb : The Arabic Sources for the Life of Saladin. Speculum. vol. XXV. No. 1 January 1950. pp. 58-74).

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر صلاح الدين

— رحمه الله — الكرك والشوبك

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة خرج صلاح الدين — رحمه الله — في النصف من شوال قاصداً الفزاة ، ومعه ما هو [١٣٦] برسم الهدية إلى نور الدين ، وهو : الفيل والحمار العتائبة ^(١) وذخائر وأمتعة من القصر مستحسنة ، وآلات مثمنة ، وقطع بلّور ^(٢) ويشم ^(٣) ، وأوان لا يتصور وجود مثلها ، وثلاث قطع بلخش ^(٤) أكبرها نصف وثلاثون مثقالا ، والثانية ثمانية عشر ، والآخرى دونها ، ومعه لؤلؤ نفيس ، وستون ألف دينار ، وغرائب من المصنوعات ، وطيب وعطر ، وغير ذلك ؛ فوصل ^(٥) إلى بلاد الكرك والشوبك ، فنازلها ونازل غيرها من الحصون ، فأخرب عماراتها ، وشنّ الفارات على أعمالها .

(١) المقصود هنا أن هذه واحدة من حجر الوحش المخططة ، وقد ذكر (ابن خلكان : الرفيات ، ج ٤ ، ص ٢٢ — ٢٣) و (ابن الأثير : الباب في تهذيب الأنساب) أن « العتائي » نسبة إلى « العتايين » وهي إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها ، وكانت إقطاعاً لعباب أحد رجال بني أمية — فسميت باسمه ، وقد اشتهرت هذه الحلة بانتاج نوع من النسيج المخطط ومن هنا كان يوصف هذا النوع من الجمير بأنه عتائي تشبيهاً له بهذا النسيج . انظر أيضاً (Dozy : Supp Dict. Arab).

(٢) وترسم أيضاً « بلور » وهي معربة عن اليونانية « Beryllos » فحذف منها سين الاعراب ، ثم وقع فيها القلب . انظر : (ابن الأكفاني : تحب الذخائر في أحوال الجواهر ، تعليقات الاب انستاس ماري الكرملي ، ص ٦٣ ، هامش ١) .

(٣) ويقال فيه « البشب » وهو حجر ثمين قريب من الزبرجد ، ومنه الأبيض ، والأصفر والزيقي — وهو أفضلها — . انظر : (المرجع السابق ، ص ٧٢) و (البيروني : كتاب الجواهر في معرفة الجواهر ، ص ١٩٨) .

(٤) جوهر أحمر شفاف يضاهي فائق الياقوت في اللون والرواق ، سمي هكذا نسبة إلى موطنه « بلخشان » حيث يكثر وجوده ، وأهل إيران يسمونه « بدخشان » وهو إقليم يقع في أقصى شرق أفغانستان . انظر : (ابن الأكفاني : المرجع السابق ، ص ١٤ — ١٥) .

(٥) في س (١٣٩) : « فقصده » .

ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين

وسير الهدية إلى نور الدين، وكتب إليه بالإشياء الفاضل: «سبب هذه الخدمة إلى مولانا السلطان الملك العادل أعز الله سلطانه، ومدّاً أبداً إحسانه، ومكناً بالنصر إمكانه، وشيئاً بالتأييد أركانه، ونصر أنصاره وأعان أعوانه: علم الملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص (١) أجنتهم، ويقل (٢) أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم؛ وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان، ومما اجتهد فيه عامة (٣) الاجتهاد، وعدّه من أفضل (٤) أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفاسهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار (٥) العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلاً (٦).

(١) في الأصل: «يخص»، وقد صححت بمد مراجعة س والروشتين.

(٢) في الأصل، وفي س (١٣٩): «يقل»، وفي (الروشتين، ج ١، ص ٢٠٦): «يفلل»، وما هنا قراءة ترجيحية يقتضيها المعنى.

(٣) كذا في الأصل، وفي س (١٣٩): «من الاجتهاد»، وفي (الروشتين، ج ١، ص ٢٠٦): «غاية الاجتهاد».

(٤) كذا في الأصل وفي س، وفي (الروشتين): «أعظم».

(٥) في س: «إلى أن يصير العدو إذا نهض... الخ».

(٦) هذه قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ليبين له فيها القصد من خروجه لمهاجمة الكرك والشوبك، وكانت هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من مصر في أوائل سنة ٥٦٨ هـ وقد أوضح (بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦) الغرض من هذه الغزوة وأهميتها بقوله: «وإنما بدأ بها - أي الكرك والشوبك - لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يمر بها بلاد العدو، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها فحاصرها، وجرى بينه وبين الأفرنج وقعات، وماد عنها ولم يظفر منها بشيء».

ولما وصلت الهدية والرسول إلى نور الدين استقلَّ الهدية واستنصرها ، ولم تقع منه بموقع ، ولكنه أظهر شكر صلاح الدين ، ووصف فضيلته ، وقال : « ما كان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جئنا به مقدار ، [وتمثل بقول أبي تمام (١)] :

لَمْ يَنْفِقْ الذَّهَبَ الْمُرْبَى بِكَثْرَتِهِ عَلَى الْحِصَابِ بِهِ قَرَّرَ إِلَى الذَّهَبِ
لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفور العدد من الجند ، وقد عمَّ البلاء بالفرنج ، فينبغي أن تقع المساعدة والمعاونة بالأمداد » ، ثم أخذ يفكر فيما يفعله من هذا المهم .

[١٣٧] قال عماد الدين الطائب في البرق : « وصلت الحمارة ، وكثرت لها النظارة ، والفيل وصل إلينا [في سنة تسع وستين (٢)] ونحن بحلب في الميدان الأخضر ، فأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود — صاحب الموصل — مع شيء من الثياب والعود والمنبر ، فسيرَه سيف الدين إلى الخليفة مع تحف وهدايا (٣) ؛ وسيرَ نور الدين الحمارة العتائبة إلى الخليفة مع هدايا وتحف سنية (٤) . »

وفي هذه السنة أغار العدو على الجولان (٥) ونزلوا ممسكين (٦) ، وبلغ ذلك

- (١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) وذلك للايضاح .
- (٢) أضفنا ما بين الحاصرتين من : (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .
- (٣) في س (٣٩ ب) : « مع هدايا وتحف سنية » .
- (٤) في س : « مع هدايا عظيمة » .
- (٥) في س (٣٩ ب) : « الجولان » ؛ والجولان قرية . وقيل جبل ، من نواحي دمشق ، ثم من محل حوران : (ياقوت ، معجم البلدان) .
- (٦) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي (الروضتين) ، وفي : (ياقوت : معجم البلدان) : « ممسكين ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران » .

نور الدين وهو نازل بالكسوة فرحل إليهم بعساكره ، فرحلوا إلى الفوار (١) ،
ثم إلى الشلالة (٢) ، ونزل نور الدين عشرا ، وبعث عسكرياً إلى أعمال طبرية ،
فأغار عليها ، ولما عادت لحقتها الفرنج عند الخاضة ، فوقفت المقاتلة في مقابلتهم
إلى أن عبرت السرية (٣) ونجت ، ثم رحل نور الدين من عشرا ، ونزل بظاهر زرا ،
وامتدحه عماد الدين بقصيدة أولها :

رُفِعَتْ (٤) بِنَصْرِكَ رَايَةُ الْإِيمَانِ وَبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيَةُ الْإِحْسَانِ
يَا غَالِبَ (٥) الْغُلَبِ الْمُلُوكِ وَصَائِدِ الْـ صَيْدِ الْيُوثِ وَفَارِسِ الْفُرْسَانِ
يَا صَالِبَ التَّيْجَانِ مِنْ أَرْبَابِهَا حُزْتَ الْفَخَارَ عَلَى ذَوِي التَّيْجَانِ
[ومنها يقول (٦) :

كم وقعة لك في الفرنج ، حديتها قد سار في الآفاق والبلدان
قَصَصَتْ (٧) قَوْمَهُمْ رِدَاءً مِنْ رَدَى وَضَرَبَتْ رَأْسَ بَرِيسِهِمْ بِسِنَانِ
وَمَلَكَتْ رِقَّ مُلُوكِهِمْ وَتَرَكَتْهُمْ بِالذُّلِّ فِي الْأَقْيَادِ وَالْأَشْجَانِ (٨)
وَجَعَلَتْ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالَهُمْ وَسَحَبَتْهُمْ هَوْنًا عَلَى الْأَذْقَانِ (٩)

(١) في س : « الفرات » .

(٢) في س « اللاكة » وفي الأصل : « السلالة » ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) في س : « البرية » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي س ؛ وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) : « عقدت » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ، وفي س (٣٩ ب) : « يا غالباً غلب الملوك » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، والقصيدة كاملة موجودة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨) .

(٧) في س (١٤٠) : « قومصت قومصهم ردى من ردى » .

(٨) في الأصل ، وفي س : « الأشجان » ، والتصحيح عن : (الروضتين) .

(٩) في س : « الأذقاني » و « السلطاني » .

وعلى غنَاءِ الْمَشْرِفِيَّةِ فِي الطَّلَى والهَامِ رَقْصٌ عَوَامِلُ ^(١) الْمِرَانِ
وَكَأَنَّ بَيْنَ النَّقْعِ لَمْعُ حَدِيدِهَا نَارٌ تَأَلَّقُ فِي خِلَالِ دُخَانِ
فِي مَازِقِ وَرْدِ الْوَرِيدِ مَكْفَلُ ^(٢) فِيهِ بَرَى الصَّارِمِ الظَّمَانِ ^(٣)
ومنها :

غَطَى ^(٥) الْعِجَاجَ بِهِ نَجْمَ مَمَائِهِ لَتَنُوبَ عَنْهُ أَنْجُمُ الْخَرَصَانِ
أَنْتَ الَّذِي دُونَ الْمُلُوكِ وَجَدْتُهُ مَلَانٍ مِنْ عَرَفٍ وَمِنْ أَيْمَانِ ^(٣)
[١٣٨] فِي بَاسِ عَمْرٍو، فِي بَسَالَةِ حَيْدَرٍ، فِي لُطْقِ قُوسٍ، ^(٤) فِي تُقَى ^(٥) سَلْمَانَ
صَبْرٌ لَوْ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ أَنْزَلَتْ فِي شَأْنِهَا سُورٌ مِنَ الْقُرْآنِ
فَانْسَلَمَ طَوِيلَ الْعُمُرِ مُنْتَدَى الْمَدَى ^(٦) صَافِي الْحَيَاةِ مُخَلَّدَ السُّلْطَانِ ^(٧)

ذكر غزوة النوبة

وفي جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وميتين وخمسمائة —
غزا الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب — أخو السلطان —

- (١) كذا في الأصل وفي س ، وفي (الروضتين) : « عوالى » .
- (٢) يقابل هذا في س : « وكفل فيه يروى الصادى الضمان » .
- (٣) كذا في الأصل : وفي س ؛ وفي (الروضتين) : « عرفان » .
- (٤) في س « قيس »
- (٥) في الأصل : « غطا » و « تقا » .
- (٦) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ، وفي س : « الندى » .
- (٧) في س : « السلطاني » .

بلاد النوبة ^(١) ، وفتح حصناً لم يدعى إبريم ، وسبى وغنم ، فوجدها بلاداً قليلة الجدوى ، فجمع السبى وعاد به إلى أسوان ، وفرّق الغنائم في أصحابه .

(١) أورد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩) — نقلاً عن ابن أبي طي المؤرخ الحلبي — حديثاً منفصلاً عن حملة تورانشاه إلى بلاد الصين ، وهذا الحديث يتضمن معلومات فريدة وهامة جداً ، ولهذا آثرنا نقله هنا ، قال : « وفيها اجتمع السودان والمبيد من بلاد النوبة ، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك مصر ، وصاروا إلى أعمال الصعيد ، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها ، وكان بها الأمير كنز الدولة ، فأنفذ يلم الملك الناصر ، وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي ، فلما وصل إلى أسوان وجد المبيد قد طادوا عنها بعد أن أخبروا أرضها فأتبعمهم الشجاع والسكنز ، فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال المبيد وتمسكهم من بلاد الصعيد ، فأنفذ الملك الناصر اخاه شمس الدولة في عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار قاصداً بلادهم ، وشحن سراكب كثيرة في البحر بالرجاء والميرة ، وأمرها بلحافه إلى بلاد النوبة ، وسار إليها ، ونزل على قلعة إبريم ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والسكران والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسر من وجده فيها ، وهرب أصحابها ، وكتب إلى السلطان بذلك . . . ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوس ، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم السكردي ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم ، فأقطعه إياها ، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين ، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا ، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم ، واتفق انهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة فبدان (؟) ففرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه ، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم ، وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فنادى النوبة إليها وملسكوها ، وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوس ، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية — عبد وجارية — فكتب له جواب كتابه ، وأعطاه زوجي نشاب ، وقال : « مالك عندي جواب إلا هذا » ، وجهاز معه رسولا يعرف بمسمود الحلبي ، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة — وهي مدينة الملك — قال مسمود : فوجدت بلاداً ضيقة ، ليس لهم زرع إلا الدرة ، وعندما نخل صفار ، منه أدامهم » ، ووصف ملسكهم بأوصاف منها أن قال : « خرج علينا يوماً وهو عريان ، قد ركب فرساً عربياً ، وقد التف في ثوب أطلس ، وهو أقرع ، ليس على رأسه شعر ، فأثيت فسالت عليه ، فضحك وتغاشى ، وأمرني أن تسكوى يدي فكوى عليها هيئة صليب ، وأمرني بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، ثم صرفني » ، قال : « وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيا أخصاص » . انظر أيضا :

(P. Casanova : *Les Derniers Fatimides. Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 3, p.p. 415-445*).

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى

والد الملوك (١) — رحمه الله —

وفى يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجة من هذه السنة ركب الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى — والد الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله — بالقاهرة ، فشبَّ به فرسه وتقنطر به ، فحمل عن فرسه ، وعاش ثمانية أيام ثم توفى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة من السنة ؛ وكان ولده صلاح الدين إذ ذاك غائباً فى بلاد الكرك والشوبك على ما ذكرناه ، فبلغه وفاة والده قبل وصوله إلى الديار المصرية ، فاشتد حزنه ، وتأسف حيث لم يحضر وفاته ، وكان [نجم الدين] مولعاً باللعب بالكرة وشدة الرضى ، فكان كل من رآه على هذه الصفة يقضى أنه لا يموت إلا [من وقوعه (٢)] عن ظهر الفرس .

ذكر سيرته — رحمه الله (٣) —

كان رجلاً جواداً ، كثير البذل ، حسن النية ، جميل الطوية ، وله صدقات ومعروف كثير ، واتفقت له سعادة عظيمة ، ومات حتى رأى فى ذريته ما أحب من الملك لهم والسلطان ، ثم عظم ملكهم بعده وانتشر صيتهم ، ولم يملك أحد فى عصرهم مثل ما ملكوا ؛ ولما توفى دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه فى بيت بالدار السلطانية ، ثم نقل بعد سنتين إلى مدرسة بنيت لها [بالمدينة (٤)]

(١) فى س : « والد الملك الناصر صلاح الدين » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى س .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٠ ب) .

بازاء حجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — وسعدا بجوار النبي — عليه السلام —
قم لها بذلك سعادة الآخرة مضافة إلى ما نالاه [١٣٩] من سعادة الدنيا .

ولما (١) حججت سنة تسع وأربعين وستمائة وقدمت المدينة — على ساكنها
أفضل الصلاة والسلام — رأيت قبريهما بهذه المدرسة .

ورئي (٢) عمارة بن علي البيني — الشاعر — نجم الدين أيوب بقصيدة أولها (٢) :

هي الصدمة الأولى فمن بان صبره	على هؤل ملقأها تضاعف أجره
ولا بدء من موت وفوت وفرقة	ووجد بماء العين يؤقد بجره
وما يتسلى من يموت حبيبه	بشيء ، ولا يخلو من الهم فكره
ولكنه جرح يعز أندماله	وكسر زجاج لا يؤمل جبره
أدُم صباح الأربعاء فإنه	تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجيهِ بمصيبة	تداعى ممك الجوف فيه ونسره
وأفقر أهل الأرض من باذل الغنى	إذا قنط (٣) المحتاج واشتد فقره
عَدِمْنَا أبا الإسلام والمُلك والندى	وفارقنا فرد الزمان ووتره
فلا تعذُّلونا واعذرونا ، فمن بكى	على فقد أيوب فقد بان عذره
رعى (٤) الله نجماً تعرف الشمس أنه	أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى (٤) المقام الناصري فإنه	لدولتكم كنز الرجاء وذخره

(١) قبل هذا اللفظ في س : « قال القاضي جمال الدين » . وهذه جملة من الجمل الكثيرة
المتناثرة في هذا الكتاب والتي يعرفنا فيها المؤلف ببعض أخباره ، ومنها نعلم أنه حج إلى مكة
وزار المدينة في سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) مقابل هذه الجملة في س : « ورثاها على بن عمارة الشاعر بهذه الأبيات وهي من قصيدة
طويلة أولها يقول » .

(٣) في س : « قبض » .

(٤) في الأصل : « رعا » و « ابقا » .

أَهْضَ عَلَى الْإَيَّامِ أَحْسَنَ سِيرَةٍ يَمُوتُ بِهَا جَوْرُ الزَّمَانِ وَغَدْرُهُ
إِذَا كَانَتْ الْبَلَوَى مِنْ اللَّهِ فَلْيَكُنْ مِنَ الْحَزْمِ تَحْدُ اللَّهُ فِيهَا وَشُكْرُهُ (١)

ذكر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين

— رحمهما الله تعالى (٢) —

كان نور الدين — رحمه الله — من حين ملكت الديار المصرية يؤثر أن يقرر له حمل يحمل إليه منها يستعين به على كلف الجهاد ، والأيام تماطله ، وهو ينتظر من صلاح الدين — رحمه الله — أن يبتديه ذلك من تلقاء نفسه ، ويفعل في ذلك ما يؤثره ويريده ، فلما حمل صلاح الدين ما تقدم ذكره استقله ولم يعجبه ، فتقدم حينئذ نور الدين إلى موفق الدين خالد بن القيسراني متولى ديوان الاستيفاء (٣) أن يمضى إلى الديار المصرية ، ويتقاضى صلاح الدين ، ويعمل أوراقاً بارتفاع الأعمال المصرية ، ولا يترك في النفس حزاة (٤) من [١٤٠] أمرها ، ثم سار الملك نور الدين إلى بلبك ثم إلى حمص ثم إلى حلب .

(١) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٢) أبيات أخرى من هذه القصيدة .

(٢) هذا العنوان غير موجود في س .

(٣) في س : « الانشاء » .

(٤) في س : « حراة » . وابن واصل ينقل هنا عن (البرق الشامي للمعاد الأصفهاني) .

انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) ، ونص المعاد يفسر معنى هذا اللفظ وهو : « وتقدم إلى موفق خالد بن القيسراني أن يمضى ويطلب ويقتضى ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية جزاة ، ولا يبق في نفوس ديوانه من أمرها حزاة . . الخ » .

ذكر قصد نور الدين — رحمه الله —

بلاد قليج أرسلان

ثم سار نور الدين إلى مملكة السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان [بن (١)] قُطْلُشِ السلاجوقي — صاحب قونية — عازماً على حربه وأخذ البلاد منه ، وسبب ذلك أن ذا النون بن الدانشمند (٢) — صاحب ملطية — قصده عز الدين ، وأخذ بلاده منه ، فسار ابن الدانشمند صاحب ملطية إلى نور الدين مستجيراً به ، وملتجئاً إليه ، فأكرم [نور الدين (١)] نزله ، وأحسن إليه ، وحمل إليه ما يليق أن يُحمل إلى الملك ، وراسل (٣) قليج أرسلان يشفع في إعادة بلاد ذي النون إليه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين وابتدأ بكيسون (٤) ونهبه ، ومرعش (٥) ومرزبان فلكها وما بينها ، وكان ملكه لمرعش في ذي القعدة من هذه السنة (٥) ، ثم سار طائفة من عسكره إلى سيواس فلكوها .

فراسل قليج أرسلان نور الدين واستعطفه ، فوقع الصلح بينهما ، وشرط

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٤١) راجع أيضاً : (زامباور : معجم الأنساب والأسماء الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ص ٢١٦ ، الترجمة العربية) .

(٢) في الأصل — هنا وفيما يلي — : « الدانشمند » وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) وابن واصل ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ — ١٤٧) وكذلك فل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) .

(٣) في س : « وأرسل إلى » .

(٤) كذا في الأصل ، وهي في س : « بلسون » وما هنا عن ابن الأثير والروضتين .

(٥) ما بين الرقنين ساقط من س .

[نور الدين عليه (١)] أن ينجده بعساكر إلى الغزاة ، ففعل (٢) ، وُسِّمَت سيواس إلى ذى النون (٣) ، وبقى [ذو النون] فى خدمة نور الدين إلى أن مات نور الدين ، فحينئذ عاد قليج أرسلان إلى البلاد فملكها ، وهى مع ولده إلى اليوم .

والمرتب اليوم بالبلاد وله اسم السلطنة صبي صغير (٣) ، هو ابن ركن الدين ابن غياث الدين كيخسرو بن علا الدين كيقيباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان المذكور ، وكان التتر الملاعين قد استولوا على البلاد ، وأبقوا بها ركن الدين والد هذا الصبي ، وهرب أخوه عز الدين كيكاؤس بن كيخسرو إلى ملك الروم صاحب قسطنطينية وهو عنده إلى اليوم ، واستولى على ركن الدين معين الدين [سليمان] البرواناه (٤) ، ثم قتل معين الدين ركن الدين ، وقام بأتابكية ولده الصبي المذكور ، وخطب له بالبلاد ، وملك (٥) البلاد فى الحقيقة التتر ، والبرواناه نائبهم بها (٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) مقابل هذه الجملة فى س : « وتمطى سيواس وغيرها لذى النون ففعل ذلك » .

(٣) هذا الصبي الصغير هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، وقد ولى الحكم فى سنة ٦٦٣ هـ وعمره سنتان ونصف سنة ، ولهذا الاستطراد أهمية خاصة فهو يحدد الوقت الذى كان المؤلف — ابن واصل — يكتب فيه هذا الجزء من الكتاب ، وواضح أنه كان يكتبه بعيد سنة ٦٦٣ هـ وهى السنة التى تولى فيها هذا الصبي . أنظر : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢١٨)

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧١ — ٥٧٢) والبرواناه لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب ، وقد أطلق فى دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر . (تعليقات الدكتور زيادة فى نفس الصفحة من نفس المرجع) .

(٥) هذه الجملة فى س ناقصة ومضطربة المعنى ونصها : « وملك البلاد فى الحقيقة (؟) والبرواناه ناييه » .

ذكر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم

كان مليح بن لاون مقدم الأرمن قد التجأ إلى نور الدين ، وصار في طاعته ، وكانت الدروب وأذنة ومصيصة [وطرسوس ^(١)] بحميتها ملك الروم صاحب قسطنطينية ^(٢) [١٤١] ويضبطها بجنده ، فاستولى عليها مليح بن لاوون ، وكسر الروم ، وقتل منهم وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيراً ، فسيرهم نور الدين إلى الخليفة المستضيء بنور الله ، وكتب إليه كتاباً ، من جلته : « قسطنطينية ^(٢) والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة ، وكلاهما في وحشة ^(٣) ليل الظلام المدلهم على انتظار صياح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يُدنى قطاف الفتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مرضى الإمام » .

[وفي آخره ^(٤)] : (فصل في فتح بلاد النوبة والمغرب) : « ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل الإسلامية في العصور الخالية ، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، وتحكموا في محكم معاقلمها ومصُونها ، حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب » .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) في الأصل : « قسطنطينية » .

(٣) س : « وجه » ، والتصحيح عن (البرق الشامى قلماد ، في : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٥) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق ، ولائباتها أهمية خاصة لأنها توضح أن النص التالي الخاص بفتح النوبة وبرقة جزء من نفس الخطاب المرسل إلى الخليفة . هذا وفي الروضتين قطعة أخرى من هذا الخطاب مكمل له .

ذكر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب (١)

وفي هذه السنة مضى قراقوش — غلام الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب — إلى المغرب في طائفة من الترك ، وانضم إليه جماعة من العرب ، واستولى على أطرابلس الغرب وكثير من بلاد إفريقية ، وانضم إلى قراقوش مسعود بن زمام — وهو من أعيان الغرب (٢) به هناك — وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن بن علي — خليفة المغرب — وأولاده ، فانفقا ، وكثر جمعهما ، وحكم قراقوش على تلك البلاد ، وصار معه عسكر كثير ، وجرت (٣) بينهم وبين المغاربة حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها (٤) ، وقد ذكرتها مفصلة في التاريخ الكبير (٥) .

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وقراقوش التقوى هذا هو غلام تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وهو غير بهاء الدين قراقوش الأسدي السابق ذكره .
(٢) س : « الغرب » . ونص (ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦) — وهو المرجع الذي ينقل عنه ابن واصل هنا — : « مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء هناك » .

(٣) ما بين الرقين ساقط من س (١٤٢) .

(٤) ذكرنا سابقاً ان المعروف أن لابن واصل كتاباً آخر في التاريخ هو (التاريخ الصالحى) وقد رجعت إليه فلم أجده هذه التفصيلات التي يشير إليها هنا بشأن فتوح قراقوش التقوى في بلاد المغرب ، وهذا يرجع أنه كان لابن واصل كتاب تاريخي ثالث ، يسميه هو هنا « التاريخ الكبير » غير أننا لا نعرف عنه حتى الآن شيئاً . أنظر ماقات هنا ص ٢٠٤ ، هامش ٣ هذا والثابت من المراجع الأخرى أن غزوات قراقوش التقوى للمغرب تعددت في السنوات ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٨ و ٥٨٢ ؛ وأن تقي الدين عمر بن شاهنشاه فكر أكثر من مرة في الخروج بنفسه إلى المغرب لاقامة ملك له هناك . لهذا وذاك انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ — ٢٧٠ و ج ٢ ، ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٧٠)

ذكر دخول الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه

ابن أيوب اليمن وتملكه لها (١)

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة سیر الملك الناصر صلاح الدين أخاه الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب إلى بلاد اليمن ليمتلكها ؛ وكان السبب في ذلك أنه كان صلاح الدين هو وأهله من حين ملكوا مصر خائفين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويملكونها ، وتسكون لهم عدة ، فإن أخرجهم نور الدين [١٤٢] من مصر ساروا إليها وأقاموا بها ، فافتضى رأى صلاح الدين أن يسیر أخاه إلى النوبة ليملكها ، فسار إليها ولم تعجبه كما ذكرنا ، فلما عاد إلى مصر اقتضى رأيہ أن يسیرہ إلى اليمن (٢) ،

(١) هذا العنوان ساقط من س .

(٢) هذا رأى القائل بأن السبب في فتح النوبة ثم اليمن إنما هو تخوف صلاح وأسرته من نور الدين أن يهاجمهم في مصر ويخرجهم منها . أقول إن هذا رأى مصدره الأول ابن الأثير ، وابن الأثير — فيما يبدو — متهم في كثير مما يكتبه عن العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين . أنظر ما فات : ص ٢٢٣ ، هامش ٤ ، وأنظر أيضاً (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥) فهو يقول عند حديثه عن مسير شمس الدولة تورانشاه إلى النوبة : « وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر ، فاستقر رأى بينهم أنهم يملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فإن قوا على منعه أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي افتتحوها » . وفي رأبي أن هذا لا يتفق مع ما ذكره ابن الأثير نفسه في موضع آخر (ص ١٤٨) من أن تورانشاه « استأذن نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية فأذن في ذلك » وقد أكد هذه الحقيقة ابن واصل هنا في المتن بعد سطرين اثنين وإنما ذكر أن الذي استأذن نور الدين هو صلاح الدين . أما الأسباب الحقيقية لفتح اليمن فتجدها في النصوص الكثيرة التي نقلها (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ و ٢٢٠) عن المهاد الأصفهاني وابن شداد ، وابن أبي طي . وفي : (بدر الدين محمد بن حاتم : السطع الغالي الثمن في أخبار الملوك من الفز باليمن) والكتاب الأخير لازاك مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٢٤١١ .

وكان بها خارجي يقال له عبد النبي ، واسمه فيما ذكر أبو الحسن عمارة : « علي بن مهدي ^(١) » ، [و] قد ملك زبيد ، وقطع الخطبة العباسية ، وخطب لنفسه ، فاستأذن صلاح الدين نور الدين في أن يسير عسكرياً إلى اليمن ويفتحها ، فأذن له في ذلك .

وكان بمصر عمارة بن علي اليمني — المقدم ذكره — فحسن الملك المعظم قصد اليمن ، ووصف بلادها له ، وعظمها في عينه ، فزاده ذلك رغبة فيها ، فشرع بتجهيز ويُعدُّ ^(٢) الروايا والسلاح ، وغير ذلك من الآلات ، وجنَّد الأجناد ، وجمع وحشد ، وكان لعمارة مدائح في الملك المعظم ، فما امتدحه به ، وحرَّضه فيه على مُلك اليمن قصيدته التي أولها :

الْعِلْمُ مُدٌّ كَانَ محتاجٌ ^(٣) إِلَى الْعِلْمِ وَشَفْرَةُ السِّيفِ تَسْتَفْنِي عَنْ الْقَلَمِ

= هذا وقد انفرد مؤرخ يعني آخر (باخرمة : تاريخ ثمر عدن ، ج ١ ، ص ١٢٧—١٢٨) بذكر سبب هام من أسباب الفتح الأيوبي لليمن ، وخلصته أن بعض أمراء اليمن استقاثوا بالخليفة العباسي من اعتداءات عبد النبي بن مهدي ؛ قال : « خرج (عبد النبي بن علي بن مهدي صاحب زبيد) في أصحابه إلى جهة أبين ، فحرق أبين ، وقتل أهلها ، وذلك في سنة ٥٥٩ هـ ، ثم رجع إلى زبيد ؛ ثم خرج في سنة ٥٦١ في عسكر جرار نحو الخلاف السيلاني ، فقاتلهم قتلاً شديداً ، وقتل منهم طائفة فالبهم من الأشراف ، وفي جملة من قتله وهاس بن ظالم بن يحيى ابن حمزة بن وهاس السيلاني — أحد أمراء الأشراف وسادتهم — . . . ويقال إنه لما قتل الشريف وهاس خرج أحد أخوته إلى بغداد مستنصراً بالخليفة علي عبد النبي بن مهدي ، فيقال إن الخليفة كتب له إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بأن يجرد في نصرته عسكرياً لقتال ابن مهدي ، فجرد الملك الناصر أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، وأن ذلك كان سبب دخول الغز اليمن . . الخ » .

(١) الهديون أسرة حكمت زبيد بين سنتي (٥٥٤ — ٥٦٩ = ١١٥٩ — ١١٧٣) ، وحكم من هذه الأسرة ثلاثة فقط : علي بن مهدي ، ومهدي بن علي ، وعبد النبي بن علي — وهذا هو اسمه الصحيح — انظر : (St. Lane-Poole : *Mohammadan Dynasties* p. 96)
(٢) س : « يمدك » .

(٣) في الاصل : « محتاجا » والتصحيح عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦)
و (النكت العصرية ، ص ٣٥٢) .

ومنها :

تُرى مسامعُ فخر الدين تسمعُ ما
فإنْ أصبتُ في حظِّ المصِيبِ ، وإنْ
كم^(١) تترك البيضَ في الأجفانِ ظامِئَةً
(٢) ومقلَّةُ الجدِّ نحو العزمِ شاختَةً
فعمَّكَ الملكُ المنصورُ سَوْمَهَا
أمامَكَ الفتحُ من شامٍ ومن يمنٍ
فاخلقْ لنفسِكَ مُلكاً لا تُضَافُ به
وانهَ المُشيرينَ إنْ لَجَّتْ نصيحتُهُمْ
واعزِّمْ^(٤) وصمَّ فقد طالتْ وقد شمتحتْ^(٥)
طالَ التردُّدُ في إبرامِ مُنتَقِضِ

أملأه خاطرُ أفكارى على قلبي ؟
أخطأتُ قصْدَكَ فاعذرنى ولا تَلُمِ
إلى المواردِ في الأعناقِ والقممِ^(٢)
فاتركَ قعودَكَ عن إدرا كما وقمِ
من العراقِ إلى مصر بلا سَامِ
فلا تَرُدَّ رؤوسَ الخيلِ بالجمِ
إلى سِوَاكَ ، وأورِ^(٣) النارَ في العلمِ
أولاً فانعمِ على العميانِ بالصمِّ
قضيةٌ لفظها ألسنُ الأئمِّ
في^(٦) هذه الحالِ أو في نقضِ مُنْبرِمِ

ومنها :

فَرَبُّ أَمْرِ يَخَافُ النَّاسُ غَايَتَهُ
وَالْأَمْرُ أَهْوَنُ فِيهِ مِنْ يَدِ لِفَمِّ

- (١) في الأصل : « لا » وفي س : « لم » والتصحيح عن الروستين .
(٢) خلط صاحب النسخة الأصلية فوضع الشطر الثاني من البيت الثاني أمام الشطر الأول من البيت الأول وبذلك جعل البيتين بيتاً واحداً بعد أن أسقط الشطرين المرقين ، وقد صححنا الوضع فيهما بعد مراجعة س (٤٢ ب) .
(٣) في الأصل : « واورى » وفي س : « واروى » وقد صححت بعد مراجعة : (الروستين ج ١ ، ص ٢١٧) و (ديوان عمارة ، ص ٦١٩) .
(٤) في الأصل : « وانم » ، وما هنا عن س (٤٢ ب) و (عمارة : النكت المصرية ، ص ٦٢٠) .
(٥) في الأصل : « سمجت » وما هنا عن س ، والنكت المصرية .
(٦) في الأصل : « من » وما هنا عن (س) والنكت المصرية .

هذا ابنُ ثُمُورٍ قد كانتِ بِدَايَتِهِ
[١٤٣] والنَيْث وهو كما قد قيل أَوَّلُهُ
والبدر يبدو هلالاً ثم يَكْشِفُ بالـ
تنمو قُوَى الشَّيْءِ بالتدريج إن رُزِقَتْ
حَاسِبٌ ضَمِيرَكَ عَنْ رَأْيِ (٣) أَتَاكَ وَقُلْ
أَقْسَمْتُ مَا أَنْتَ مِنْ جُلٍّ هَمَّتُهُ
وإنما أَنْتَ مَرْجُوٌّ لِوَاحِدَةٍ
كَأَنِّي بِاللَّيَالَى وَهِيَ هَائِفَةٌ
وَبِالْعَلَى كُلَّمَا لَا قَتَكَ (٤) قَائِلَةٌ

— كما يقول الوردى — لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ
قَطْرٌ ، وَمِنْهُ خَرَابُ السَّدِّ بِالْعَرَمِ
أَنْوَارٍ مَا سَتَرَتْهُ قَمَلَةٌ الظَّلَمِ
لَظَى (١) وَيَقْوَى شَرَارُ الزَّنْدِ (٢) بِالضَّرَمِ
نَصِيحَةٌ وَرَدَتْ مِنْ غَيْرِ مُتَّهِمٍ
مَا رَاقَ مِنْ نَعَمٍ أَوْ رَقَ مِنْ نَعَمٍ
بَنَى بِهَا الدَّهْرُ مَجْدًا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ
مُذْ صَمٌّ مَمْنَعٌ رِجَالٍ دُونَهَا وَعَمِي
أَهْلًا بِمَنْشَرِ آمَالِي مِنَ الرَّمَمِ

ثم سار الملك المعظم شمس الدولة من مصر مستهل رجب من هذه السنة فوصل
إلى مكة (٥) — حرمها الله تعالى — ومنها إلى زييد ، فلما قرب منها قال عبد النبي

- (١) في الأصل : « لطفاً » ، وما هنا عن : (النكت المصرية ، ص ٣٥٤) .
(٢) في الأصل : « النار » وما هنا عن (س) والنكت .
(٣) في الأصل : « أمر » وما هنا عن النكت والروشتين .
(٤) في الأصل : « لائقك » وما هنا عن س والنكت المصرية . هذا والقصيدة أطول
مما ورد هنا بكثير ، والآيات المكحلة يوجد بعضها في : (عمارة : النكت المصرية ،
ص ٣٥٢ — ٣٥٥ و ٦١٩ — ٦٢٠) و (الروشتين : ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧) .
(٥) أورد (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، الجزء الثامن ، القسم الأول ،
ص ٣٠٠ — ٣٠١) وصفا شائقاً لما فعله توران شاه أثناء مقامه بمكة ولخطوات حملة الين بوجه عام ،
وقد أترنا نقل هذا الوصف هنا لأهميته ، ولأن راويه — سبط ابن الجوزي — يعتبر المؤرخ
الثاني — بعد ابن واصل — المعاصر للأيوبيين ، قال : وقعت على تاريخ بمصر ، فرأيت أن شمس
الدولة لما سار إلى الين ، وكان أعيانها قد كتبوا إلى صلاح الدين يسألونه أن يبيت إليهم بعض
أهله ، فلما وصل شمس الدولة إلى مكة صعد صاحبها إلى أبي قبيس ، فتحصن عليه بقلعة بناها ،
وأغلق باب السكبة ، وأخذ ألفاتيج ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، وصعد
إلى باب السكبة وقال : اللهم إن كنت تعلم أني جئت إلى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهدها ، =

لأهل زبيد : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلکوا ، وما هم إلا أكلة رأس^(١) » ، فخرج إليهم بعسكره ، فقاتلهم الملك المعظم ومن معه ، فلم يثبت أهل زبيد وانهمزوا ، ووصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا من يمنعهم ، فنصبوا السلام ، وصعدوا السور ، فلكوا البسلد عنوة ، ونهبوه وأكثروا النهب ، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرة^(٢) ، وكانت امرأة صالحة

= فيسر على فتح الباب ، وإن كنت تعلم أنى جئت لغير ذلك ، فلا تفتحه ، ومد يده لمجذب القفل فانفتح ، فدخل شمس الدولة إلى البيت ، وصلى ودعا ، فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته ، وحمل الغنايسح واعتذر ؛ وقال : خفت منك ، والآق فأنا تحت طاعتك ، فقال : إذا أخذت منك مفاتيح مكة فلن أعطيها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم . وسار إلى اليمن ، فانهزم عبد النبي بين يديه إلى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدى قد فتح البلاد وقتل خلقا كثيرا ، وشق بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدورهن ؛ وكان يرى رأى القرامطة ، ويظهر أنه داعية لأهل مصر ، ويستتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبي ، ففعل باليمن ما فعله أبوه ، وسبى نساءه ، واستبدم . وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة ، وصفح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ، ظاهرها وباطنها بحيث لم يعمل في الدنيا مثناها ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد إلى حضرموت أن يجيئوا إلى الكعبة ، وأسرم بالحج إلى قبر أبيه ، وكانوا يحملون إليها من الأموال في كل سنة مالا يحصى ، ولا يحصى ، ويطوفون حولها مثلما يطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشجر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة ، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور ، وذبح الأطفال ، وسفك الدماء ، وسبى النساء إلى أن دخل شمس الدولة اليمن ، وجاء إلى زبيد ، فيقال إنه حصر عبد النبي فيها وابنه وقيدته وقتله . . . ، ويقال إنه انهزم بين يديه ، وجاء إلى قبة أبيه فهدمها ، وأخذ ما فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستائة جبل ، ونبتش القبر ، وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ، ومضى إلى صنعاء ، تخلف شمس الدولة : لا ينتهي عنه حق يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه ، فرجع إلى زبيد ، وعاد شمس الدولة إليها ، فظفر به ، فأخذ ما كان معه ، وقتله وصلبه وحرقه ، كما فعل بعظام أبيه .

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنص في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩) : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلکوا إلا أكلة رام » وهو خطأ مطبعي ، وما بالمتن هنا هو الصحيح ، فقد جاء في (اللسان) : « ويقال : رام إلا أكلة رأس أى م قليل ، يشبههم رأس واحد » .

(٢) في الأصل : « حرة » والتصحيح عن ابن الأثير . ويبدو أن لفظ « الحرة » كان لقباً تلقب به الأسرات الحاكمة في اليمن ، فقد ظهرت بين نساء الصليحيين باليمن قبل هذا أكثر من سيدة كانت تلقب « بالحرة » أو « بالسيدة الحرة » .

كثيرة الصدقة ، وكانت إذا حجت وجد عندها فقراء ^(١) الحاج صدقة دارة ومعروفاً كثيراً .

ولما أمر الملك المعظم عبد النبي بن محمد سلمه إلى الأمير سيف الدولة مبارك ابن كامل بن منقذ ^(٢) ، وأمره أن يستخرج منه الأموال ، فأعطاه منها شيئاً كثيراً ؛ ثم إنه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالده ، وبني عليه بنية عظيمة ، وله هناك دفائن كثيرة ، وأعلمهم بها ، فاستخرجت الأموال من هناك ، وكانت جليلة المقدار ؛ ودلهم [زوجته ^(٣)] الحرة على ودائع لها ، فأخذ منها مال كثير ؛ ولما ملكت زبيد أقيمت بها . [١٤٤] الخطبة العباسية .

ثم سار العسكر إلى عدن ، وهي على البحر ولها مرسى عظيم ، وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وثمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك ، وهي منيعة جداً من جانب البحر والبر ، وكان المتغلب عليها رجل يُقال له ياسر ، ولو ^(٤) امتنع بها لم يقدروا على أخذها ^(٥) ، لكنه حينه خرج إلى العسكر ، فباشر قتالهم ، فانهزم ، وسبقه بعض عسكر الملك المعظم فدخلوا البلد قبل أهله ، وملكوه ، وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً ، وأرادوا نهب البلد فمنعهم الملك المعظم ، وقال : « ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها ونلتفع بدخلها » .

ولما دخلوا عدن كان معهم عبد النبي [صاحب زبيد ^(٥)] مأسوراً ، فقال :

(١) في الاصل : « لفقرا » وما هنا عن س (١٤٣) .

(٢) في س : (. . . بن كافل بن مسعد) ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) مقابل هذا في س : « وقد امتنع بها ولم يقدر أحد على أخذها منه » ، وما في الأصل يقتضيه السياق فهو الصحيح .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

« سبحان الله ! قد كُذِّتْ أعلمتُ أنى أدخل عدن فى موكب عظيم ، فأنا أنتظر ذلك وأسرَّ به ، ولم أكن أعلم أننى أدخلها على هذه الحالة » .

ولما فرغ الملك المعظم من أمر عدن عاد إلى زبيد ، وحصر ما فى الجبل من الحصون ، فملك قلعة تعز ، وهى من أحسن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب (١) زبيد ، وملك الجبل وغيرها من المعامل والحصون (٢) ، واستناب بعدن الأمير عز الدين عثمان (٣) بن الزنجبيل ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ ، وهلك عبد النبى [ويأسر (٤)] فى أسره ، وجعل [الملك المعظم] فى كل قلعة نائباً من أصحابه ، وأحسن إلى أهل البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت البلاد وأمنت ، [وأما الحرة زوجة عبد النبى فبلغه كثرة صدقتها وخيرها ، فأحسن إليها وأطلقها ، وأقطعها إقطاعاً يقوم بأودها وأود من معها (٥)] .

ذكر عزيم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية وما آل إليه أمرهم

وفى هذه السنة أراد جماعة من شيعة القصر الوثوب بمصر وإقامة الدعوة العلوية ، وردها إلى ما كانت عليه ، وكان منهم عمارة بن على اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ،

(١) س : « أصحاب » .

(٢) نص س : « وملك ما فى الجبل من القلاع والحصون » . وفى (ابن الاثير) : « وملك أيضاً قلعة التمر والجند وغيرها من المعامل والحصون » .

(٣) س : « الأمير عثمان عز الدين » فقط ؛ هذا ويحمد القارىء وصفا تفصيليا شائفا لخط سير الحملة الايوبية فى اليمن وفتحها هناك فيما رواه ابن أبى طى فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٧) وفى مخطوطة : (السمط الغالى الثمن ، ص ١٣ — ٦ ب) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) ، وهذا مثل واضح يدل على أن نسخة س — رغم عيوبها الكثيرة ، أفادت بعض الأحيان فى إقامة النص وتصحيحه وإكمال ما به من نقص .

والقاضي العويرس ، وداعى الدعاة ابن عبد القوى ، وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان ، وحاشية القصر ، ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده ، فاطلعوا على أسرارهم ؛ وعينوا [١٤٥] الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والأملاك ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، وبذلوا لهم شيئاً^(١) من المال والبلاط ، وكان مقصودهم وما انطوت عليه نيتهم الرديّة أن الفرنج إذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه ثارواهم بالقاهرة ومصر ، وأعادوا الدعوة العلوية ، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عليه ، فلا يبقى لهم مقام مقابل الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ، ثاروا به ، وأخذوه أخذاً باليد ، لعدم الناصر له والمساعد ، وقال لهم عمارة : « أنا قد أبعدت^(٢) أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده^(٣) ، وتجتمع الكلمة عليه بعده » ؛ فأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والشام ، وتقررت القواعد بينهم ، ولم يبق إلا إتمام أمرهم ، فكان ما قدره الله من فضيحتهم وانتهاك سر نيتهم^(٤) ، — لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من سعادة صلاح الدين وظهور أمره — ، أن الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا^(٥) أدخلوه معهم في سرّهم ، فداخلهم وأظهر لهم أنه على رأيهم ، فاطلع على جميع أمورهم ، وجاء إلى صلاح الدين وأظهره على جميع أمورهم ، وكشفها له ، وطلب

(١) في الاصل : « شيء » ، وما هنا عن س .

(٢) س : « انقذت » .

(٣) س : « أن يشد عتيده » والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ؛

ص ١٤٩ — ١٥٠) .

(٤) س : « ستر سرهم » .

(٥) هو زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي الواعظ ، توفي بمصر في رمضان سنة ٦٠٠ هـ عن إحدى وتسعين سنة ، انظر ترجمته في : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٣ — ١٨٤) و (ابن العباد : شذرات الذهب) .

منه ما لابن كامل (١) الداعي من الدور والمقار وكلما له من الموجود والمذخور ، فبذل له صلاح كل ما طلبه ، وأمره بمخالطتهم ومواطنتهم (٢) على ما يريدون أن يفعلوه ، وتعريفه بالمتجدد من أمورهم أولاً فأولاً ، فصار يعلمه بكل (٣) ما يتجدد لهم ، ثم اتفق وصول رسول الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ، وهو في الظاهر إليه ، وفي الباطن إلى أولئك الجماعة ، فكان يرسل إليهم بعض النصارى ، وتأتيه رسالهم .

وأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال ، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض (٤) من يثق إليه من النصارى ، فأخبره الرسول بالخبر على الحقيقة .

وقد ذكر في انكشاف [١٤٦] أمرهم أن عبد الصمد الكاتب كان إذا لقي القاضى الفاضل — رحمه الله — يخدمه ويتقرب إليه ، ويبالغ في التواضع له ، فلقبه يوماً فلم يلتفت إليه ، فقال القاضى الفاضل : « ما هذا إلا لسبب » ، وخاف أن يكون قد صار له باطن مع (٥) صلاح الدين ، فأحضر [زين الدين] على بن نجا الواعظ

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل داعى الدعاة ؛ ترجمته فى : (المعاد الأصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦ — ١٨٧) و (ابن المعاد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٥) .

(٢) س : « وموافقهم » ، والمؤلف هنا ينقل عن (البرق الشامى للمعاد الأصفهاني) أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(٣) س : « يعلم صلاح الدين بما يتجدد لهم » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س ؛ والمؤلف يختصر هنا عن رسالة بقلم القاضى الفاضل — أوردتها ابن أبى طى — رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها قصة المؤامرة فى تفصيل شيق هام ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) فى الأصل : « من » وما هنا عن س (٤٤ ب) والمؤلف يعود هنا فينقل عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٠) .

وأخبره الحال ، وقال : « أريد أن تكشف الأمر لي » ، فسمى (١) في كشفه فلم يرَ له من جانب صلاح الدين شيئاً ، فعدل إلى الجانب الآخر ، فكشف الحال إليه ، فحضر عند القاضي الفاضل فأعلمه ، فقال له : « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتُنهى الحال إليه » ، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع ، وذكر الحال ، فأخذ الجماعة وقرروهم ، فأقروا ، فحينئذ قبض عليهم ، وأمر بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين القاضي الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه ، فظن عمارة أنه يُحرّض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : « يا مولانا ، لا تسمع منه في حق » ؛ فغضب القاضي الفاضل وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان [والله (٢)] يشفع لك » ، فندم .

وأخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمرَّ به على مجلس القاضي الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ، ولم يجتمع به ، فقال :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب

ثم صُلب هو والجماعة بين القصرين ، وذلك يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسمائة — وأفنى (٣) [صلاح الدين] بعد ذلك من بقي منهم .

قال عماد الدين الأصفهاني : « وكان فيهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه ، فباد (٤) ولم يسمح بإيادها ، وبقيت تلك الدفائن مخزونة ،

(١) في الأصل : « فسمّا » .

(٢) ما بين الحاصرتين هن س .

(٣) في الأصل : « وأفنا » .

(٤) س : « فبات » .

وتلك الخزائن مدفونة^(١) ، قد دفن دافئها ، وخزن تحت الثرى^(٢) خازنها ، إلى أن يأذن الله تعالى في الوصول إليها ، والاطلاع عليها .

واحتيط على ولد العاضد وغيرهم^(٣) من أهله ، وأما الذين ناققوا على صلاح الدين [١٤٧] من جنده فلم يعرض لهم ، ولا أعلمهم أنه علم بجاهلهم ، وجمع من أموال الذين قبض عليهم ما يحمل إلى الشام ليستعين به نور الدين — رحمه الله — على الجهاد ؛ [وكان شيئاً كثيراً من الذهب والفضة وغير ذلك]^(٤) .

وكان من جملة الذين أمر صلاح الدين بصلبهم قبالة القصر الموريس وكان قاضى

(١) س : « مخزونة » و « التراب » ، وما بالمتن يتفق ونص المهاد ، أنظر : (الروضتين ، ج ١ ص ١٢٠) .

(٢) في الأصل : « غيره » وما هنا عن (١٤٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س بعد تصحيحه لنقويا ، والذي نلاحظه أن ابن واصل يعتمد هنا في حديثه عن هذه المؤامرة الخطيرة على المهاد الأصغاني ، وابن الأثير ، وأبى شامة ؛ وهؤلاء جميعاً مؤرخون سنيون . ولأن أبى طى — وهو مؤرخ شيعى — رواية أخرى تتضمن حقائق وتفصيلات جديدة هامة عن هذه المؤامرة ، ولهذا آثرنا نقل روايته هنا ، قال : « وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام ، وتآمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة المصريين ، وما صاروا إليه من الذل والفقر ، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ، وتجمعوا م و جماعة عينوم من الاشراف وغيرهم ، وأن يكتبوا الفرنج ، وأن يثبوا بالملك الناصر ، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصاك ، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة دينوها ، وكتبوا الفرنج بذلك ، وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر ، فخانهم ابن مصاك فيما طاهدم عليه ، ونكث في اليمين وكفر عنها ، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بجميلة ماجرى ؛ قال : فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالة ، فأقروا واعترفوا ، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم ، فأحضر السلطان الملاء واستفتاهم في أسرهم ، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم ، فأمر بصلبهم ؛ وقيل بأن الذى أذاع سرهم زين الدين على الواعظ ، وطلب جميع مالابن الداعى (كذا) من المقار والمالك ، فأعطاه جميع ذلك ؛ وكان الذين صلبوا منهم : الفضل بن كامل القاضى ، وابن عبد القوى الدامى ، والموريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرا كاتب السر ، وعبد الصمد القشة — أحد الاشراف المصريين — ونجاح الحماسى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم إن أسرهم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة المبني الشاعر .

القضاة لهم ، فحكى لى (١) القاضى تاج الدين — المعروف بابن بنت الاعز — قاضى القضاة بالديار المصرية — رحمه الله (٢) — قال : « كان العوريس رأى فى منامه كأن المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — أخرج رأسه له من السماء ، فقال له العوريس : الصلب حق ؟ فقال المسيح — عليه السلام — : نعم الصلب حق ؛ فقصّ العوريس رؤياه على معبر ، فقال المعبر : الذى رأى هذه الرؤيا يُصلب ، لأن المسيح معصوم ، فلا يقول إلا حقا ، ولا يمكن كون ذلك راجعاً إلى المسيح عليه السلام ، لأن القرآن العظيم قد نصّ بأنه لم يُصلب ولم يُقتل ، فبقى أن يكون ذلك راجعاً إلى الرأى ، فهو الذى يُصلب ، فكان الامر كما قال المعبر » .

وسيّر صلاح الدين كتابا إلى نور الدين يتضمن ذكر القضية (٣) بخط المرتضى ابن قريش ، فاتفق وصول الكتاب إلى دمشق يوم وفاة نور الدين — رحمه الله — فنه فصل يقول فيه :

« لم نزل نتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال [الله (٤)] من بدعتهم ، ونَقَضَ من عُرَى دولتهم ، وخَفَضَ من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام » .

(١) المتحدث هنا هو المؤلف ابن واصل ، لأن القاضى ابن بنت الاعز لم يكن معاصرا لصلاح الدين أول هذه المؤامرة ، إنما ولد سنة ٦١٤هـ وتوفى سنة ٦٦٥هـ . انظر أخبار هذا القاضى وترجمته فى : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، وفيات ٥٦٦هـ) .

(٢) هذا الدواء يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من تاريخه بعد سنة ٦٦٥هـ ، وهى السنة التى توفى فيها ابن بنت الاعز .

(٣) س : « القصة » .

(٤) ما بين الحاصرتين هن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) ، وقد أورد أبو شامة هناك فصولا من هذا الخطاب أطول بكثير مما أورده ابن واصل هنا .

ثم ذكر مكاتبتهم للفرنج وردد رسالهم إليهم (١).

فصل : « والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقاباً (٢). مؤلماً ، ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، وهؤلاء القوم لا يزيدهم العفو إلا ضراوة ولا الرأفة عليهم إلا قساوة (٣) ، فقبضنا على طائفة مفسدة ، وجاعة من هذا الجنس متعمدة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرابر المناققة ، فكلاً أخذ الله [تعالى] بذنبه ، فمنهم من أقرّ طائعاً [١٤٨] عند إحضاره ، ومنهم من أقرّ عند ضربه ولم يثم على إصراره ، فانكشفت لنا تقارير مختلفة في المراد ، متفقة في الفساد ؛ فمنهم من أقام رجلاً من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد ، واختاف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له ؛ وأما بنو رزبك وبنو شاور فكلّ منهم أراد الوزارة لينهم (٤) من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة » .

فصل : « وفي أثناء هذه المدة كتبوا سناناً (٥) صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصره ، واستدعوا منه من يقيم على الملوك غيلة ، ويثب عليه مكيدة وحيلة ، فقتل الله بسيف

(١) في الأصل : « إليه » وما هنا عن س (٥ ؛ ب) .

(٢) في الأصل : « عذاباً » ، وما هنا عن (الروضتين) : هذا والنص يختلف هنا أحياناً عما أورده أبو شامة في الروضتين ، لأن المؤلف هنا يختصر ، أما أبو شامة فيورد الفقرات التي ينقلها من نص الرسالة كاملة غير منقوصة .

(٣) س : « خسارة » .

(٤) س : « لينهم » وهو موافق لما في (الروضتين ، ج ١ ، س ٢٢١) .

(٥) هو راشد الدين سنان بن سلمان مقدم إسماعيلية الشام وكان يلقب بالشيخ أو شيخ الجبل ومعنى « الشيخ » هنا السيد أو الرئيس لا الرجل المسن . وقد عرفت هذه الفرقة « بالحشيشية » لأن أتباعها كانوا يتعاطون « الحشيش » . انظر : (محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٥٥ — ٦٠) و (Casanova : Les Derniers Fatimides. Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 3, P. P. 415-445.) .

الشرع المطهر جماعة من الفواة الغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لاثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار ، وشُنُقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التتبع لاتباعهم ، وشُرد طائفة الاسماعيلية ونُفوا ، ونودي أن يرحل طائفة كافة الأجناد وحاشية القصر ، وراجل (١) السودان إلى أقصى الصعيد ، وأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم ، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مها بقوا (٢) فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطاع عنها ، فإنه قبلة (٣) للضلالة منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة (٤) .

« ومما يطرف به المولى أن نثر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ، يسمى قديداً القفاص ، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في اللشام (٥) دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعاش فيها يحملون إليه جزءاً من كتبهم ، والنساء يبعثن إليه شطرا [وافيًا (٦)] من أموالهن ، ووُجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض عليه والهجوم إليه ، كتب مجردة (٧) ، فيها خلع العذار ، وصرح الكفر الذي ما عنه اندفاع واعتذار [١٤٩] [ورقاع (٨)]

(١) في الأصل : « ورحل » والتصحيح عن : س (١٤٦) و (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .

(٢) في الأصل : « بقوا » والتصحيح عن س والروضتين .

(٣) في الروضتين : « حباله » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) ؛ وقد حلق عليها أبو شامة بقوله : « ولعلها محجوبة » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ؛ وفي س (١٤٦) : « في البلد » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

(٧) هذا اللفظ ساقط من (س) .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

يُخاطب فيها بما تقشعر منه الجلود ؛ وكان ^(١) يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ^(٢) ؛ وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره ، وحق به مكره ، وصرعه كفره .

ذكر شيء من خبر عمارة وشعره

كان عمارة بن علي اليمنى من الشعراء الفحول المجيدين ، ولم يكن شيعياً ، وإنما كان قبيهاً على مذهب الإمام الشافعى — رحمه الله — وقتله وفاؤه وحسن عهده لمن أحسن إليه ، وقد ذكر مباينته لمذهب القوم من قصيدة [يقول ^(٣)] :

أفاعيلهم في الجودِ أفعالُ سنّةٍ وإنْ خالفوني في اعتقادِ التشيعِ

وذكر هو عن نفسه في كتاب صنفه ^(٤) : أنه أقام بزبيد ثلاث سنين ، يُقرأ عليه ^(٥) مذهب الشافعى ، قال : « ولى في الفرائض مصنف يقرأ باليمن » ، وذكر أنه قدم مكة بعد ذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، قال : « وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين الشريف هاشم بن قُلَيْبَةَ ^(٥) ، وولى ولده القاسم بن هاشم ، وألزمى السفارة عنه والرسالة منه إلى الديار المصرية ، فقدمتها فى شهر ربيع الأول

(١) هذه الجملة انفرد بها النص هنا ، ولا توجد فى (الروضتين) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س . ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن المستشرق « Derenbourg » قد ذيل كتاب (النكت المصرية) لهامة بمقتبسات عن عمارة وحياته وشعره نقلها عن المراجع التاريخية المختلفة ، ومن بين هذه المقتبسات صفحات من (مفرج الكروب) وينتهى فى نقله عن ابن واصل بهذا البيت من الشعر . انظر : (عمارة النكت المصرية ، ص ٦٠٧ — ٦٢٩)

(٣) الإشارة هنا إلى كتابه « النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية » .

(٤) النص فى (النكت ، ص ٢٣) : « وأقمت فى زبيد ثلاث سنين وجماعة من الطلبة يقرؤون عندى مذهب الشافعى والفرائض فى المواييت » .

(٥) حكم بين سنتي ١١٣٢ و ١١٥٤ م ، وحكم ابنه القاسم بين سنتي ١١٥٤ و ١١٦١ م .

انظر : (Gerald de Gaury : *Rulers of Mecca* PP. 62, 66) .

سنة خمسين وخمسمائة ، والخليفة بها يومئذ الفارز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح
طلّاع بن رزيك ، فلما حضرت لاسلام عليهما في قاعة الذهب (١) من قصر الخليفة
أنشدتهما [قصيدة أولها (٢)] :

الحمدُ لايسر بعد العزمِ والهَمِّ حمداً يقومُ بما أولت من النعمِ
لاأجحدُ الحقَّ ، عندى للركاب يدُ تمت اللّجُم فيها رتبة الخُطمِ
قرّبن بُعدَ مزارِ العزِّ من نظري حتى رأيتُ إمام العصر من أُمِّ
ورُحن من كعبة البطحاء والحرمِ (٣) وفداً إلى كعبة المعروف والكرمِ (٤)
فهل درى (٥) البيتُ أنى بعد فُرقته (٦) ما سرتُ عن (٧) حرمٍ إلا إلى حرمِ
حيث الخلافة مضروب (٨) سرادقها بين النقيضين من عفو (٩) ومن نقيمِ
وللإمامة أنوارٌ مقدسة تجلو البغيضين من ظلمٍ ومن ظلمِ

(١) قاعة الذهب ، ويقال لها أيضاً « قصر الذهب » ، ذكر (ابن تفرى بردى : النجوم
الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٣) أن الذى بناها هو الخليفة العزيز بالله ، وهى إحدى قاعات القصر
الشرقى الكبير ، وكان يدخل إليه من باب الذهب ومن باب البحر . وموضع هذه القاعة الآن
— تبماً لتحقيقات المرحوم محمد رمزى ، هامش ٢ من نفس الصفحة بالمرجع السابق — بمجموعة
المباني الواقعة خلف مدرسة النحاسين الأميرية التى بشارع بين القصرين بين شارع بيت القاضى
وحارة بيت القاضى فى الجزء الواقع خلف المدرسة المذكورة .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (النكت المصرية ، ص ٣٢)

(٣) س : « الحرمى » .

(٤) س : « المعروف بالكرم » .

(٥) فى الاصل : « وهل درا » ، وفى س : « فهكذا البيت » ، والتصحيح عن :
(النكت ، ص ٣٢) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥)

(٦) كذا فى الاصل وفى (النكت) ؛ ونفى (الروضتين) : « زورته » .

(٧) كذا فى الاصل ، وهى فى (النكت) و (الروضتين) : « من » .

(٨) فى س (٤٦ ب) : « مضرفى » .

(٩) فى الأصل : « غمر » وفى س : « عم » ، والتصحيح عن (النكت ، ص ٣٣)

(الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

[١٥٠] وللنبوة آياتٌ تنصُّ (١) لنا
وللمكارمِ أعلامٌ نُعلمنا
وللعلى أُنسٌ تُنني محامدها
ورايةُ الشرفِ البذخُ ترفعها
أقسمتُ بالفائزِ المعصومِ معتقداً
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهُما
اللابسُ الفخرُ لم تنسجْ غلائلهُ
وَجُودُهُ أَوْجَدَ الأيامِ ما اقترحتُ
قد مَلَكْتُهُ العوالى رِقَّ مملكةِ
أرى مقاماً (٥) عظيمَ الشأنِ أوْ هَمْنِي
يومٌ من العُمُرِ لم يَخْطُرْ على أُمْلِي
لَيْتَ الكواكبَ تدنو لى فأنظما
ترى الوزارَةَ فيه وهى باذلةُ
عواطفٍ عَلَّمْتُنَا (٦) أن بَيْنَهُمَا

على الخَفِيِّينَ (٢) من حُكْمٍ ومن حِكْمٍ
مَدَحَ الجَزِيلِينَ من بأسٍ ومن كَرَمٍ
على الحميدِ من فِعلٍ ومن شِمْ
يَدُ الرَفِيعِينَ من بَجْدٍ ومن هِمَمٍ
فَوَزَ النِجَاقَ ، وَأَجَرَ البرِّ في القَسَمِ
وَزِيرُهُ الصالحُ الفَرَّاجُ للغُفَمِ
إِلَّا يَدُ الصَّنَعِينَ (٣) السيفِ والقَلَمِ
وَجُودُهُ أَعْدَمَ الشاكينَ للعدَمِ
تَعَبِيرُ أَنْفِ الثَّرَيَّا عِزَّةَ (٤) الشَّمَمِ
فِي يَقْظَى أَنَّهَا من جُمْلَةِ الحُلَمِ
وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهِ رَغْبَةُ الْهَمَمِ
عَقُودَ مَدَحٍ ، فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي
عِنْدَ الْخِلَافَةِ نُصْحًا غَيْرَ مُتَهَمِ
قَرَابَةً من جَمِيلِ الرَّأْيِ لَا الرَّحِمِ

- (١) كذا في الأصل وفي س وفي (النكت) ؛ وفي الروضتين : « تفيء » .
(٢) كذا في الأصل ، وفي الروضتين والنكت ، وفي س : « الخفيين » .
(٣) في الأصل وفي الروضتين : « الصنعتين » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣)
(٤) في الأصل ، وفي الروضتين ، (ج ١ ، ص ٢٢٦) : « غرة » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣) .
(٥) في الأصل : « مقام » والتصحيح عن س (١٤٧) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) .
(٦) كذا في الأصل وفي (النكت) ؛ وهي في (س) و (الروضتين) : « أعلمتنا » .

خليفةٌ ووزيرٌ مدَّ عَظْمُها ظِلًّا على مَفْرِقِ الإسلامِ والأَمَمِ
زيادةُ النيلِ نَقْصٌ عندَ فَيْضِهما فما عسى تَتَعَاطَى مِنَّةَ الدَّيَمِ

قال : « وعهدى بالملك الصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا ، والأستاذون
والأمراء (١) يذهبون (٢) في الاستحسان كل مذهب ، ثم أفيضت على الخلع
من ثياب الخلافة مُذهبةً ، ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بمض الأستاذين (٣)
قد خرج من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحل المال معي
إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة (٤) رسوم لم تُطْلَقَ لأحد قبلي ، وتهادتنى
أمراء الدولة [١٥١] إلى منازلهم للولائم ، واستحضرني الصالح للمجالسة ، ونظمني
في سلك [أهل (٥)] المؤانسة ، واثالت على صلاته ، وغمرني بره ، ووجدتُ
بمحضرته من أعيان أهل الأدب : الشيخ الجليل أبا المعالي بن الحباب (٦) ، والموفق

(١) النص في (النكت ، ص ٣٤) : « وأعيان الأمراء والسكباء » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) كان كبار القواد من خواص الخليفة في العصر الفاطمي يسمون « بالأستاذين » ، يقول
صاحب (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧) : « وأجلهم المحنكون وم الذين يدورون عمائمهم
على أحناءهم كما تفعل العرب والفارسية ، وم أقربهم إليه ، وأخصهم به ، وكانت عدتهم تزيد
على ألف » .

(٤) ذكر (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨) أن هذه الدار كانت بحارة برجوان
وتعرف بدار الأستاذ برجوان ، وفيها كان يسكن ، ولما قدم بدر الجالى إلى مصر بنى هناك
دارا عظيمة سكنها ، ثم سكنها من بعده ابنه المظفر أبو محمد جعفر ، فمرفت بدار المظفر ، وبعد
موته اتخذت دار ضيافة يرسم الرسل الواردين من الملوك ، واستمرت كذلك إلى أن انقرضت
الدولة ، فأُنزل بها السلطان صلاح الدين أولاد الماضد . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٤٣ —
(٣٤٤)

(٥) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤)

(٦) هو القاضي الجليل أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى
التميمى ، سمى بالجليل لأنه كان جليس الخلفاء الفاطميين مقربا إليهم ، وهو من ذرية بنى الأغلب
التميمين أصحاب إفريقية ، تولى ديوان الانشاء بالاشتراك مع الموفق بن الحلال في عهد الخليفة
الفائر ووزارة الصالح طلائع بن رزك ، وذكر حمارة في (النكت ، ص ٥٩٥) أنه دخل =

أبا الحجاج يوسف بن الخلال [صاحب ديوان الإنشاء^(١)] ، والمهذب أبا محمد الحسن^(٢) بن الزبير ، وما من هذه الحلبة [أحد^(٣)] إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية^(٤) بأوفر نصيب ، وما زلت أأخذو على طرائقهم حتى نظموني^(٥) في سلك فرائدهم .

= اليمين . وتوفي سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته في : (المهاد : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٩ — ٢٠٠) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤١) و (ابن قلاؤس : الديوان ص ١٠٠ و ١١٥) و (ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٥٧٧ — ٥٧٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥١) و (ابن تغري بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ و ٣٧١) و (المسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٢١٥ — ٢١٨) .

(١) ما بين الحاصرتين (عن عمارة : النكت ، ص ٣٥) . والموفق أبو الحجاج يوسف ابن محمد بن الخلال كان آخر رؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وعليه تخرج القاضي الفاضل ثم خلفه على رئاسة هذا الديوان . وقد لبث ابن الخلال متوليا لديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن فلزم بيته ، وكان ذلك في عهد وزارة أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد . وتوفي ابن الخلال سنة ٥٦٦ هـ . انظر ترجمته وأخباره في : (المهاد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٧٥) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢١٩ — ٢٢٤) و (ابن المهاد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢١٩) و (المسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٤٤ — ٣٤٧) .

(٢) في الأصل : «الحسين» والتصحيح عن : س (٤٧ ب) و (المهاد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤) . وهو المهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير ، وقد كان هو وأخوه القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير من أشهر شعراء مصر في العصر الفاطمي . وموطنهما الأصلي أسوان ، وسافر كل منهما إلى اليمين . توفي سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته في : (المهاد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤ — ٢٢٥) و (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ٤٧) و (ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٨) و (الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٠٠) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٠٣ — ٢١٠) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) س : « . . على طريقهم حتى ينظموني » .

قال [عمارة] : وأنشدت الصالح وهو بالقبو^(١) من دار الوزارة قصيدة منها
[أقول^(٢)] .

دعوا كُلَّ بَرِّقٍ شَتْمُ غَيْرِ بَارِقٍ يلوحُ على الفُسْطَاطِ صَادِقُ بَشْرِهِ
وزوروا المقامَ^(٣) الصالحى فكلُّ مَنْ على الأرضِ يُنسى^(٤) ذِكْرُهُ عندَ ذِكْرِهِ
ولا تجعلوا مقصودَ كُمْ طَلَبَ الغنى فتجنُّوا^(٥) على مَجْدِ الزمانِ وَفَخْرِهِ
ولكن سلوا منه العلى^(٤) تظفروا بها فكل امرءٍ يُرجى^(٦) على قَدَرِ قَدْرِهِ

قال : ولما جلس شاور في دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولغيف الناس
إلا الأقل شاكون^(٧) من بنى رزيك ، وضرغام نائب الباب ، ويحيى بن الخياط^(٨)
اسفهلار^(٩) ، فأنشدته :

زالت ليالى بنى رُزَيْكٍ وانصرمت والحمدُ والذمُّ فيها غيرُ مُنْصَرَمٍ
كأنَّ صالحهمُ يَوْمًا وعادتهمُ فى صَدْرِ ذَا الدَّسْتِ لم يَقَعْدُ ولم يَقَمِ
كنا نَظُنُّ — وبعضُ الظنِّ مَأْمَةٌ — بأن ذلك جَمْعٌ غيرُ مُنْهَزَمٍ
فقد وَقَعَتْ وقوعَ النَّسْرِ^(١٠) خانهمُ مَنْ كان مجتمعا فى ذلك الرَّخَمِ

- (١) س : « بالقرب » وما هنا يتفق مع (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٣٥)
(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤) .
(٣) س (٤٧ ب) : « مقام » ، وما هنا يتفق ونس الروضتين و (النكت ، ص ٣٦)
(٤) فى الأصل : « ينسا » و « العلا » .
(٥) فى س : « يقصر » ، وفى الروضتين : « فتخبوا » ، وما هنا يتفق ونس النكت
(٦) س : « يجرى » وما هنا يتفق ونس (الروضتين) و (النكت ص ٣٦) .
(٧) كذا فى الاصل ، وفى (النكت ، ص ٦٩) : « يتالون » .
(٨) انظر ما فات ص ١٥٦ ، هامش ٢
(٩) انظر ما فات ص ٢ ، هامش ١
(١٠) س (٤٧ ب) : « الشر » . وما هنا يتفق ونس (الروضتين) و (النكت ، ص ٦٩)

ولم يكونوا عدوًّا ذلَّ جانبُه (١) وإنما غرقوا في سبيلك العزم
وما قصدتُ بتعظيمي عداك (٢) سوى تعظيم شأنك ، فاعذرني ولا تلم
ولو شكرتُ ليالهم محافظة لعمدها لم يكن بالهدى من قدم
ولو فتحتُ في يومًا بدمهم لم يرَضَ فضلك إلا أن يسدَّ في
والله يأمر (٣) بالإحسان عارفةً منه ، وينهى عن الفحشاء في الكلام
[١٥٢] قال : فشكرني شاور وأبذؤه على الوفاء لبني رزيك .

ذكر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين

كنا قد ذكرنا (٤) أن نور الدين — رحمه الله — سِرَّ موفق الدين خالد بن
القيسراني إلى صلاح الدين في معنى الحل إلى الشام ورفع (٥) أوراق بالأعمال المصرية ،
ولما وصل (٦) إلى صلاح الدين ، وأنهى (٧) إليه رسالة نور الدين أطلعه
[صلاح الدين] (٨) على أحوال البلد ، وقال (٩) : « هؤلاء الأجناد ، فأعرضهم وأمببت

(١) س : « جانبهم » وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٦٩) .

(٢) س : « عدك » وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) ، وفي (النكت ص ٧٠) : « سواك سوى » .

(٣) في الأصل ، وفي س : « ماسر » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) و (النكت ، ص ٧٠) .

(٤) أنظر ما فات هنا ، ص ٢٢٢

(٥) س (١٤٨) : « ووقع » .

(٦) س : « ورد » .

(٧) في الأصل ، وفي س : « أنها » بالألف .

(٨) ما بين الحاصرتين عن س .

(٩) ينقل ابن واصل هنا باختصار عن (البرق الشامي للعماد) أنظر نصه في : (الروضتين ،

ج ١ ، ص ٢١٩) وفي نفس المرجع والصفحة رواية أخرى لأبن أبي طي ، آثرنا نقلها هنا لأهميتها وللمقارنة ، وهي : « قال ابن أبي طي : وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين =

أخبارهم ، وما يُضبط مثلُ هذا الإقليم العظيم إلا بالمال العظيم ، ثم أنت تعرف مصر وعظماؤها ، وأنهم معتادون النعمة الواسعة ، وقد تصرفوا في أماكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن يُنقص من ارتفاعها « ؛ ثم أخذ [صلاح الدين] ^(١) في جمع مال يرفعه [إلى نور الدين] ^(١) ، وحصل خلال ذلك من الأموال ما لم يكن في خلدته . ثم اتفقت وفاة نور الدين — رحمه الله — فكان ما سذكركه إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين

ابن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله تعالى —

كنا ذكرنا أن نور الدين كان قد عزم على التجهز للدخول إلى الديار المصرية لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتوراً في قصد الفرنج من ناحيته ، ^(٢) وكان يعلم ^(٢) أنه إنما يتمتع صلاح الدين من الغزو للخوف منه والاجتماع به ، وأنه يؤثر

= المؤلف بن القيسرائي إلى الديار المصرية ، واجتمع بالسلطان الملك الناصر ، وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من الغل فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق المعصي ، لولا ما ثاب إليه من السكينة والعقل ، فأمر بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرائي ، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم ، وتعيين جامعياتهم ، ورواتب نفقاتهم ، فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين مع الفقيه عيسى . إلخ . ثم نقل ابن أبي طي بعد ذلك ثبوتا بمفردات هذه الهدية التي أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، ولهذا الثبوت أهميته لأن ابن أبي طي نقله كما ذكر من « خط المؤلف بن القيسرائي » ، ثم عقب عليه بقوله : « وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين ، لأنهم اتصل بهم وقاته ، فلما ما أعيد ، ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرائي وضعوا عليهم من نههم ، واستبدوا بأكثرها ، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان ، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ، فأنقذ من ردها ، قال : وحدثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره » : انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) مكان هذين اللفظين في س : « وذلك » — والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الاثير : السكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، ولاحظ أن المصدر الأول لأخبار النفرة بين نور الدين وصلاح الدين هو ابن الاثير ، وهو يكرر الفكرة ويؤكدها كلما سنحت له فرصة .

كون الفرنج^(١) في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين ، فأرسل نور الدين إلى الموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر وغيرها يطالب العساكر للفرقة ، وكان عزمه أن يترك^(٢) العساكر مع ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي — صاحب الموصل والشام^(٣) — ، ويسير هو بعسكره إلى مصر ، فعاقه القدر المحتوم عن قصده .

ولما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسة — أمر نور الدين — رحمه الله — بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل ، فاحتفل لهذا الأمر ، وزينت دمشق أياما ، وهنّاه كاتبه عماد الدين الأصفهاني بقصيدة أولها :

عيدان : فِطْرٌ وَطَهْرٌ فَتَحَ قَرِيبٌ وَنَصْرٌ
كلاهما لك فيه حقاً هناءاً^(٤) وأجرٌ
[١٥٣] نَجَلٌ عَلَى الطُّهْرِ نَامَ زَكَاهُ مِنْكَ نَجْرٌ^(٥)
محمودُ الملكُ العاد لُ الكَرِيمُ الأَعْرُ
وبابنه^(٦) الملكِ الصا لِحِ العيون^(٧) تَقَرُّ
مولى به اشتدَّ للدين والشريعة أزرُ
نورٌ نَجَلِيَّ^(٨) عياناً ما دونهُ اليومَ سِرُّ

- (١) صيغة س : « وأنه يؤثر الفرنج كونهم في الطريق » .
(٢) في الأصل : « ينزل » والنصحيج عن المرجع الذي ينقل عنه هنا حرفياً وهو (الكامل لابن الأثير) .
(٣) في الأصل : « بالشام » والنصحيج عن ابن الأثير .
(٤) في الأصل ، وفي س : « حق هناك » ، والنصحيج عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) .
(٥) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ وفي س : « لحر » .
(٦) س : « ونايه » .
(٧) في الأصل : « للعيون » وفي س : « به العيون » والنصحيج عن الروضتين .
(٨) في الأصل وفي س : « نجلا » .

أَضَعْتَ مَسَاعِيكَ غُرًّا كَمَا أَيْدِيكَ غُرُّرُ (١)
وَكُلُّ قَصْدِكَ رُشْدٌ وَكُلُّ فِعْلِكَ بَرٌّ
وَإِنَّ حُبَّكَ دِينٌ وَإِنْ بُغْضُكَ كُفْرٌ
لَنَا بِبَيْمَتِكَ يُبْنَى كَمَا يَبْنِي سِرُّكَ يُسْرُ
وَالْمَوَالِيْنَ نَفَعٌ وَالْمَعَادِيْنَ ضُرٌّ

[ومنها يقول] (٢) :

تَمَلَّ تَطْهِيرَ (٣) مَلِكٍ لَهُ الْمُلُوكُ تَجَرُّ (٤)
وَكَيْفَ يُعْمَلُ لِلطَّا هَرِ الْمُطَهَّرِ طَهْرٌ
يُزْهِى سِرِّهِ وَتَاجٌ بِهِ وَدَسْتُ وَصَدْرُ
هَذَا الطُّهُورُ ظُهُورٌ (٥) عَلَى الزَّمَانِ وَأَمْرُ
وَذَا الْخِلْقَانِ (٦) خِتَامٌ بِمَسِكَ طَابَ نَشْرُ
رُزِقْتَ عُمرًا طَوِيلًا مَا طَالَ لِلدَّهْرِ عُمرُ

وفي يوم العيد — وهو في يوم الأحد — ركب نور الدين على الرسم المعتاد إلى الميدان الأخضر الشمالى بدمشق لطمن (٧) الخلقى ، ورمى القَبَقَ (٨) ، وأمر فضربت

(١) في الأصل ، وفي س : « غر » ، وما هنا عن الروضتين .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وانظر القصيدة كاملة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧)

(٣) س : « بتطهير » .

(٤) س : « تجر » .

(٥) في الأصل : « ظهور » وفي س : « ظهوراً » والتصحيح عن الروضتين .

(٦) س : « الختام » .

(٧) في الأصل . وفي س (١٤٩) : « ليطمن » والتصحيح عن الروضتين ، وقد نقل صاحب

الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٧) خبر هذا اليوم عن المهاد الكاتب بأفاظه وجهه المسجوعة ، وابن واصل تختصر هنا نص المهاد .

(٨) القَبَق : أو القياق — لفظ تركى ، ومعناه لغة نبات القرعة العمالية (une courgette)

ومعناه اصطلاحاً الهدف الذى كان يستعمل فى اللعبة التى هرفت فى الشرق فى المصور الوسطى =

له خيمة في الميدان القبلى الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب القاضي شمس الدين ابن الفرائش ^(١) — قاضى العسكر — بعد أن صلى به ، ثم مدَّ السباط العام ، وأنهب على عادة الترك ، وعاد [نور الدين] إلى القلعة ، ومدَّ خوانه الخاص .

وفى غد هذا اليوم — وهو يوم الاثنين [١٥٤] ثانى شوال — ركب فى خواصه وأصحابه ، ودخل الميدان والأمير همام الدين مودود ^(٢) — وهو من أكبر أمرائه — يسايره ، فقال لنور الدين : « هل نكون هنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل ؟ » . فقال نور الدين : « قل هل نكون هنا بعد شهر ؟ فإن السنة بعيدة » فجرى على منطوقهما ^(٣) ما جرى به القدر السابق ، فإن نور الدين لم يصل إلى آخر الشهر ، ومام الدين لم يصل إلى آخر العام .

= بنفس الاسم — القبق — ، وكان طريقة لعب القبق كما وصفها (Dosy: Supp. Dict. Arab) أن ينصب صار طويل من خشب ، يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة الهدف ، ويكون فى القرعة طير حمام ، ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وم على ظهور الخيل ، فن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المدنية لنفسه ، غير أن (المقرزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٨٠) وصف هذه اللعبة وصفا يختلف عن الوصف السابق بعض الشيء ، ويبدو أن وصف المقرزى هو الذى يعنيه المتن هنا ، فنص المتن : « اطمن الحلق ، ورمى القبق » . والمقرزى يقول : « والقبق عبارة عن خشبة طالية جدا ، تنصب فى براح من الأرض ، ويمتلأ بأعلامها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسما وترى بالسهم جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمرينا لهم على إحكام الرمى ، ويمر عن هذا بالقبق فى لغة الترك » . ثم تحدث بعد ذلك فى نفس الجزء والصفحة عن الميدان الذى كان بالقاهرة فى العصر المملوكى لهذه اللعبة ، ويسمى « ميدان القبق » . انظر أيضا (المقرزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٨ ، حاشية رقم ٦ لـ دكتور زيادة) .

- (١) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى الروضتين نقلا عن الهاد : « ابن المقدم » .
(٢) عرف به صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) نقلا عن الهاد ، قال : « وكان قديما فى أول دولته (أى دولة نور الدين) والى حلب » .
(٣) س : « منطق » ، وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) وهو الصحيح كما يدك عليه المتن فيما يلى .

ثم شرع نور الدين باللبب بالسكرة مع خواصه ، فاعترضه يرتقش — أمير آخر — وقال له : « باش » ، فحصل عنده غيظ على خلاف عاداته في الكرم والحلم ، فزجر وزيره ، ثم ساق ودخل القلعة ، ولم يخرج منها إلا ميتاً ، وأصابته ^(١) علة الخوانيق ، فبقي أسبوعاً في منزله مشغولاً بالنازلة التي نزلت به ، والناس مشغولون بزينة الختان والفرح ، والبلد مزين لظهور الملك الصالح ، فما انتهت الأفراح إلا بحلول المصيبة به رحمه الله .

وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيباً فما رجع ؛ وحكى الطبيب جمال الدين الرحبي ^(٢) الدمشقي قال : « استمدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقاعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق به وقارب الهلاك ، فلا يكاد يُسمع صوته ، فقلت له : كان ينبغي أن لا يؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ؛ فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء ، وعظم الداء ، ومات عن قريب » .

قال عماد الدين القاتب ^(٣) : « كان لنور الدين — رحمه الله — صفة (٤)

(١) س (١٤٩) : « وكان سببه أنه أصابته . . الخ » .

(٢) هو جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي ، ولد ونشأ في دمشق ، وكان كما يذكر (ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٢٠١) : أوحد زمانه ، اشتغل بصناعة الطب على والده وعلى غيره ، وأتقنها إتقاناً لا منهيد عليه ، وخدم في البهارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين وبقى به سنين ، وكان يحب التجارة ويعانها ويسافر بها في بعض الأوقات إلى مصر ، وبأق من مصر بتجارة ، ولما وصلت التتر إلى الشام في سنة ٦٥٧ هـ توجه إلى مصر وأقام فيها ، ثم مرض وتوفي بالقاهرة في سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) روى هذا الخبر أيضاً عن العماد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) .

(٤) جاء في (اللسان) : صفة البنيان طرته ، ومن معانيها في (محيط المحيط) : المسطبة المرتفعة تستعمل للجلوس عليها ، وهذا هو المعنى المقصود هنا ، ومن هذا اللفظ أخذت الكلمة الانجليزية (sofa) فقد ذكرت المعاجم الانجليزية أنها من أصل عربي وأن معناها الأريكة أو المقعد الطويل ذي الظهر واليدبن (a long seat with stuffed bottom, back, and arms) . انظر أيضاً : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ، هامش ٢ و Twentieth Century Dictionary .

في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، وكان جلوسه على تلك الصفة في أكثر (١) الأوقات ، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب ، وهو بيت فيه [١٥٥] ويصبح ، ويخلو بعبادته ، فدفن في ذلك البيت الذي اتخذته حى من الحمام » ، وكانت وفاته يوم الأربعاء حادى عشر شوال من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة .

وكان صلاح الدين قد استشعر بقصد نور الدين له ، فحكي عنه القاضي بهاء الدين ابن سراء — قاضى حلب رحمه الله — قال : « كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن (٢) نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده (٢) إذا تحقق قصده ، وكنت أنا وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى ورد الخبر بوفاته — رحمه الله — .

قلتُ : ودفن نور الدين — رحمه الله — بالقلعة مدة ، ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها بدمشق ، ودفن بها (٣) ، وقبره بها معروف يزار .

صفته وسيرته — رحمه الله —

كان أسمر طويل [القامة (٤)] ليس له حمية إلا في حنكه (٥) ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو المينين .

- (١) س : « جميع الأوقات » ، والروضتين : « جميع الأحوال » .
 (٢) الأصل : « نكاشف ونخالف ويشق عصاه ويلقى عسكره بمصاف يرده » ، والتصحيح عن (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧) .
 (٣) هذان اللفظان ساقطان من س .
 (٤) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وهذا الوصف منقول عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، وعنه نقل أيضا صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩) .
 (٥) س : « الإقليل شعرات في ذقنه » ، وما هنا يتفق مع الأصل المنقول عنه ، وهو ابن الأثير ، كما أنه يتفق أيضا ونص الروضتين .

وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسة ، فكان عمره قريباً من ثمان وخمسين سنة .

وأما سيرته — رحمه الله — في عده وزهده ^(١) ، وخوفه من الله تعالى ، وجهاده لعدو الدين ، وصدقاته ومعروفه وإحسانه ، وابتغائه لثواب الله تعالى ولدار الآخرة ، فهو أشهر من أن يذكر ، فإنني لا أعلم ملكاً بعد الخلفاء الراشدين اجتمع فيه من الصفات الجميلة مثل ما اجتمع فيه — رحمه الله — ؛ ولنذكر ما نقل إلينا من أخباره مما يستدل به على ما ذكرناه ، وإن كان قد بلغ في الوضوح والشهرة إلى حد التواتر .

وأما زهده فالمشهور عنه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرسدة لصالح المسلمين ، يُحضر الفقهاء ويستفتيهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك ، فيأخذ ما يفتونه بحله ، ولا يتعداه إلى غيره ، ولم يلبس حريراً ولا ذهباً ولا فضة ، ومنع من شرب الخمر في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلد ما ، وكان يحد ^(٢) [١٥٦] شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

وحدث شخص كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين — وكان وزيرها — ، قال : « ^(٣) كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو ، تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة

(١) في الأصل : « ورفده » وما هنا عن س (٤٩ ب) .

(٢) س : « يجلد » .

(٣) هذه الأخبار عن نور الدين وسيرته منقولة عن : (الروضتين ، ص ٦ وما بعدها) . انظر أيضاً : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١ — ١٥٢) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٧ وما بعدها) .

كتاب آناه ، ويجيب عنه ، ويصلى ويطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر الركوب ويشغل بمهام الدولة ، قال : فإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له تنكر واحمر وجهه ثم إنه قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها ما لها (١) ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، وإن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هو لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازن (٢) عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة (٣) دكاكين ملوكا (٤) قد وهبتها إياها ، فلتأخذها ، وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان (٥) له صديق بالجزيرة من الصالحين ، وكان نور الدين يكتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : « ما كنت أظنك تلهو وتلاعب وتعدب الخيل لغير فائدة دينية » فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : « والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنما نحن في ثغر ، والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً ، إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مراتبها صارت جماماً لا قدرة لها على إيمان

(١) في الأصل : « ما يكفيها » والتصحيح من س بدد مراجعة الروضتين .

(٢) كذا في الأصل ، وفي س (٥٠ ب) وفي الروضتين : « خازنهم » .

(٣) في الأصل : « ستة » ، والتصحيح عن س ، و (الروضتين ، ص ٦) و (امرأة الزمان ، ص ٣٠٧) .

(٤) في الأصل ، وفي س : « ملك » والتصحيح عن الروضتين .

(٥) قبل هذا الخبر في س : « وقال أيضاً هذا الشخص ، وكان رضيع زوجة نور الدين ووزيرها » ، مما يفيد أنه ينقل هذا الخبر عن رضيع زوجة نور الدين ، أما صاحب الروضتين فيرويه منسوباً إلى ابن الأثير وإليهما مع اختلاف يسير في النص .

السير في الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروّضها بهذا اللعب ، فيذهب عنها جامها ، وتعود [١٥٧] سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

وحمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده ، فوصفت له ، فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه في حديثها إذ قد جاءه رجل صوفى ، فأمر بها له ، فقيل له : « إنها لا تصالح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها كان أنفع له ^(١) » ، فقال : أعطوها له ، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد ، فأباعها بستمئة دينار مصرية ^(٢) ، أو سبعمائة دينار ^(٣) .

وأما ^(٤) عدله فذكر أنه كان بدمشق ياحب بالكرة فرأى إنسانا يحدث آخر ويشير بيده ^(٥) إليه ، فأرسل إليه وسأله عن حاله ، فقال : « لى مع الملك العادل حكومة ، هذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكنى على الملك الفلانى » ،

(١) كذا في الاصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « كان أصوب » .

(٢) كذا في الاصل ، وفي س ؛ وفي الروضتين : « أميرى » .

(٣) وقد عقب صاحب الروضتين (ص ٦) على هذا الخبر بقوله : « قلت : قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن المظلي إياها ، قال أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح ابن حموية بنير طلب ولا رغبة ، فبعثها إلى همدان فبيعت بألف دينار » . انظر أيضاً : (مرآة الزمان ، ص ٣٠٨) .

(٤) روى صاحب الروضتين (ص ٧) هذا الخبر وغيره منسوباً إلى ابن الأثير ، وقد رجعنا إلى تاريخه الكامل فلم نجد هذه الأخبار به ، والرجح أنها نقلت عن كتاب آخر لابن الأثير عن نور الدين ودولته عنوانه « الباهر » فقد قال ابن الأثير عند ترجمته لنور الدين في الكامل : « وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر محراباً منه للمدح ، وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب (الباهر) من أخبار دولتهم ، ولذكركها هنا نبذة لمن يقف هايتها من له حكم فيقتدى به . . . إلخ » . والذي أرجحه أن (الباهر) عنوان آخر لكتاب ابن الأثير المعروف « تاريخ أتابكة الموصل » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي س « به » ، والتصحيح عن (الروضتين) .

فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل ، وكنمه ذلك الأمر ، فلم يقبل منه [نور الدين] غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان (١) من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وهو إذ ذاك كمال الدين بن الشهرزورى ، وأرسل [نور الدين] إلى القاضي يقول له : « إني قد جئت محاكما ، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري » ، فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن معه : « هل ثبت له عندي حق ؟ » . فقلوا : « لا » ، قال : « اشهدوا أني قد أوهبته هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته ، فحين ظهر أن الحق لي وهبته له » .

وذكر (٢) أنه دخل يوماً إلى خزانة بيت المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا ، فقال : « إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء » ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ، فردّه إلى الخزانة ، وقال : « إذا سألك الملك العادل عنه فقل (٣) له عني إنه له » ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى ، فرآه ، فأنكره على الدواب (٤) ، وقال : « ألم أقل

(١) الجوكان كلمة فارسية معناها المحجن أو الدما أو الصولجان الذي تضرب به السكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم «السكرة والصوالة» والتي تعرف الآن باسم «البولو Polo» ؛ وكانت الجوكان مهي مدھونة طولها نحو من أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطية مقوفة تزيد نصف ذراع . وكان حامل الجوكان لسلطان يسمى «الجوكندار» . أنظر : (أحمد تيمور باشا : لعب العرب ، ص ٥٥) و (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) و (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، هامش ١) و (Dozy : Supp. Dict. Arab) .
(٢) هذا الخبر بروية أبو شامة في (الروضتين ، ص ٧) أيضا عن ابن الأثير ، ولا وجود له في السكامل .

(٣) في الأصل : « فقول » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « على متولى الخزانة » .

لكم إن المال [١٥٨] يعاد إلى أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فردّه إليه ، وقال للرسول : « قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا ، وأما أنا فربقتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يُماد ، قولاً واحداً » . فأعاده (١) .

ونور الدين — رحمه الله — أول من بنى دار الكشف ، وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، وأقام [بها] (٢) أمراؤه — وفيهم أسد الدين شيركوه بن شاذي ، وكان قد عظم شأنه حتى صار كأنه شريك له في الملك — ، فاقتنوا الأملاك ، وأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين ، فأ نصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم (٣) على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم ، وقال : « اعلّموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا من هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لاصلبته ، فامضوا إلى من كان بينكم وبينه منازعة في ملك (٤) ، فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما أملك » ، فقالوا له : « إن الناس إذا علموا بهذا اشتطوا في الطلب » ، فقال : « خروج أملاكي عن يدي أسهل عليّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم ، ويساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة » ، فخرج أصحابه من عنده وفأوا ما أمرهم ، وأرضوا خصائهم ، وأشهدوا عليهم .

(١) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س (٥١ ب) : « فأطاده إلى القاضي ، فردّه القاضي على من أخذ منه » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (الروضتين ، ج ١ ، س ٨) ، وقد ذكر صاحب الروضتين أنه نقل هذا الخبر عن ابن الأثير .

(٣) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « يقدر » .

(٤) في الأصل : « ذلك » وما هنا صيغة س (٥١ ب) ، والروضتين .

فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل [الحكومات و] (١)
الخصومات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين (٢) وعند القاضي والفقهاء ، وبقى كذلك
مدة فلم يحضر أحد يشكو من أسد الدين ، (٣) فقال نور الدين لسكّال الدين : « مالى
لا أرى أحداً يشكو من شيركوه ؟ » فعرفه الحال (٣) ، فسجد شكراً لله تعالى ، وقال :
« الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا » .

وحكى (٤) معين الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن القيسرانى ، قال :
« انكسر على ضامن (٥) دار الزكاة [١٥٩] مال جم ، وكان الضامن المذكور يُعرف
بأبن شمام (٦) المحالى ، فحبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما مبلغه ثمانية آلاف
دينار صورية (٧) ، وحمله إلى الخزانة ، وبقى فى الحبس مطالباً بما بقى عليه .

(١) فى الأصل : « لفصل الخصومات » ، وفى الروضتين « لفصل الحكومات » وما هنا صيغة تن.
(٢) النص فى : (صبط ابن الجوزى : سرة الزمان ، ج ٨ ، ق ١) : « فكان نور الدين
يقعد فى دار العدل فى كل أسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر
بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والمعجوز السكينة ، ويسأل الفقهاء
عما أشكل عليه » .

(٣) ما بين الرقبن ساقط من س ، وإيما اختصره بقوله : « فلم الحاك ، فسجد
شكراً . . . الخ » .

(٤) أوجز صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١١) هذه القصة فى كلمات قليلة جداً ، قال :
« ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى الشاعر فى منامه أنه يفصل ثيابه ، وقص ذلك عليه
ففكر ساعة ، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس ، وقال : هذا تفسير منامك » . وهذا مثل
يحمل لمفرج الكروب مكانة خاصة لما يرويه من أخبار مفصلة عن سراج سابق لم نصلنا ، وقد
أهملت المراجع المطبوعة ذكر هذه الأخبار أو نقلتها باختصار لا يفيد الباحث كثيراً .

(٥) انظر التعريف بوظيفة الضامن فى : (ابن ممانى : قوانين الدواوين ، طبعة الوطن ،
ص ١٠) .

(٦) فى س : (١٠٥٢) « ممام » .

(٧) لعل المقصود بالدينار الصورية : الدينار الصورية ، وقد عرفها (القلقشندى : صبح
الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٧) بأنها دنانير يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم ، وهى دنانير
مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تعرب فى زمنه ، وعلى الوجه الآخر صور تباطرس
وبولس الحواريين ، ويمبر عنها أيضاً : بالافرنجية — جمع إفرنقى — ، وربما قيل « إفرنجة » .

قال [معين الدين] (١) : وكان جدى خالد بن محمد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية ، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها ، وكتابة الإنشاء ، وإمرة مجلسه (٢) ، وهو المشير والوزير ، والأمور كلها عائدة إليه ، فاتفق أنه حضر بين يدي نور الدين — رحمه الله — يوما بدمشق ، وقال : يا مولانا ، رأيت البارحة فى نومي كأن المولى قد نزع ثيابه ودفنها إلى ، وقال : اغسلها ، فأخذتها وغسلتها ، قال : فأطرق (٣) طويلا ، ولم يرفع رأسه إليّ ، فندمت على ما قلت ، وخفت أن يكون قد تطير منى ، وتوهم من منامى ، فخرجت من بين يديه وأنا كئيب ضيق الصدر ، فبقيت بعد ذلك ثمانية أيام لا يطلبني ولا يسأل عني ، فساء [عند ذلك] (٤) ظني ، وفرح من كان يحسدني ، وظن العدو أنه قد ظفري ، فدخل على نور الدين رجل من خواصه يعرف بالشيخ إسماعيل المكبس (٥) ، وكان نور الدين يحبه ويقربه كثيرا ، فقال : يا مولانا ، قد حضر من زاد في دار الزكاة خمسة آلاف دينار في السنة ، فأنهره ، وقال : قد أصبحت على سجاتي بعد أداء فريضتي أذكر الله تعالى ، واستفتحت أنت النهار تبشرني بزيادة مكس ، فوجم الشيخ إسماعيل وبقي ساكنا ، ثم قال : اطلبوا لي خالدا ، قال : فحضرت لديه (٦) ، فالتفت إليّ متبسما ، وقال لي : قد تفسر منامك ، فقلت بخير إن شاء الله ، فقال [هو خير] (٧) لا تظن تركي لك وعدم استحضاري إياك في هذه الأيام لموجدة عليك أو لوهم حصل عندي من منامك ، بل كنت مفكراً في المنام حتى فتح الله سبحانه وتعالى عليّ بتأويله ، اعلم أن غسل

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) في س : « وأمره مجلس نور الدين نافذ » .

(٣) س : « فأطرق نور الدين ساعة لما سمع هذا المنام ساعة طويلة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥٢) .

(٥) في س : « المكبس » .

(٦) في س (٥٢ ب) : « فحضرت بين يديه وأنا خائفا » .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (١٥٢) .

التياب غسل أوساخ الذنوب ، ولا ذنب أوسخ ^(١) من تناول أموال المكوس ، فلا تترك من يومنا هذا في بلد من بلادى مكساً ولا درهماً تلم أنه يؤخذ بغير حق إلا أسقطته ، واكتب بذلك توابع تكون مخلدة في البلاد المذكورة ، والتفت إلى الشيخ إسماعيل وقال له : مر أطلق ابن شمام المحالى من محبسه ، ومر ^(٢) بإعادة كل ما أخذ منه إليه واسترجاع أملاكه ، [ففعل ذلك ^(٣)] ولما عرف ابن شمام المحالى بذلك [١٦٠] اقترح بأن يجعل الذهب الذى أخذ منه في أطباق ويؤف بالطبول والبوقات والمغنيين في الأسواق ، ليعلم الناس كلهم ذلك ، وقيل ذلك لنور الدين فأجابه إلى ملقمسه ، وأن يخلع عليه ، فلبس الخلعة ، وزف المال بين يديه على ما اقترح .

قال معين الدين : وكتب جدى خالد بذلك توابع ، وجعلها إلى البلاد ، ونسخها كلها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله فاتح أبواب الخيرات بعد إغلاقها ، وناهج سبل النجاة لطلابها وطرائقها ، وفارج الكربات بعد ارتاجها ^(٤) وإطباقها ، الذى منح أوليائه التوفيق وأوضح لهم دليله ، ونصر أهل الحق وأعان قبيله ، نحمده على جزيل مواهبه وجليل رغائبه ، وبالغ هدايته وسابغ وقايته ، ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد الذى أوضح الطرائق ، وفرج المضايق ، وأنجب ^(٥) المحجة ، وأوجب الحجة ، وخفف الله بيعته كل إصر ، وجعل أمته خير أمة وعصره خير عصر ، وعلى آله الأكرمين ما أسفر بدر وأنار فجر .

(١) س : « أقبح » .

(٢) س : « وأمر » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) في الأصل : « ارتجاجها » ، وما هنا صيغة س .

(٥) س : « وأوضح » .

وبعد ، فقد اتضح على الأفهام ، وصح عند الخالص والعام ، ما نفاديه وزاوجه ،
ونماسيه ونصايجه ، ونشغل به عامة أوقاتنا ، ونعمل فيه رويتنا وأفكارنا ،
ونستقذ بالاهتمام به ساعاتنا ولحظاتنا من الاجتهاد في إحياء سنة حسنة (١) ، يكون
لنا أجرها وأجر من عمل بها ، وإمارة سنة سيئة نخلص من عظيم وزرها ووخيم
خزيها ، وإزالة مظلمة مظلمة وظلمة جور أساسها ، ومحو سيرة مؤلمة أبرم الحيف
أمر اسمها ، ليعم الرعايا لباس (٢) الفضل والامتنان ، ويفيض على البرايا سجال العدل
والإحسان ، ليصبحوا من حياض الأمن دارعين (٣) ، وفي رياض الدعة وادعين ،
لا يجدون للنعم عندهم تبديلا ولا تغييرا ، ولا يروون لصافي شربهم تصريداً ولا تكديرا
ولا يظلمون فقيرا ، فما يسفر صبح ، ولا يمتكر جنح ، إلا والله علينا نعمة لا نستطيع
الإحاطة بشكرها ، ولا نطيق قدرها لحق قدرها ، فيما يوفقنا له من فعل الخيرات ،
ويلهمنا إياه من إزالة المنكرات ، ويهدينا إليه من الأعمال الصالحات ، وينقذنا به من
الموارد المهلكات ، ويوضحه لنا من الطريق إلى رضاه (٤) ، ويبعثنا (٥) به على الجد
في عبادته [١٦٩] وتقاه ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا
أن هدانا الله .

وقد علمتم معاشر الرعايا — وفقكم الله ورعاكم — ما كان مرتبا من المظالم
المجحفة بأحوالكم ، والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقية عليكم في
أرزاقكم ، والمؤن التي (٦) تساهمكم في منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) س : « بالناس » .

(٣) س : « دارعين » .

(٤) س : « لنا إلى طريق ضارة » .

(٥) س : « ويبعثنا به على عبادته ونعماء » .

(٦) س : (٥٣ ب) : « الذي » .

إلى أن فوّض الله عز وجل إلينا تدبير أموالكم^(١) ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً ، ولم نبتغ في إقراره على وجوهه شبهة ولا تأولاً^(٢) ، وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، وأضفنا ذلك إلى ما كنا أسقطناه أولاً^(٣) ، رأفة بكم ولطفاً ، وتخففاً عليكم وعطفاً ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، وسندكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولاً وآخراً^(٤) من سائر أعمال ولايتنا — عمرها الله — في هذا السجل من الديوان .

قال : ثم كتب بقلم دقيق ما صورته :

« ذكر ما أطلق من الرسوم والمؤن والمكوس والضرائب في سائر أعمال الولاية المحروسة — عمرها الله — شاميها وجزيرتها في تواريخ متقدمة^(٥) وفي تاريخ هذا السجل ، ورسم إطلاق ذلك كله ، وتعفيه آثاره ، وإخضاع ناره .

ومبلغ ما يحصل من ذلك كل سنة : خمسمائة ألف وستة وثمانون ألفاً وأربعمائة وسبعون ديناراً نقداً ، الشام ، فمن ذلك :

دمشق — بتواريخ متقدمة [ما هي في هذا الإطلاق^(٦)] : مائتا ألف ، وعشرون ألفاً ، وخمسمائة وثلاثة وثمانون ديناراً .

دمشق — في تاريخ هذا الكتاب — : خمسون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثون ديناراً .

(١) س : « أموركم » .

(٢) في الأصل : « تأولاً » وما هنا عن س .

(٣) لهذا السجل أهمية بالغة إذ لم أجده في المراجع الماصرة الأخرى ، وقد تضمن بياناً تفصيلياً هاماً بالمكوس التي أسقطها نور الدين في سنوات حكمه المختلفة ، وقد وردت في الروضتين إشارات متعددة لحركة إسقاط المكوس سنة بعد أخرى في عهد نور الدين ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٠ ، ١٠٥ ، ١٦٠) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٥٣ ب) .

تَدْمُرُ : (١) خمسمائة دينار .

صَرَّخُد : سبعمائة وخمسون ديناراً .

الْقَرِيَتَانِ (٢) والسُّخْنَةُ : خمسمائة دينار .

بَانِيَّاس : ألف ومائتا دينار .

بَعْلَبُكْ وَأَعْمَالُهَا : ستة آلاف وتسعمائة (٣) وعشرون ديناراً .

حَمَص وَأَعْمَالُهَا : ستة وعشرون ألفاً وأربعمائة وعشرون ديناراً .

حِمْيَا وَأَعْمَالُهَا : ستة وعشرون ألفاً ، واثنتان وتسعون (٤) ديناراً .

حَلَب وَأَعْمَالُهَا : ستة وتسعون ألفاً ، ومائة (٥) وستة وثمانون ديناراً (٦) .

سَرَمِين (٧) : ألفان ، وثلاثمائة وستون ديناراً (٨) .

مَعْرَةَ النِّعْمَان : سبعة آلاف دينار .

[١٦٢] كَفَر طَاب (٨) : ألفا دينار .

(١) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها مدينة قديمة مشهورة في بركة الشام بينها وبين حلب خمسة أيام .

(٢) قال (ياقوت) هي قرية كبيرة من أعمال حمص في طرف البرية ، بينها وبين سحنة وأرك ، وبينها وبين تدمر مرحلتان .

(٣) س : « سبعمائة » .

(٤) س : « وسبعون » .

(٥) س : « ومايق » .

(٦) في الأصل : « دينار » .

(٧) هكذا ضبطها (ياقوت) ولم يعرفها بأكثر من قوله : هي بلدة مشهورة من أعمال حلب .

(٨) بلدة بين الحمرة ومدينة حلب (ياقوت) .

- عَزَّاز^(١) : ستة آلاف ، وخمسمائة دينار .
- تل باشر^(٢) : ألف وخمسمائة دينار .
- عين تاب : تسعة وثمانون دينار .
- بَالِس^(٣) : أربعة آلاف دينار .
- مَنْبِج^(٤) وأعمالها : ثمانية عشر ألفاً ، وخمسمائة وستة وستون ديناراً^(٥) .
- بُرَاعَة^(٦) والباب : ثلاثة آلاف دينار .
- قلعة نَجْم^(٧) : ثلاثمائة دينار .
- قلعة جَعْبَر^(٨) : سبعة آلاف ، ومستمائة وستة وتسعون^(٩) ديناراً .
- الرقّة : ستة وعشرون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثة وستون ديناراً .
- الرُّها : ثمانية آلاف ، وخمسمائة دينار .

(١) انظر مافات هنا ، ص ٤٠ ، هامش ٢

(٢) انظر مافات هنا ، ص ٤٣ ، هامش ١

(٣) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : « هي بلدة بالشام بين حلب والرقّة ، كانت على ضفة الفرات الغربية ، فلم يزل الفرات يشقّ عنها قليلاً قليلاً حتى صار بينهما في أيامنا هذه أربعة أميال » .

(٤) انظر مافات هنا ، ص ١٥٣ ، هامش ٢

(٥) في الأصل : « دينار » .

(٦) انظر مافات هنا ص ١٥٥ ، هامش ١

(٧) عرفها (ياقوت) بأنها قلعة حصينة مظلة على الفرات على جبل تحتها ربض حامر ، وعندها جسر يعبر عليه ، وهي المعروفة بجسر منبج ، ويمر على هذا الجسر القوافل من حران إلى الشام وبينها وبين منبج أربعة فراسخ .

(٨) انظر مافات هنا ، ص ١٧ ، هامش ٥

(٩) س : (١٥٤) : « وسبعون » .

حَرَّان : ستة عشر ^(١) ألف ، وستائة واحد وسبعون ديناراً .

سِنْجَار ^(٢) : سبعة آلاف ، وثمانية دنانير .

المَوْصِل وأعمالها : ثمانية وثلاثون ألفاً ، ومائة وستة وأربعون ^(٣) ديناراً .

نصيبين : عشرة آلاف ، وأربعمائة وستة ^(٤) وثمانون ديناراً .

عَرَبَان ^(٥) : خمسة آلاف وسبعمائة دينار .

بُطْنان ^(٦) — من أعمال الخابور ^(٧) — : مائتان وخمسون ديناراً .

تَبْنين ^(٨) والارسل ^(٩) : سبعمائة وخمسون ديناراً .

السَّمْسَمَانِيَّة ^(٩) — من أعمال الخابور — : ألف دينار .

(١) س : « ستة آلاف » .

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ١

(٣) س : « الموصل وأعمالها : ثلاثون ألف دينار ، وستة وأربعون ديناراً » .

(٤) س : « وأربعمائة وثمانون دينار » .

(٥) في الأصل : « عربان » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث عرفها بأنها بلدة بالخابور من أرض الجزيرة .

(٦) في الأصل : « بطانات » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث قال إنه اسم واد بين منبج وحلب وبينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة ، قصبتها بزاعة .

(٧) الخابور كما ورد في (ياقوت : معجم البلدان) اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبلدان حجة غالب عليها اسمها ، فنسبت إليه ، من بلاد : قرقيسيا ، وماكسين ، والمجدك ، وعربان .

(٨) في الأصل : « تبنين » ؛ والتصحيح عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بلدة في جبال بني حاصر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٩) كذا في الأصل ، ولم أجد لها ذكراً عند ياقوت .

- قَرَقِيسِيَاء ^(١) : ألفا دينار .
 السُّكَيْر ^(٢) : مائتا دينار .
 ما كَسِين ^(٣) : خمسة آلاف دينار .
 المِجْدَل ^(٤) : ثلاثة آلاف وخمسة دنانير .
 الحَصِين ^(٥) — بالخابور — : ستمائة وخمسة وثلاثون ديناراً .
 الجَحْشِيَّة ^(٦) — بالخابور — : مائة ^(٧) دينار .
 الحَوْلِيَّة ^(٨) — بالخابور — : مائة وثلاثة وستون ديناراً .
 الرَّحْبَةُ ^(٩) : ستة عشر ألفاً ، وسبعمائة ^(١٠) وأربعون ديناراً .
 [وغير ذلك ما عيناه خوفاً من الإطالة ^(١١)] .

- (١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت) حيث ذكر أنها بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك ابن طوق على ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور في الفرات ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات .
 (٢) اسمها عند (ياقوت : معجم البلدان) : « سكير العباس » ، وهي بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق .
 (٣) أنظر ما فات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ٢
 (٤) أنظر الصفحة السابقة ، هامش ٧
 (٥) هكذا ضبطها (ياقوت) : وقال إنها بليدة على نهر الخابور ، ولم يزد .
 (٦) هكذا ضبطها (ياقوت) وقال إنها قرية كبيرة كالمدينة من قرى الخابور ، بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال .
 (٧) س : « مايتا » .
 (٨) كذا في الأصل ، ولم يذكرها (ياقوت) .
 (٩) ذكر (ياقوت) أن هذا اللفظ يطلق على أكثر من مكان ذكرها جميعا في معجمه ، ويتضح من وصفه أن الرحبة المذكورة هنا هي رحبة مالك بن طوق ، وقد حدد موقعها بقوله : بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخا ، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، أسفل من قرقيسيا .
 (١٠) س : « وتسعمائة » .
 (١١) ما بين الحاصرتين عن : س (٣٥٤)

ثم كتب بعد ذلك بالقلم الجافى :

« تحقيقاً للحق ، وتحقيقاً للباطل ، ونشراً للعدل ، وتقديماً للصالح الشامل ، وإيثاراً للنواب الآجل على الخطام العاجل ، وتأميلاً لحسن الخلف من الله الكافى الكامل ، وتخليصاً للذمة من درك المظالم ، وتنزيهاً للنفس من درن المآثم ، واستغناء من تحمل الأوزار ، واستغناء بما أولاه الله من سابغ المدرار ^(١) ، وشكراً لما أولاه من الفضل الجسيم والمنح العميم ، وهداية إلى الصراط المستقيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فاعلموا راعاكم الله ما أمرناه ، واسكنوا إلى ما قرّرناه ، واشكروا الله على ما سئله وسئل ، وأجزله من فضله وأسناه ، [١٦٣] وأيقنوا أن ذلك [الإنعام] ^(٢) العام مستمر على الدهور ، وبقى إلى يوم النشور ، « وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ^(٣) » ، وسبيل كل واقف على هذا المثال من الولاة والنواب والأصحاب والأعمال ^(٤) والعمال — أعزّهم الله — حذف ذلك كله ، وتمنّية رسومه ، ونحو آثاره ، ودخض أوزاره ، وإزالة أوضاره ، وصون جمال الدولة عن شين عاره ، وإطلاقه على الإطلاق من غير تبديل يحل عقده ، ولا فسخ يكدر ورده ، « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ^(٥) » .

والتوقيع الأعلى : « حُجَّةٌ لِمُضْمُونِهِ وَمُقْتَضَاهُ ، وَلِيُمَثِّلَ الْأَمْرُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) س (٥٤ ب) : « سابغ الادرار والمدرار » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) السورة ٣٤ (سبأ) ، الآية ١٥ (ك) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) السورة ٢ (البقرة) ، الآية ١٨١ (م) .

وكتب بالمشافهة الكريمة — شرفها الله تعالى — في مستهل شهر الله الاحب ،
رجب سنة سبع وستين وخمسة .

قال معين الدين — رحمه الله — : « وكل بلد من البلاد المذكورة فُصلَّ
في التوقيع جهات ما أطلق من مكوسه (١) ، ولكنني اقتصر على ذكر الجبل
طلباً للاختصار » .

وأما (٢) شجاعته وبسالته : فكان من أقوى الناس بدناً وقلباً ورأياً ومكيدة ،
وذكر أنه لم يُرَ على ظهر فرس أشد منه ، كأما خلق عليه ، لا يتحرك
ولا يتزلزل ، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة ، يجرى الفرس ويتناولها بيده
في الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجوكان (٣) فيها ، بل تكون
في كم قبائه (٤) ، استهانة باللعب ، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتره كَشَيْنَ (٥)

(١) حبذا لو كان معين الدين هذا قد أورد تفاصيل المكوس التي أُلغيت ولم يكتف بالجل ،
فانه كان يقدم للباحثين وثيقة من أندر وأقيم الوثائق لدراسة هذا النوع من الضرائب في الشام
قبل عصر نور الدين .

(٢) وردت أخبار شجاعته أيضا في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ وما بعدها) مع اختلاف
يسير ، تقديم أو تأخير ، إيجازا أو إطنا ؛ وفي (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ،
ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣) أنظر ما فات ص ٢٦٧ ، هامش ١

(٤) جاء في (محيط المحيط) أن القباء ثوب يلبس فوق الثياب ، وقيل يلبس فوق القميص ،
ويتمنطق عليه ، جمه أقبية ؛ والقباء المقدار ، وقد كان نخر الدين بن شيخ الشيوخ — أحد
كبار رجال الدولة في عهد المملوكين الكامل والصالح الأيوبيين — أول من ترك لبس العمامة
ولبس الشربوش والقباء . انظر أيضا : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦١)
و (المقرئى : نحل عبر النحل ، نشر الشياخ ، ص ٨٥ هامش ٥) .

(٥) كذا في الأصل ، وهي في س (١٥٥) : « تركاشين » ، والرمضان صحيحان :
« تَرَكَش » و « تركاش » ، والجمع « تراكيش » . والتركش لفظ فارسي معناه الجمبة أو
الكنانة التي توضع فيها الشباب أو القى . انظر (Dozy : Supp. Dict. Arab) و (المقرئى :
السلوك ، تعليقات الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ٣٧١) . ويقال أيضا « جنود متركشة »
أى يحملون جمبات النشاب .

يباشر القتال بنفسه ، فكان يقول : « طالما تعرّضتُ للشهادة فلم أدركها » ، ومعه الفقيه قطب الدين النيسابورى يقول ذلك ، فقال له : « بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله فى معركة ، لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، وأخذت البلاد والإسلام » . فقل له : « يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبل من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو » .

ومن آرائه الحسنة ما كان يعتمد فيه فى أمر أجناده ؛ فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولداً ذكرّاً أقرّ الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه ، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : [١٦٤] « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها » ، وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند فى المشاهد والحروب بين يديه ؛ وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانهم : دوابهم وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله ذلك على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من المدد ، وكان يقول : « نحن كل وقت فى النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي المدد دخل الوهن على الإسلام » (١) .

(٢) وأما صدقاته ومعروفه وإحسانه فذكر عماد الدين الطائب ، قال : « حسبنا ما تصدق به على الفقراء فى شهر فزاد على ثلاثين ألف دينار » ؛ وكانت عادته فى الصدقة أن يحضر جماعة من أمثال البلد من كل محلة ويسألهم عن يعرفون فى جوارهم

(١) هذا نص هام وقيم لدراسة نظام الإقطاع ونظام الجيش فى دولة الأتابكة بوجه عام ، وفى دولة نور الدين بوجه خاص .

(٢) وردت أخبار صدقاته وإحسانه فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) نقلاً عن العهد الكاتب وابن الأثير ؛ وفى (سبط ابن الجوزى ، المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتهم ، وكان يرسم نفقته الخاصة (١) في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية (٢) في كسوته ونفقته وحوأئجه المهمة ، حتى أجرة خياطه ، وجامكية طباخه ، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر .

وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير ، بل كان إذا اجتمع منه شيء يصرفه ، ويخرجه إلى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه (٣) ، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد [الخراب] (٤) فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله ، وعين له وقوفاً ، ولما أسقط نور الدين الجمات المحظورة (٥) والمكوس — غير السجن — وقال لجمال الدين القاضي : « انظر أنت في ذلك ، فأحمل أمور الناس فيها على الشريعة » ، ولم يكون نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف ، ويقول : « أنا قد قلّدتُه أن يتصرف فيها بما يجب ، ثم ما فضل من مصارفها وشروط واقفها يصرف في بناء الأسوار وحفظ الثغور » .

وبني (٦) — رحمه الله — أسوار بلاده جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصنها

(١) في الأصل : « نفقة الخاص » والتصحيح عن (مرآة الزمان ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢)

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س ولا في الروضتين .

(٣) س (٥٥ ب) : « فيبيمه ويحصل ثمنه » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) و (مرآة الزمان ،

ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢) : « المساجد المهجورة » .

(٥) في الأصل ، وفي س : « المحظورة » وما هنا عن الروضتين .

(٦) أخبار ما بناء من الحصون والقلاع واردة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٩ — ١٠)

تقلا عن ابن الأثير .

وأحكم بناها، وأخرج عليها الأموال [١٦٥] الجلييلة ، وبني المدارس الجلييلة
للحنفية والشافعية ، فمن ذلك :

المدرسة النورية (١) بدمشق التي فيها قبره (٢) .

وكذلك بحلب (٣) وبحمص (٤) ، وبحماة (٥) له مدرستان : إحداها للحنفية ،
والأخرى للشافعية .

وبني الجوامع في أكثر البلاد . فجامعه بالموصل (٦) في نهاية الحسن والانتقان .

(١) ذكر (النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٦٠٦) هذه المدرسة
باسم المدرسة النورية الكبرى تمييزاً لها عن مدرسة أخرى أنشأها نور الدين كذلك في دمشق،
وتعرف باسم المدرسة النورية الصغرى (ص ٦٤٨) . وذكر النعمي أن نور الدين بنى
المدرسة الكبرى في سنة ٥٦٣ هـ ثم عقب على ذلك بقوله : « وفيه نظر ، إنما أنشأها ولده
الملك الصالح إسماعيل ، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ، ودفنه بها » . وقال تاجر الكتاب
الأستاذ جعفر الحسني في تعليقاته إن هذه المدرسة لا تزال حاضرة إلى يومنا ، وهي في سوق
الحياطين ، وفيها ضريح نور الدين . انظر أيضاً : (محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ،

ص ٩٧) و (Souvaget : *Monuments Historiques de Damas*, p. 53) .

(٢) وصف (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٤) مدرسة نور الدين وقبره وصفاً طريفاً ،
قال : « ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين — رحمه الله — ، وبها قبره
— نوره الله — وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم
ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتجار الأبصار في حسن
ذلك النظر ، فكل من يبصره يجدد الدماء لنور الدين — رحمه الله — » .

(٣) كانت مدرسته في حلب تعرف كذلك باسم « النورية بناها سنة ٥٤٤ هـ (كرد علي :
خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٠٥) وأنظر أيضاً : (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٣) .

(٤) ذكر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٨) أنه لم يكن بحمص أثناء زيارته لها غير مدرسة
واحدة فلعلها هذه .

(٥) انظر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٧) و (كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ،
ص ١٢٧) .

(٦) قال (ابن جبير ، ص ٢٣٥) عند كلامه عن الموصل : « وللمدينة جامعان ، أحدهما
جديد ، والآخر من عهد بني أمية » .

و بنى الجامع (١) الذى على شط العاصى بحجة — وهو جامع حسن — وإلى جانبه بیمارستان (٢) من إنشائه .

و بنى بدمشق وحلب بیمارستانين (٣) فى غاية الحسن، ووقف عليهما الوقوف الجليلة .
و بنى الربط والخانات للصوفية فى جميع البلاد ، وأدرّ عليهم الإدارات الجليلة الكثيرة ، وكان يُحضر مشايخ الصوفية ويُقرّبهم ويُدّينهم ويتواضع لهم .
و بنى أيضاً الخانات فى الطرق ، فأمن الناس ، وحفظت أموالهم ، وباتوا فى الشتاء فى كن من المطر .

و بنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادی ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم ، واحتاطوا لأنفسهم ، ولم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وكان — رحمه الله — عنده أهل العلم فى محل عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة ، فمن جملة من قدم عليه : الفقيه قطب الدين الشافعى ، فبالغ فى إكرامه والاحسان إليه ، فحسده بعض الأمراء عنده ، فنال منه [يوماً عند نور الدين] (٤) ، فقال له نور الدين : « يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهى العلم والدين ، أما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت (٥) لشفلك عيبك

(١) انظر وصف هذا الجامع فى (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ص ٦١) .

(٢) قال (كرد على ، ج ٦ ، ص ١٦٦) عند كلامه عن هذا بیمارستان : « وهو الآن شبيه بالندرس يستعمله بعضهم للسكنى ، وذهبت أوقافه إلا قليلا » .

(٣) أنظر وصف بیمارستان النورى بدمشق فى المرجع السابق (ص ١٦٢) ، ووصف بیمارستان النورى بحلب فى نفس المرجع (ص ١٦٥) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، وقد أضفناه للإيضاح .

(٥) فى س : « ولو تثبت » .

عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا تحتمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته ؟ مع أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء (١) لاوذينك » فكفَّ عن أذيته .

وبنى بدمشق داراً للحديث (٢) ، وأوقف عليها وقوفاً كثيرة ؛ وهو أول من بنى داراً للحديث فيما معنا به .

وبنى في كنير من بلاده مكاتب للأيتام ، [١٦٦] وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة .

وبنى مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ [بها] (٣) القرآن [وقوفاً جليلاً] (٤) . وحكى ابن الأثير [في تاريخه الكامل] (٥) : أنه أحصيت أوقاف نور الدين فكانت في كل شهر تسعة (٥) آلاف دينار صورية ، ليس فيها غير ملك صحيح شرعى باطنا وظاهراً ، وأنه وقف ما انتقل إليه [من إرث والده] (٦) أو وزن ثمنه ، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

(٧) وكان مع هذه الفضائل شديد الوقار ، عظيم الهيبة ، ضابطاً لنا موسى الملك مع أصحابه وأجناده إلى غاية لا مزيد عليها .

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) أنظر أخبار هذه الدار في (النعمى : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ وما يليها) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠)

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٥٦ ب) ، وانظر أيضاً : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي : (ابن الأثير ، نفس الجزء والصفحة) ، وفي (الروضتين ص ١٠) ، أما س ففيها : « تسع عشر ألف دينار مصرية » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، ولا وجود له في ابن الأثير أو في الروضتين .

(٧) وردت أخبار هيئته ووقاره في الروضتين (ص ١٠) نقلاً عن ابن الأثير ، ولا وجود لها في الكامل .

وكان إذا جلس لا يجلس أحد إلا بإذن ، إلا الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى — رحمه الله — ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية ، وغيرهما ، فإنهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم إليهم بالقعود ؛ وكان (١) مجلسه — فيما روى — كصفة مجاس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مجلس حكم وحياء ، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال (٢) الصالحين ، والمشورة فى أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو .

ولو أخذنا نعدد ذكر مناقبه (٣) وماآثره لطلال الكلام واتسع الشرح ، وفيما أوردناه من ذلك كفاية .

ولما توفى نور الدين — رحمه الله — رثاه عماد الدين الكاتب بقوله :

عجبتُ من الموت كيف اهتدى (٤) إلى مَلِكٍ فى سَجَايا مَلِكٍ !
وكيف نوى الفَلَكُ المستديرُ فى الأرضِ ، والأرضُ وَسَطَ الذَّلَكِ ؟ !
وبقوله :

يا مَلِكاً أَيْلَهُ لَمْ تَزَلْ لِفَضْلِهِ فَاضِلَةٌ فَاخِرَةٌ
غاصتْ بِمَجُورُ الْجُودِ مِنْ غَيْبَتِ أَتَمَلِكُ الْقَابِضَةَ الزَّاخِرَةَ
مَلِكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَقْتَهَا وَمِيرْتَ حَتَّى تَمَلِكَ الْآخِرَةَ

(١) وردت فى هامش س (٥٦ ب) بخط مخالف لأحد قراء النسخة هذه الجملة : « أخطأ الناقل لهذا اللفظ ، فإن مجالس الأنبياء أجل وأعظم من أن تشبه بمجالس الملوك » .

(٢) س : « أقوال » .

(٣) توجد ترجمة طويلة وافية لنور الدين فى (النعمى : الدارس فى تايخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٦ — ٦١٦) وقد اعتمد فيها المؤلف على كثير من المؤرخين السابقين له ومنهم ابن واصل فى كتابه هذا مفرج الكروب .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) : « أتى » .

وبقوله من قصيدة :

لقد الملك العا دل يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفاق لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل
[١٦٧] وزال الخصب والخير وزاد الشر والحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل
وعزّ النقص لماها ن أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم إذا ما نفق الجهل
وما كان لنور الدين لولا مجله^(١) مثل

(١) كذا في الأصل ، وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣١) ؛ وفي س (١٥٧) : « فقدم » .

فهرس الموضوعات

للجزء الأول

من

كتاب مفرج الكروب في أفعال بني أيوب

لابن واصل

فهرس الموضوعات

صفحة	
٢— ١	مقدمة المؤلف
٦— ٣	ذكر نسب بني أبوب
١٠— ٧	ذكر ابتداء أمر نجم الدين أبوب وأخيه أسد الدين شيركوه
١٨— ١١	ذكر ابتداء الدولة الأتابكية
٢٠— ١٩	ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب على مدينة حلب
٢٥— ٢٠	منازلة قسيم الدولة حمص واستيلاؤه عليها
٢٧— ٢٥	ذكر مقتل الأمير قسيم الدولة آق سنقر
٢٧	ذكر سيرة الأمير قسيم الدولة — رحمه الله —
٣١— ٢٨	ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر — رحمه الله —
٣١	ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكي شحنة بغداد
٣٤— ٣١	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على الموصل
٣٥— ٣٤	ذكر استيلاء عماد الدين على جزيرة ابن عمر
٣٦— ٣٥	استيلاء عماد الدين زنكي على نصيبين
٣٦	استيلاء عماد الدين زنكي على سنجار والخابور
٣٦	استيلاءه على حران
٤٠— ٣٧	ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكي على مدينة حلب
٤٣— ٤١	ذكر استيلاء الأمير عماد الدين على مدينة حماة
٤٦— ٤٣	ذكر قبض الأمير عماد الدين على ديبس بن صدقة المزيدي صاحب الحلة
٥٢— ٤٧	ذكر الوقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله وبين عماد الدين زنكي
٥٣— ٥٢	ذكر منازلة الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل
٥٣	استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة وأخذها من عماد الدين

صفحة

٥٤	ثمان وعشرين وخمسة	ذكر الواقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا سنة
٥٤	.	استيلاء عماد الدين على قلعة الصور
٥٥	.	استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الحميدية
٥٧— ٥٥	.	استيلاء عماد الدين على قلاع الهكارية
٥٨— ٥٧	.	منازلة عماد الدين دمشق
٦٤— ٥٨	.	ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله
٦٦— ٦٥	.	ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد وهروب
٧١— ٦٧	.	الراشد بالله وعماد الدين زنكي إلى الموصل
٧٢— ٧١	.	ذكر البيعة بالخلافة للمقتدى لأمر الله بن المستظهر بالله
٧٤— ٧٢	.	منازلة عماد الدين مدينة حمص
٧٥— ٧٤	.	ذكر فتح قلعة بارين وكسر الفرج — لعنهم الله —
٧٦	.	ذكر فتح المعرة وكفر طاب
٧٧— ٧٦	.	ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الاسلام
٧٩— ٧٧	.	ذكر استيلاء عماد الدين على حمص
٨١— ٧٩	.	ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر
٨٣— ٨١	.	ذكر توجه القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود
٨٤	.	في معنى الروم واستنجاهه به عليهم
٨٥— ٨٤	.	ذكر تخذيل عماد الدين بين الفرج والروم حتى رحلوا خائبين
٨٦— ٨٥	.	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على حران ثانيا
٩٠— ٨٧	.	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على شهرزور وأعمالها
٩٢— ٩٠	.	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك
٩٤— ٩٣	.	ذكر منازلة عماد الدين زنكي دمشق
٩٦— ٩٥	.	ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن محمد وبين عماد الدين زنكي
٩٦	.	ذكر فتح الرها
	.	ذكر مقتل نصير الدين جقّر النائب بالموصل
	.	ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة وتملك المسلمين لها

صفحة	
٩٧	ذكر استيلاء زين الدين على كوجك على إربل
٩٨ — ٩٩	ذكر منازل عماد الدين قلعة جعبر
٩٩ — ١٠٠	ذكر مقتل الشهيد عماد الدين أتابك زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
١٠٠ — ١٠٦	ذكر سيرته وصفته — رحمه الله —
١٠٦ — ١٠٩	ذكر ما كان من الملك ألب أرسلان الخفاجي ولد السلطان بعد قتل عماد الدين
١٠٩ — ١١٠	ذكر أخبار الأيام النورية
١١٠ — ١١٤	ذكر عصيان الرها وعودها إلى المسلمين
١١٤	ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — على حصن العزيمة
١١٤ — ١١٥	كسرة الفرنج يغيري
١١٦	ذكر وفاة سيف الدين غازي بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
١١٦ — ١١٧	ذكر سيرة سيف الدين — رحمه الله —
١١٧ — ١١٨	ذكر استيلاء قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي على الموصل
١١٨ — ١١٩	ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي على سنجار
١١٩ — ١٢٠	ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين ، ورد سنجار إلى قطب الدين
١٢٠ — ١٢٢	ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وكسرة الفرنج
١٢٢	ذكر فتح أفامية
١٢٣	ذكر انهزام نور الدين من الفرنج
١٢٣ — ١٢٤	ذكر وقوع جوسلين في أسر نور الدين — رحمه الله —
١٢٤ — ١٢٥	ذكر فتح تل باشر
١٢٥	ذكر كسرة الفرنج بدلوک وفتحها
	ذكر استيلاء محمود بن زنكي على مدينة دمشق ، وخروج الملك عن بيت طغتكين
١٢٥ — ١٢٧	ذكر منازل نور الدين — رحمه الله — حارم
١٢٧ — ١٢٨	ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك
١٢٨ — ١٣٠	ذكر استيلاء نور الدين على مدينتي بصرى وصرخد

صفحة	
١٣٠—١٣١	ذكر خروج أمير أميران بن زنكي على أخيه نور الدين . . .
١٣١—١٣٣	ذكر وفاة المقتدى لأمر الله وسيرته
١٣٤	ذكر حصر نور الدين مدينة حارم
١٣٥—١٣٧	ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج
١٣٧—١٣٩	ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر
١٣٩—١٤٠	ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية ، ومحاصرتهم أسد الدين بيليس
١٤٠—١٤٣	ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج
١٤٣—١٤٦	ذكر فتح حارم وكسر الفرنج
١٤٦—١٤٧	ذكر فتح بانياس
١٤٨	ذكر فتح حصن المنيطرة
١٤٨—١٤٩	ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذى المسير الثانى إلى مصر
١٥٠—١٥١	ذكر واقعة البابين
١٥١	ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية
١٥١	ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية
١٥٢	ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين
١٥٢—١٥٤	ذكر فتح صافينا والعزيمة
١٥٤	ذكر فراق الأمير زين الدين على كوكبك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل
١٥٥	ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جعبر
١٥٥—١٥٦	ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية المسير الثالث
١٥٧	ذكر منازلة الفرنج ببليس وملكهم لها
١٥٧	ذكر منازلة الفرنج القاهرة
١٥٧	ذكر إحراق مصر
١٥٨—١٦٠	ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج
١٦٠—١٦١	ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر ، ورحيل الفرنج عنها
١٦١—١٦٣	ذكر مقتل شاور
١٦٣—١٦٧	ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية ، وتقلده وزارة العاضد

صفحة

١٦٧—١٦٨	ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذى — رحمه الله — . . .
١٧٤—١٦٨	ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله — على الديار المصرية وتقلده وزارة العاضد
١٧٩—١٧٤	ذكر وقعة السودان بالقاهرة
١٨٤—١٧٩	ذكر منازل الفرنج دمياط ، وعودتهم عنها خائبين
١٨٨—١٨٥	ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى — والد السلطان — إلى مصر
١٨٨	ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل
١٩٠—١٨٩	ذكر سيرته — رحمه الله —
١٩١—١٩٠	ذكر استيلاء سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى على الموصل
١٩٣—١٩١	ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله — على الموصل ، وإقرار ابن أخيه سيف الدين عليها
١٩٥—١٩٣	ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتدى وسيرته
١٩٧—١٩٥	ذكر البيعة بالخلافة للمستضى بنور الله بن المستنجد بالله
١٩٨—١٩٧	ذكر الأحداث السائدة بمصر فى هذه السنة — أعنى سنة ست وستين وخمسة —
١٩٨	خروج الملك الناصر صلاح الدين إلى الغزاة
١٩٩	ذكر فتح قلعة أيلة
٢٠١—٢٠٠	ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر ، وانقراض الدولة العلوية بها
٢٢١—٢٠١	ذكر وفاة العاضد
٢٢٣—٢٢١	ذكر ابتداء الوحشة بين نور وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —
٢٢٤	ذكر منازل السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — الكرك والشوبك
٢٢٨—٢٢٥	ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين
٢٢٩—٢٢٨	ذكر غزوة النوبة
٢٣٠	ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك — رحمه الله —

صفحة	
٢٣٠—٢٣٢	ذكر سيرته — رحمه الله —
٢٣٢	ذكر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —
٢٣٣—٢٣٤	ذكر قصد نور الدين — رحمه الله — بلاد قليج أرسلان .
٢٣٥	ذكر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم
٢٣٦	ذكر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب
٢٣٧—٢٤٣	ذكر دخول الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه ابن أيوب وتملكه لها
٢٤٣—٢٥١	ذكر عزم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية وما آل إليه أمرهم
٢٥١—٢٥٧	ذكر شيء من خبر عمارة وشعره
٢٥٧—٢٥٨	ذكر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين
٢٥٨—٢٦٢	ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
٢٦٣—٢٨٦	صفته وسيرته — رحمه الله —
٢٨٩—٢٩٤	فهرس الموضوعات للجزء الأول من الكتاب

تم طبع هذا الكتاب بمطبعة جامعة فؤاد الأول
في ١٨ يولييه سنة ١٩٥٣ م
محمد زكي خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول

MUFARRIJ AL-KURUB

FI AKHBAR BANI AYYUB

(THE HISTORY OF THE AYYUBIDS)

BY

GAMAL ELDIN MOHAMMED IBN SALIM IBN WASIL

(Ob. 697 A.H. / 1298 A.D.)

VOLUME I

Edited for the First Time

From the Manuscripts of Cambridge, Paris and Istanbul.

AND ANNOTATED BY

GAMAL ELDIN EL-SHAYYAL, M. A. D. LITT.

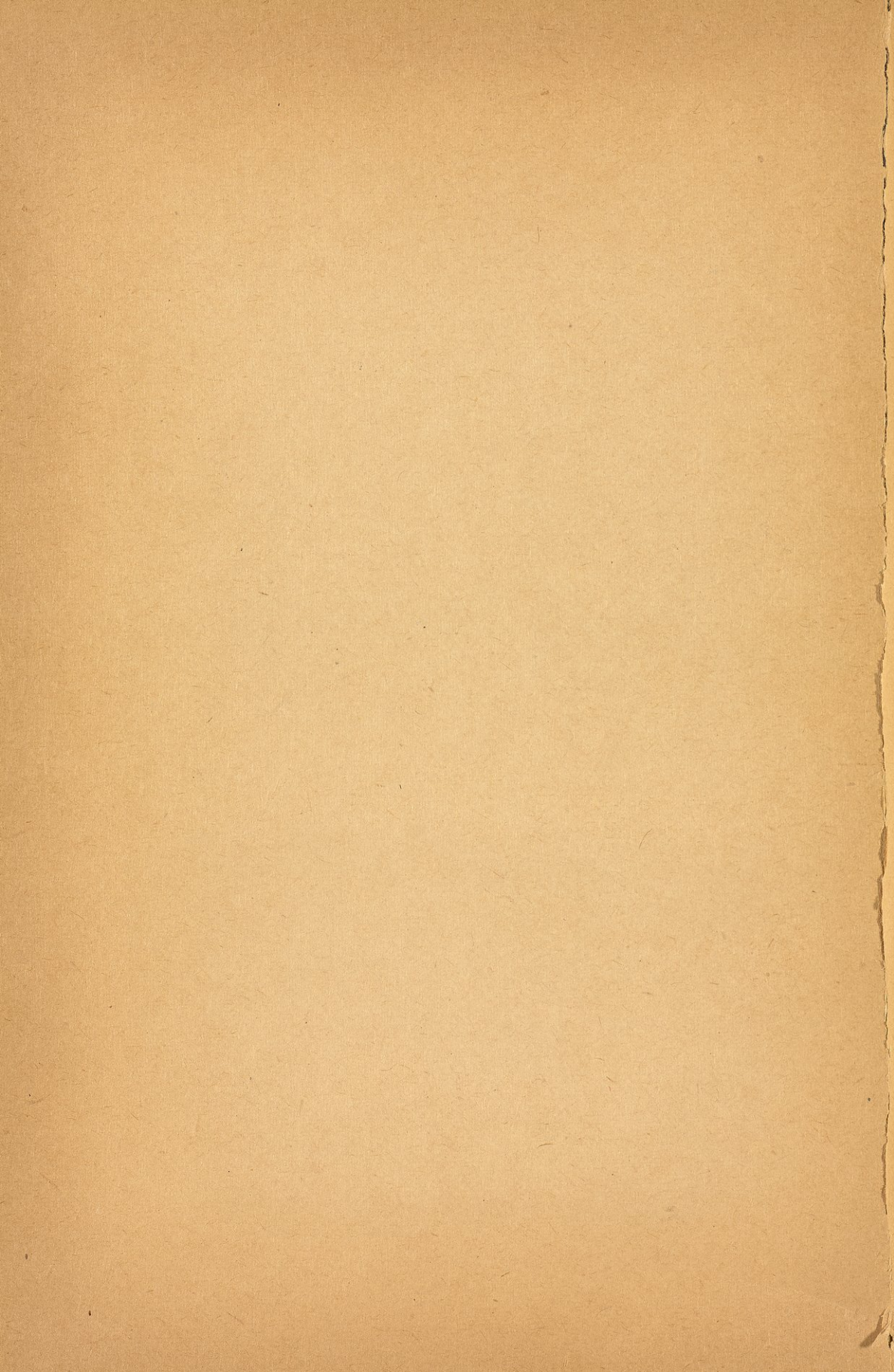
Assistant Professor of Islamic History, Alexandria University.

Publications of the Section of Arabic Manuscripts.

Ministry of Education. General Culture Administration.

FOUAD I UNIVERSITY PRESS

1953



MUFARRIJ AL-KURUB

FI AKHBAR BANI AYYUB

(THE HISTORY OF THE AYYUBIDS)

BY

GAMAL ELDIN MOHAMMED IBN SALIM IBN WASIL

(Ob. 697 A.H. / 1298 A.D.)

VOLUME I

Edited for the First Time

From the Manuscripts of Cambridge, Paris and Istanbul.

AND ANNOTATED BY

GAMAL ELDIN EL-SHAYYAL, M. A. D. LITT.

Assistant Professor of Islamic History, Alexandria University.

*Publications of the Section of Arabic Manuscripts.
Ministry of Education. General Culture Administration.*

FOUAD I UNIVERSITY PRESS

1953

0044121830

[illegible]

Printed
in USA

DT
95.8
.126
v. 1

FOUND

AUG 13 1958

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69578524

DT95.8 .I26

Mufarrij al-kurub fi